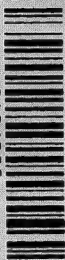
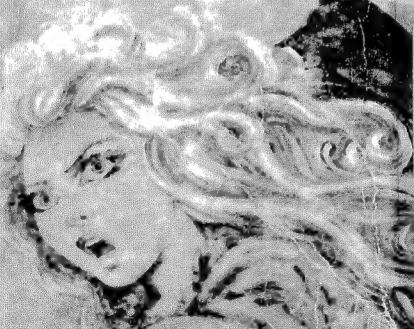


ديراكولا

مصري



الروايات المشهورة

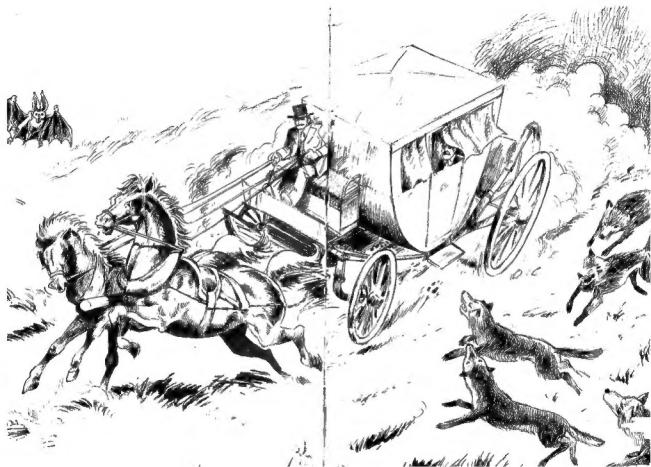


0104988



Bibliotheca Alexandrina

دِرَاكُولا



© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة
جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأي وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر.

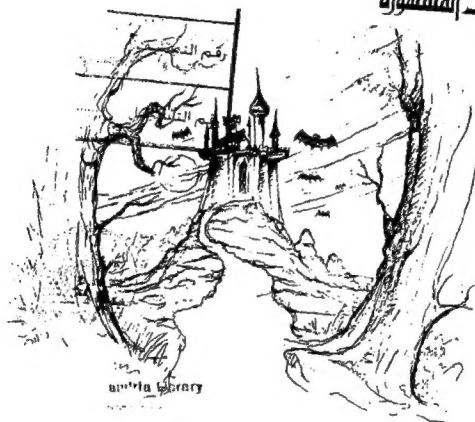
| |
|--------------------------------------|
| الطبعة الثانية |
| رقم الإيداع : ٢٢٩٠ / ٨٨ |
| الترقيم الدولي : ٠٠-٤٨-١٤٤٥-٩٧٧ ISBN |

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

دُرَّ كُولا



الروايات المشهورة



تأليف : بَرَام شَتُوكِر
إعداد : الدكتور محمد محمود رضوان
رُسُوم : نسيم ج. نصيف

مَكْتَبَةُ لُبْنَانَ
بَیروت

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

قَلْعَةُ دِراكَوَلَا

الفصل الأول

لَمْ يَكِدْ الْقِطَارُ يُغَادِرُ بُودَابِسْتِ حَتَّى أَحَسَّ جُونَانَانِ هَارَكَرَ أَنَّهُ يُودَعُ الْعَرَبَ وَيَسْتَقْبِلُ الشَّرْقَ . لَمْ يَكُنْ جُونَانَانِ قَدْ غَادَرَ الْإِنْجِلِيزَا قَطْ مِنْ قَبْلِ ، وَلِذَلِكَ بَدَأَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ غَرِيبًا عِنْدَمَا بَدَأَ رِحْلَتَهُ . أَمَّا الْآنَ فَقَدْ أَزْدَادَ كُلُّ شَيْءٍ غَرَابَةً : الطَّعَامُ الْجَرِيفُ الَّذِي يَجْعَلُهُ يُجَسُّ وَكَأَنَّ فِيهِ نَارًا ، وَاللَّغَاثُ الَّذِي لَا يَعْرِفُهَا ، وَوَادِي الدَّانُوبِ الْمُنْتَسِبُ الْمُتَرَامِي الْأَطْرَافِ ، وَالنَّهْرُ الْعَظِيمُ ذَاتُهُ . كَانَتْ رُؤْيَا أَهْلِ الْرَّيْفِ بِمَلَابِسِهِمُ الزَّاهِيَةِ فِي كُلِّ مَحَطَّةٍ تَجْعَلُهُ وَكَأَنَّهُ فِي عَالَمٍ آخَرَ ، وَلَسَوْفَ يَكُونُ هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِمَّا يَرَوِيهِ لِصَاحِبِيهِ مِنَّا ، الْفَتَاةُ الَّتِي يَمْتَرِزُ الزَّوْجُ بِهَا .

وَقِيَمَا بَعْدَ ، حِينَمَا تَحَرَّكَ الْقِطَارُ نَحْوَ الشَّمَالِ ، تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ مَرَّةً أُخْرَى ، فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ جِبَالٌ ، وَغَابَاتٌ كَثِيفَةٌ ، وَالنَّهَارُ تَتَدَقَّقُ مِيَاهُهَا . وَتَمَلَّكَتُهُ الدَّهْشَةُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْقِلاَعِ تَقِفُ شَامِخَةً فَوْقَ الصُّخُورِ الْعَالِيَةِ ، وَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ الْقَلْعَةُ الَّتِي هُوَ ذَاهِبٌ إِلَيْهَا عَلَى شَاكِلَةِ هَذِهِ الْقِلاَعِ .

كَانَ الظَّلَامُ قَدْ بَدَأَ يَزْحَفُ عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ بِيَسْتَرِيَتِرِ الْقَدِيمَةِ الْجَمِيلَةِ ، الَّتِي تَمْتَدُّ مِنْهَا طَرِيقُ جَبَلِيَّةٍ تُوَصِّلُ إِلَى بُوَكُوْفِيَا . وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ ثَانِيَةً لِيَلْتَمِسَ قَضَاهُمَا عَلَى سَفَرٍ مُنْذُ غَادَرَ بُودَابِسْتِ . وَكَانَ مِنْهُوَكَامًا مَكْدُونًا ، وَلِذَلِكَ شَعَرَ بِالِالْتِرَاجِ وَالْأَسْرُورِ حِينَمَا رَأَى فُنْدُقَ « الْكَتَّاجِ الذَّهَبِيِّ » الَّذِي كَانَ الْكَوْنُوتُ دِرَاكَوَلَا قَدْ رَتَّبَ لَهُ الْإِقَامَةَ فِيهِ ، وَالَّذِي كَانَ يَتَدَوَّى مِنْ مَظْهَرِهِ أَنَّهُ فُنْدُقُ مَرِيحٍ تَشْبِعُ فِيهِ الْمَوَدَّةَ . وَصَعِدَ بِهِ مُدِيرُ الْفُنْدُقِ إِلَى غُرْفَةٍ بِهَيْجَةِ نَظِيمَةٍ تَطُلُّ عَلَى سَاحَةِ رَيْفِيَّةٍ غُرِسَتْ فِيهَا بَعْضُ أَشْجَارِ الْفَاكِهَةِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَغْتَسَلَ جُونَاثَانُ قَزَلٌ لِيَتَنَاوَلَ الطَّعَامَ ، وَوَجَدَ عَلَى الْمَائِدَةِ الْمُعَدَّةِ لَهُ رِسَالَةً قَرَأَ فِيهَا :

عَزِيزِي الْكَسْبُ هَارِكِرَ ،

وَهَكَذَا قَدْ وَصَلْتَ إِلَى تَرَانْسِيلْفَانِيَا ، وَإِنَّهُ لَيَسْعِدُنِي أَنْ أَتَرَقَّبَ لِفَاءِكَ . أَرْجُو لَكَ نَوْمًا هَادِئًا اللَّيْلَةَ ، وَفِي السَّاعَةِ الْثَالِثَةِ بَعْدَ ظَهْرِ الْعَدِ ، سَتَرَكَبُ الْغَرَبَةَ الَّتِي حَجَزْتُ لَكَ مَكَانًا فِيهَا ، وَالْمَتْنَجِهَةَ إِلَى بُوكُوفِينَا ، فَإِذَا بَلَغْتَ أَغْلَى بُقْعَةٍ فِي الطَّرِيقِ الْخَاصِ إِلَى الْجِبَالِ فَسَوْفَ تَجِدُ عَرَبَتِي فِي الْبُطَارِكِ فَتَجْلِسُكَ إِلَى حَيْثُ تُلْقَانِي : لَعَلَّكَ سَعِدْتَ بِرِخْلَتِكَ مِنِّي . لَكُنْ ، وَأَنَا وَاثِقٌ أَنَّكَ سَوْفَ تَسْتَمْتِعُ بِالْإِقَامَةِ فِي أَرْضِي الْجَمِيلَةِ .

صَدِيقُكَ

دِرَاكُولَا

فَلَمَّا قَرَأَ جُونَاثَانُ الرِّسَالَةَ قَالَ لِنَفْسِهِ : « مَا أَكْرَمَهُ ! وَمَا أَشَدَّ مَهَارَتَهُ فِي وَضْعِ بَرْنَامِجِ رِخْلَتِي ! » وَلَكِنَّهُ حِينَمَا سَأَلَ مُدِيرَ الْفُنْدُقِ كَيْفَ وَصَلَتِ الرِّسَالَةُ بَدَأَ عَلَى الرَّجُلِ شَيْءٌ مِنْ عَدَمِ الْإِتْيَاجِ ، وَتَظَاهَرَ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ لُغَتَهُ الْأَلْمَانِيَّةَ . وَعِنْدَمَا حَاوَلَ جُونَاثَانُ أَنْ يَعْرِفَ مِنْهُ مَعْلُومَاتٍ أَكْثَرَ عَنْ قَلْعَةِ دِرَاكُولَا بَدَأَ عَلَيْهِ أَنَّهُ غَيْرُ رَاضٍ فِي الْحَدِيثِ ، وَكُلُّ مَا قَالَهُ إِنَّهَا تَبْعُدُ كَثِيرًا عَنْ بِيستْرِتِزَ ، وَإِنَّهُ لَمْ تَنْجُ لَهُ فُرْصَةٌ لِيَاذَرَهَا قَطُّ .

كَانَ هَذَا الْكَسْبُ غَرِيبًا ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا كَانَ جُونَاثَانُ فِي طَرِيقِهِ بَعْدَ ظَهْرِ الْيَوْمِ الْكَثَالِي إِلَى الْغَرَبَةِ ، كَانَ مَسَلُّكَ زَوْجَةِ مُدِيرِ الْفُنْدُقِ أَشَدَّ غَرَابَةً . فَقَدْ حَدَّثَ حِينَمَا كَانَ مُتَجِّهًا لِأُخَذَ مَكَانَهُ فِي الْغَرَبَةِ أَنْ جَاءَتْ إِلَيْهِ وَعَلَى وَجْهِهَا تَظَرُّعٌ خَوْفٍ وَرَغْبٍ وَسَأَلَتْهُ : « الْأَبَدُ لَكَ مِنْ الْكَذَّاهِبِ ؟ »

فَتَطَلَّعَ إِلَيْهَا جُونَاثَانُ فِي دَهْشَةٍ وَأَجَابَهَا : « إِنِّي لَمْ آتِ إِلَى هُنَا مِنْ الْجَلِيلِ لِلزَّهْرَةِ . إِنِّي هُنَا فِي عَمَلٍ ، وَأَلَسْتُ أُمْلِكُ حَقَّ الْتَصَرُّفِ حَسَبَمَا أَرْغُبُ ، فَهَلْ مِنْ سَبَبٍ

يَدْعُونِي إِلَى غَدَمِ الْكَذَّابِ ؟ » .

فَقَالَتِ السَّيِّدَةُ وَهِيَ تَضَعُ يَدَهَا عَلَى ذِرَاعِهِ : « أُرْجُوكَ .. فَهَنَّاكَ حَظَرَ . »

وَحَازِلُ جُونَاثَانَ أَنْ يَتَّسِمَ ، وَلَكِنَّ الْإِتِّسَامَةَ لَمْ تُطَاوَعُهُ ، فَقَالَ لَهَا : « أَيُّ حَظَرَ يُمَكِّنُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لَهُ ؟ إِنَّنِي ذَاهِبٌ لِزِيَارَةِ الْكُوتِ دِرَاكُولَا . »

وَهُنَا بَدَأَ عَلَى السَّيِّدَةِ آرْتِيَاكَ شَدِيدٌ ، وَأَخَذَتْ تَقُوهُ بِعِبَارَاتٍ بُلْغَةٍ غَيْرِ الْأَلْمَانِيَةِ .. لُغَةٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ لَهُ . وَكَانَ هُنَاكَ آخَرُونَ عَلَى مَقَرَّةٍ جُاعُوا نَحْوَهُمَا . وَأَخِيرًا خَلَعَتِ السَّيِّدَةُ الْصَلِيبَ الْمَعْلَقَ فِي عُنُقِهَا وَوَضَعَتْهُ حَوْلَ عُنُقِ جُونَاثَانَ ، وَبَدَأَ عَلَيْهَا وَهِيَ تَفْعَلُ ذَلِكَ مَظْهَرُ الْجِدِّيَّةِ الشَّدِيدَةِ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ إِلَّا الْقَبُولَ ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَيْسٌ مِنَ الْكَمَالُوفِ أَنْ يَضَعُ الرَّجُلُ الْإِنْجِيلِيَّ صَلِيبًا حَوْلَ عُنُقِهِ ، وَكَانَ الْأَمْرُ غَرِيبًا بِالنَّسْبَةِ لَهُ .

رَكِبَ جُونَاثَانَ الْعَرَبَةَ ، وَبَدَأَ السَّائِقُ رِحْلَتَهُ ، أَمَّا جُمْهُورُ الْوَاقِفِينَ فَقَدْ أُخْذُوا يَرْسُمُونَ فِي الْهَوَاءِ إِشَارَةَ الصَلِيبِ . وَكَانَ هَذَا آخِرَ عَهْدِ جُونَاثَانَ بِيَسْتَرِيَتِز .

سَأَلَ جُونَاثَانَ وَعَلَى وَجْهِهِ اتِّسَامَةٌ : « هَلْ نَحْنُ مُعَرَّضُونَ لِحَظَرَ دَاهِمٍ ، وَمِنْ نَمَّ نَحْتَاجُ إِلَى اتِّسَامِي كُلِّ هَذِهِ الْبَرَكَاتِ مِنْ اللَّهِ ؟ »

فَاجَابَ أَخَذَ الْمُسَافِرِينَ فِي جِدِّيَّةٍ : « بَعْضُنَا قَدْ يَكُونُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا . »

أَخَذَ جُونَاثَانَ يَتَطَّلَعُ إِلَى جَمَالِ الطَّبِيعَةِ الْفَتَّانِ ، مِمَّا جَعَلَهُ يَتَسَمَّى — لِفَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ — كُلِّ هَذِهِ الْغَرَائِبِ . وَالْحَقُّ أَنَّ الْكُوتَ دِرَاكُولَا كَانَ عَلَى حَقِّ أَنْ يَفْخَرُ بِوَيْثِلِ هَذِهِ الْأَرْضِ الرَّاغِبَةِ . كَانَتْ هُنَاكَ أَشْجَارٌ مُزْهِرَةٌ ، وَحُقُولٌ خُضْرٌ ذَاتُ بَهْجَةٍ ، وَأَكْوَاحُ خَشْيَةٍ ، وَجَدَدُولُ جَارِيَةٍ ، ثُمَّ هُنَاكَ الْغَابَةُ الَّتِي يَكْتَنِفُهَا الظَّلَامُ ، وَالَّتِي تَمْتَدُّ لِطُوقِ الْمَكَانِ .

كَانَ الطَّرِيقُ غَيْرَ مُمَهَّدٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ السَّائِقُ يَمُضِي بِالْعَرَبَةِ مُسْرِعًا ، كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَنْتَهِيَ الرَّحْلَةَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ سُرْعَةٍ . وَفِيمَا يَتَعَدَّى ، حِينَئِذٍ بَدَأَ الطَّرِيقُ يَتَصَعَّدُ

إِلَى الْجِبَالِ كَانَ مُضْطَرًّا إِلَى الْإِبْطَاءِ . وَأَرَادَ جُونَانَانِ حَيْثُكَ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ الْعَرَبَةِ وَيَسِيرَ عَلَى قَدَمَيْهِ بِمُحَازَاتِهَا ، وَلَكِنَّ السَّائِقَ لَمْ يَسْمَحْ لَهُ ، وَقَالَ مُحَذِّرًا : « لَا ! لَا ! إِنْ أَلْتَمَحَ هُنَا حَظْرَةٌ : »

وَحِينَمَا انْتَشَرَ الظُّلَامُ انْتَابَتِ الْمُسَافِرِينَ الرَّهْبَةُ ، وَلَكِنَّ السَّائِقَ زَادَ فِي سُرْعَةِ الْجِيَادِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّفُ إِلَّا لَحِظَةً رَيْعًا يُشْعِلُ الْمَصَابِيحَ . وَأَخِيرًا بَلَغَتِ الْعَرَبَةُ أَعْلَى بُقْعَةٍ فِي الطَّرِيقِ ، وَصَحَّتْ فِي طَرِيقِ لَا هُوَ مُرْتَفِعٌ وَلَا هُوَ مُنْحَفِضٌ ، وَقَدَّرَ جُونَانَانِ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَاهُنَا الْمَكَانُ الَّذِي تَنْتَظِرُهُ فِيهِ عَرَبَةُ الْكَوْنِ دِرَاكُولَا .

وَفَجْأَةً أَخَذَ الرُّكَّابُ الْآخَرُونَ يُلَوِّحُونَ بِأَيْدِيهِمْ يَلْتَمِسُونَ لَهُ الْبَرَكَاتِ كَمَا فَعَلَ أَوَّلُكَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَ الْفَنْدُقِ . فَهَلْ كَانَ هَذَا أَمْرًا مَأْلُوفًا ، أَمْ أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ خَطَرٌ حَقًّا ؟ ثُمَّ تَوَقَّفَتِ الْعَرَبَةُ وَانْتَفَرَّتْ ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ فِيهَا صَامِتًا يَرْقُبُ الْمَصَابِيحَ الْمُشْتَغِلَةَ ، أَمَّا الْجِيَادُ فَكَانَتْ تَرْجِفُ مُتَمَلِّمَةً .

وَبَعْدَ لَحْظَاتٍ قَالَ السَّائِقُ : « لَا تُوجَدُ عَرَبَةٌ هُنَا ، لَيْسَ هُنَاكَ أَحَدٌ فِي انْتِظَارِ السَّيِّدِ الْإِنْجِلِيزِيِّ فَمِنْ الْأَفْضَلِ لَهُ أَنْ يَظُلَّ فِي الْعَرَبَةِ مَعَنَا إِلَى بُوْكُوفِينَا ، ثُمَّ يَعُودُ غَدًا ، بَلْ لَعَلَّ الْأَفْضَلَ لَهُ أَنْ يَعُودَ بَعْدَ غَدٍ . »

فَقَالَ أَحَدُ الْمُسَافِرِينَ : « أَوْ لَعَلَّ الْخَيْرَ أَلَّا يَعُودَ أَبَدًا . »

فَصَاحَ آخَرُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ، خَيْرٌ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بُوْكُوفِينَا . »

وَلَمْ يَكُنْ يَتِمُّ عِبَارَتُهُ حَتَّى طَرَقَ أَسْمَاعُهُمْ صَوْتُ عَرَبَةٍ أُخْرَى مِنْ خَلْفِهِمْ . وَظَهَرَتْ أَرْبَعَةُ جِيَادٍ سَوْدٍ ، يَسُوقُهَا رَجُلٌ طَوِيلٌ يَرْتَدِي قُبْعَةً كَبِيرَةً سَوْدَاءَ ، وَكَانَتِ الْقُبْعَةُ تُخْفِي مُعْظَمَ وَجْهِهِ ، فِيمَا عَدَا عَيْنَيْهِ اللَّتَيْنِ كَانَ آخِرَارُهُمَا يَلْمَعُ فِي ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ .

قَالَ الرَّجُلُ فِي لَعْنَةِ الْمَانِيَةِ سَلِيمَةٍ : « لَقَدْ وَصَلْتَ مُبَكِّرًا الْكَلِيلَةَ يَا صَدِيقِي . »

فلَم يُجِئَهُ سَائِقُ يَسْتَرِيثِر ، وَكَانَ وَاصِلًا أَنَّهُ عَائِلٌ . فَرَدَّدَ الرَّجُلُ مَرَّةً ثَانِيَةً . « لَقَدْ
وَصَلَتْ مُبَكَّرًا الْكَلِمَةَ . »

فَأَجَانَهُ سَائِقُ يَسْتَرِيثِر . « إِنَّ السَّيِّدَ الْإِنْجِيلِيَّ كَانَ مُسْتَعِجِلًا . »

فَقَالَ الرَّجُلُ : « أَفَلَمْ أُنْ هَذَا غَرَضًا كَسَيْتُ فِي الْبَرَكِ أَرَدْتُ أَنْ فَأُشَدَّهُ إِلَى بَرَكِيهَا . إِنَّكَ
لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُخَفِّي مَا يُخَوِّلُ فِي وَجْهِكَ بَيْنَ الْفَكَارِ بِاصْدِيقِي . » قَالَ ذَلِكَ ، وَانْكَسَمَ
الْإِسْمَاءُ قَبِيحَةً ، فَطَهَّرَتْ فِي صَوْنِهِ الْفَصَاحِيحَ أَسْأَلُهُ الْكَيْتُضَاءَ غَيْرَ الْفَادِيَةِ .

وَمَرَّةً ثَانِيَةً لَمْ يُجِئْ سَائِقُ يَسْتَرِيثِر بِكَلِمَةٍ ، زَالِمًا قَفَزَ إِلَى الْأَرْضِ بِسُرْعَةٍ ، وَضَمَعَ



حَفَائِبَ جُونَانَانَ فِي الْغَرَبَةِ الْأُخْرَى ، وَهَيَّطَ جُونَانَانُ مِنَ الْغَرَبَةِ ، وَسَاعَدَهُ السَّائِقُ الْجَدِيدُ فِي صُعُودِ عَرَبِيهِ . وَلَمْ يَشْعُرْ جُونَانَانُ بِأَرْتِيَا حِينَمَا أَنْغَرَزَتْ أَصَابِغُ السَّائِقِ الْغَرِيبَةِ النَّحِيلَةَ بِعُمُقٍ فِي ذِرَاعِهِ .

وَأَطْلَقَتْ عَرَبُهُ بِيَسْتَرِيَهْزْ ثُمَّ اخْتَفَتْ فِي الظُّلَامِ . وَأَحْسَنَ جُونَانَانُ فَجْأَةً بِالْوَحْدَةِ الْمَوْجِشَةِ .

قَالَ الرَّجُلُ : « إِنَّ اللَّيْلَةَ بَارِدَةٌ ، فَخُذْ هَذَا غِطَاءً تَتَذَكَّرُ بِهِ . لَقَدْ طَلَبَ مِنِّي سَيِّدِي أَنْ أُرْعَاكَ خَيْرَ رِعَايَةٍ ، وَهَذَاكَ رُجَاةٌ عَصِيرٌ تَحْتَ الْمَقْعَدِ إِذَا رَغَبْتَ فِي الشَّرْبِ . »

وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، وَلَئِنَّمَا حَوَّلَ مَسَارَ الْغَرَبَةِ وَأَطْلَقَ بِهَا فِي طَرِيقِ جَانِبِي لَمْ يَلْحَظْهُ جُونَانَانُ مِنْ قَبْلِ ، وَكَانَ يَمْتَدُّ لِيَتَصَعَّدَ إِلَى أَعْلَى الْجَبَلِ .

وَيَتِمَّا كَانَتْ الْغَرَبَةُ تَسِيرُ بِهِمَا فِي اللَّيْلِ الْهَيِّمِ لَمْ يَكُنْ جُونَانَانُ فِي الْبِدَايَةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى شَيْئًا . فَقَدْ كَانَ الظُّلَامُ حَالِكًا ، وَلَمْ تَكُنِ الْغَرَبَةُ مُزَوَّدَةً بِمَصَابِيحَ ، وَلَئِنَّمَا كَانَتْ تُطْرِقُ سَمْعُهُ طَوَالَ الْوَقْتِ أَصْوَاتُ الذُّنَابِ ، فَيَعْوِي ذَنْبٌ أَوَّلًا ، ثُمَّ يَعْوِي آخَرُ بَعْدَهُ ، كُلُّ يَرُدُّ عَلَى صَاحِبِهِ . وَكَانَتْ أَصْوَاتُهَا تَتَرَدَّدُ عِزَّ الْوُذْيَانِ ، وَكَلَّمَا مَضَتْ الْغَرَبَةُ قُدَمًا آزَدَاذَتْ أَصْوَاتُهَا أَرْفَاعًا ، حَتَّى بَدَأَ وَكَانَ الذُّنَابُ تُحِيطُ بِهِمَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . وَحِينَمَا خَذَقَ جُونَانَانُ بِعَيْنَيْهِ خِلَالَ الظُّلَامِ رَأَى قَطِيعًا مِنَ الذُّنَابِ تَلْتَفُّ حَوْلَهُمَا كَأَنَّمَا يَقُومُ بِحِرَاسَتِهِمَا . فَكَانَتْ حَلَقَةٌ مِنَ الْكُيُوبِ الْحُمْرِ تَتَحَرَّكُ مَعَهُمَا بِتَفْسِ السَّرْعَةِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ بِهَا الْحَيَاةُ .

وَلَمْ يَكُنْ يَتَدَوَّى عَلَى السَّائِقِ أَنَّهُ يَكْتَرِثُ بِهَا رِأَاهُ ، وَلَكِنْ الْحَيَاةُ كَانَتْ خَائِفَةً ، وَحِينَمَا آزَدَاذَتْ الذُّنَابُ قُرْبًا صَاحَ السَّائِقُ فِيهَا ، كَمَا يَصْبِحُ الْكَمَرُ فِي كِلَابِهِ .

كَانَتْ الْكُنْجَرَةُ بِالنَّسَبَةِ لَجُونَانَانَ أَشْبَهَ بِحُلْمٍ طَوِيلٍ مُزَعِجٍ وَلَمْ يَتَنَبَّهُ هَذَا الْحُلْمُ إِلَّا حِينَمَا تَغَيَّرَ صَوْتُ عَجَلَاتِ الْغَرَبَةِ ، يَمَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا قَدْ أَجْتَازَا سَاحَةَ الْكَدَّارِ فِي قَلْعَةِ دِرَاكُولَا .

الفصل الثاني

غادرت القرية المكان وتركت جوناثان واقفاً أمام باب قديم ضخم ذي دعامتين حديديتين . ولم يكن بالطابق الأرضي أية نافذة ، وإنما كان هناك ضوء يتبعث من أعلى السمتي مما يدل على أن القلعة لم تكن خالية من السكان ، ولم يكن هناك جرس ، ولذلك لم يكن في وسعه إلا أن ينتظر حتى يأتي أحد يقوده إلى الدخيل .

ظل جوناثان واقفاً بضغّة دقائق لا تطرف سمعه إلا أصوات الذئب ، إلى أن سمع جلبة عند الجباب الدخلي من الباب ، ثم فتح الباب ، وظهر رجل طويل أسود الشعر يلبس رداءً أسود ، ويُمسك في يده مصباحاً فضياً . ابتسم الرجل قائلاً :

« إني أقدم إليك منزلي ، فأهلاً بك وسهلاً . تدخله حراً وترحل منه سائماً ، وأترك لدينا بعد رحيلك بعضاً من السعادة التي جئت بها إلينا . »

فسأل جوناثان وهو يصابيح الكبد التي امتدّت إليه : « ألكونت دراكولا ؟ »

فاجاب الرجل : « أنا دراكولا . وسرني ياسيد هاركر . أن أستقبلك في منزلي . سأحول عنك حقائبك ، فألوقت متأخراً والكخدم نائمون . »

وأخذ جوناثان المصباح بيده ، وبعده وهو يصعد السلم ، ثم وهو يعبر من خلال حجرة فسيحة مضاءة إضاءة جيدة إلى غرفة نوميه . وكان سرور جوناثان بالغاً إذ وقع بصره في الحجرة التي اجتازها على ملغاة حطب مشتعلة ، ومائدة عميرة بالطعام .

لم يجلس الكونت مع جوناثان إلى المائدة معتذراً بأنه سبق أن تناول طعامه ، ولذلك ، فبينما كان جوناثان يأكل ، أخذ الكونت يطالع الرسالة التي أحضرها جوناثان معه من السيد هوكينز المحامي المسنن الذي يعمل في مكتبه . وبدأ على الكونت السرور بعد أن قرأ الرسالة ، ثم أعادها إلى جوناثان لكي يطلع على الأشياء الطيبة التي

كَتَبَهَا هُوكِينْز عَنْهُ .

وَبَعْدَ أَنْ تَنَاوَلَ جُونَاثَانُ طَعَامَهُ جَلَسَ الضَّئِيفُ وَالْمُضِيفُ بِجِوَارِ الْمِدْفَاءِ يَتَحَدَّثَانِ .
وَكَانَ جُونَاثَانُ مَسْرُورًا لِأَنَّ الْكَوْكُوتَ كَانَ يَتَحَدَّثُ بِلُغَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ سَلِيمَةٍ ، كَمَا أَنَّ السَّرُورَ
كَانَ بِإِدْيَا عَلَى الْكَوْكُوتِ لِأَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ ، وَكَانَ هُوَ أَكْثَرَ الْأَثْنَيْنِ
حَدِيثًا مِمَّا هِيَ لِجُونَاثَانِ فُرْصَةً أَتَّامِلُ فِي وَجْهِهِ وَدِرَاسَتِهِ .

كَانَ وَجْهُهُ غَيْرَ عَادِيٍّ ، فَلَأَلْفُ قَوِيٍّ حَسَنُ الصُّورَةِ ، وَالْأُذُنَانِ مُحَدَّدَتَانِ نَاهِيَتَانِ ،
وَالشَّفَتَانِ خَمْرَاوَانِ ، وَالْأَسْنَانُ حَادَّةٌ بَيَضَاءُ . وَلَكِنْ الْشَيْءُ الَّذِي كَانَ يَلْفُتُ فِيهِ النَّظَرُ
بِصِفَةِ خَاصَّةٍ هُوَ ذَلِكَ الْكُشُوبُ غَيْرَ الطَّبِيعِيِّ . لَا بُدَّ أَنَّ الرَّجُلَ كَبِيرَ الْكَسَنِ ، وَلَكِنَّهُ ، مَعَ
ذَلِكَ ، كَانَ يَبْدُو قَوِيًّا نَشِيطًا . وَقَدْ لَحَظَ جُونَاثَانُ أَيْضًا يَدَيْهِ اللَّتَيْنِ تَبَتَّ الشَّعْرُ فِي
رَاحَتَيْهِمَا ، وَأَصَابِعُهُ الطَّوِيلَةَ الْخَادَّةَ الْأَطْرَافِ . وَلَمْ يَكُنْ جُونَاثَانُ يَشْعُرُ بِالْإِتْيَاجِ حِينَمَا
كَانَ الْكَوْكُوتُ يَتَحَدَّثُ فَيَلْبِسُ أَحْيَانًا ذِرَاعَهُ بِأَصَابِعِهِ ، كَمَا أَنَّ الرَّاحِلَةَ الْكَمْتِيَّةَةَ مِنْ أَلْفَاسِي
الْكَوْكُوتِ كَانَتْ تُثِيرُ الْعُقَيَانَ . لَقَدْ كَانَتْ فِيهَا رَاحِلَةُ الْمَوْتِ ، حَتَّى لَقَدْ تَسَاءَلَ فِي نَفْسِهِ :
« تَرَى أَتَكُونُ هِيَ السَّبَبُ فِي أَنَّ النَّاسَ يَخَافُونَهُ ؟ »

وَأَخِيرًا ، خِيمَ السُّكُونُ عَلَى الْقَلْعَةِ فِيمَا عَدَا غَوَاءَ الذُّنَابِ فِي الْخَارِجِ وَالَّذِي كَانَ لَا يَزَالُ
مَسْمُوعًا . وَقَالَ الْكَوْكُوتُ وَهُوَ يَنْهَضُ : « أَوْلَادِي فِي هِيَاجٍ كَالْبَلَّةِ . إِنَّ لَدُنَا بَعْضَ
الزُّوَارِ . »

وَحِينَمَا نَهَضَ ، كَانَ ضَوْؤُهُ الْفَجْرِ قَدْ بَدَأَ يَنْتَشِيرُ ، وَهَكَذَا أَقْفَضَتْ أَوَّلَ لَيْلَةٍ لِجُونَاثَانِ فِي
قَلْعَةِ دِرَاكُولَا .

كَانَ جُونَاثَانُ مُرْهَقًا مَكْدُودًا ، وَلِذَلِكَ نَامَ طَوِيلًا ، وَلَمَّا اسْتَيْقَظَ ذَلَفَ إِلَى الْحُجْرَةِ الَّتِي
تَنَاوَلَ فِيهَا الطَّعَامَ فِي اللَّيْلَةِ الْخَامِصِيَّةِ ، فَوَجَدَ طَعَامَ الْإِنْفَاطِرِ مُعَدًّا ، وَابْرَيْقَ الْقَهْوَةِ قُرْبَ نَارِ
الْمِدْفَاءِ ، وَأَمْسَكَهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنْ يَرَى قَلْعَةَ دِرَاكُولَا عَلَى حَقِيقَتِهَا : فَبَيَّ قَلْعَةً قَدِيمَةً

مَلِيَّةٌ بِالْبَغَارِ ، مَسَهَا الْبَلَى ، مَعَ أَنَّ إِبْرِيْقَ الْقَهْوَةِ كَانَ مِنَ الذَّهَبِ .

وَحِينَمَا فَرَّغَ مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامِهِ نَظَرَ بِاحْتِنَاءٍ عَنْ جَرَسٍ يَدُقُّهُ لِكَيْ يَعْرِفَ الْخَدَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرْفَعُوا الْكُصْحُونَ . وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ جَرَسٌ ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ خَدَمٌ عَلَى الْأَقْلَ فِي هَذَا الْبُجْزِ مِنَ الْقَلْعَةِ الَّذِي كَانَ يُمَكِّنُهُ التَّجَوُّلُ فِيهِ ، وَكَانَتْ الْأَبْوَابُ كُلُّهَا مَوْصَدَةً فِيمَا عَدَا بَابًا وَاحِدًا كَانَ يُؤَدِّي إِلَى حُجْرَةِ جُلُوسٍ تَشْتَمِلُ عَلَى مَجْمُوعَةِ كُتُبٍ ، وَقَدْ أَخَذَتْهُ الْكَدْهَشَةُ حِينَمَا وَجَدَ بَيْنَهَا كُتُبًا وَصُحُفًا إِنْجِلِيزِيَّةً ، فَجَلَسَ لِيُطَالِعَ . وَكَانَ لَا يُرَآلُ جَالِسًا لِلْقِرَاءَةِ فِي الْمَسَاءِ حِينَمَا دَخَلَ الْكَوْنَتُ الَّذِي بَادَرَهُ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّمَا مَسْرُورٌ لِأَنَّكَ عَرَفْتَ طَرِيقَكَ إِلَى هُنَا . إِنَّمَا ، مِنْذُ عَزَمْتُ عَلَى شِرَاءِ مَنْزِلٍ فِي الْإِنْجِلْتِرَا ، أَحَاوَلْتُ أَنْ أُعْرِفَ شَيْئًا عَنِ الْحَيَاةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ . وَبِوَسِيلَتِي أَنْ مَعْرِفَتِي بِاللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ كَانَتْ عَنْ طَرِيقِ الْكُتُبِ فَحَسَبْتُ ، وَلَكِنِّي أَمَلْتُ أَنْ أَزْدَادَ بِهَا عِلْمًا بِالتَّحَدُّثِ إِلَيْكَ يَاسِيدُ هَارْمَرُ . وَلِلذَلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَطَوَّلَ إِقَامَتُكَ فِي قَلْعَتِي ، وَلَاأَنْ تَكُونَ مُتَعَجِّلًا فِي الْغُودَةِ . »

ثُمَّ اسْتَمَرَ يَقُولُ : « وَلَذَلِكَ يَاسِيدُ هَارْمَرُ ، مَاذُمْتُ هُنَا ، أَنَّ الدَّارَ دَارُكَ . فَجَلَّ فِيهَا حَيْثُ نَشَاءُ فِيمَا عَدَا مَا وَرَاءَ الْأَبْوَابِ الْمَوْصَدَةِ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ ، بِالطَّبِيعِ ، لَنْ تَرْغَبَ فِي دُخُولِهَا . إِنَّ هُنَاكَ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا يَدْعُو إِلَى هَذِهِ الْإِجْرَاءَاتِ ، فَتَخَرُّ فِي تَرَانِسِلِقَالِيَا ، وَتَرَانِسِلِقَالِيَا تَيْسَتْ إِنْجِلْتِرَا . »

وَبَيْنَمَا كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ تَكَشَّفَتْ أَسْنَانُهُ عَنِ ابْتِسَامَةٍ أَشْبَهَ بِابْتِسَامَةِ الذَّهَبِ ، وَاسْتَمَرَ يَقُولُ : « وَالْآنَ ، زَوَّدَنِي بِمَعْلُومَاتٍ عَنِ الْمَنْزِلِ الَّذِي أَشْتَرَاهُ لِي صَاحِبِكَ الْيَسِيدُ هُوكِينِزِر ، وَأَحْسَبُ أَنَّ هُنَاكَ بَعْضَ أَوْرَاقٍ لِأَوْفَعٍ عَلَيْهَا بِاسْمِي ، وَطَبِيعِي أَنْ تَكُونَ لَدَيَّ رَغْبَةٌ فِي مَعْرِفَةِ كُلِّ شَيْءٍ . »

فَرَدَّ جُونَاتَانُ : « أَوَّلًا ، أَمَلْتُ أَنْ تَجِدَ أَنَّ الْمَنْزِلَ الَّذِي أَشْتَرَيْتَهُ لَكَ هُوَ مَا كُنْتَ تَرْغَبُ فِيهِ فِعْلًا ، وَأَصْدَقَكَ الْقَوْلُ : إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ التَّوَعُّدِ الَّذِي يَرْغَبُ فِيهِ أَغْلَبُ النَّاسِ ، وَلَكِنَّهُ

يُطابق ما طلبته . إِنَّهُ يُسَمَّى كَارْفَاكْس ، وَمُلْحَقٌ بِهِ أَرْضٌ وَاسِعَةٌ تُعْطَى مُعْظَمَهَا الْأَشْجَارُ
بِمَا يُضْفِي عَلَيْهَا بَعْضُ الظُّلْمَةِ . أَمَّا الْمَنْزِلُ ذَاتُهُ فَوَاسِعٌ قَدِيمٌ قَلِيلُ الْكَوَائِدِ ، وَأَخْشَى أَنَّكَ
لَنْ تَجِدَ صُحْبَةً كَثِيرَةً فِي كَارْفَاكْس ، إِذْ إِنَّهُ لَا تَوْجَدُ مَنَازِلَ كَثِيرَةً مُجَاوِرَةً . أَمَّا جَارُكَ
الْوَحِيدُ فِي الْمِنْطَقَةِ فَهُوَ طَبِيبٌ يَتَوَلَّى إِدَارَةَ مُسْتَشْفَى لِلْمَجَانِينِ .

فَرَدَّ الْكَوْنْتُ : « إِنِّي مَسْرُورٌ لِأَنَّ الْمَنْزِلَ قَدِيمٌ ، فَلَقَدْ نَشَأْتُ فِي أُسْرَةٍ عَرِيقَةٍ ، وَلَا
أُحِبُّ أَنْ أَقِيمَ فِي مَنْزِلٍ لَيْسَ لَهُ تَارِيخٌ ، ثُمَّ إِنِّي لَا أَهْلِي الظُّلَامَ . فَرَجُلٌ مُسِينٌ مِثْلِي ، يَعْيشُ
وَحِيدًا وَيُفَكِّرُ كَثِيرًا فِي الْمَوْتِ ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْشَى الظُّلَامَ . »

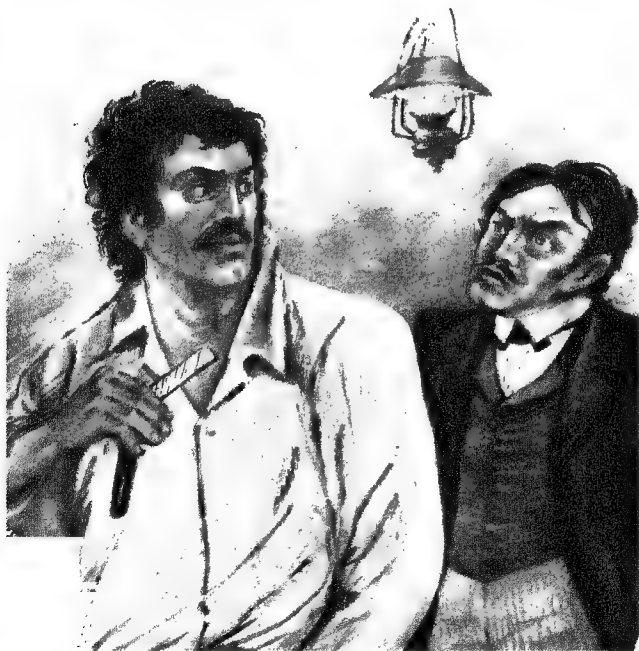
ثُمَّ وَقَعَ الْكَوْنْتُ بِأَسْبِغِهِ عَلَى الْأَزْرَاقِ ، وَسَارَ يَتْبَعُهُ جُونَاثَانُ إِلَى خُجْرَةِ الْكَامِلِدَةِ حَيْثُ
كَانَ الطَّعَامُ فِي الْإِظْطَارِّهِمَا . وَمَرَّةً ثَانِيَةً اعْتَذَرَ الْكَوْنْتُ عَنْ عَدَمِ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ عَلَى زَعْمِ أَنَّهُ
تَنَاوَلَهُ خَارِجَ الْمَنْزِلِ .

إِقْضَتْ هَذِهِ الْأُمْسِيَّةُ وَالْأَمْسِيَّةُ الْتَالِيَةُ بِنَفْسِ التَّمْطِ ، وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ يَبْدُو غَرِيبًا ، فِي نَظَرِ
جُونَاثَانَ ، أَنَّ يَفْضِي الْوَقْتَ بِالْحَدِيثِ فِي الْكَلِيلِ ، وَالنَّوْمِ فِي الْتَهَارِ ، فَقَدْ بَدَأَ لَهُ أَنَّ هَذَا هُوَ
الْأُسْلُوبُ الَّذِي تَعَوَّدَهُ الْكَوْنْتُ ، وَأَحْسَنَ أَنْ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يُرْضِيَهُ . أَمَّا الْكَوْنْتُ فَقَدْ
كَانَ مَسْلُكُهُ دِيمًا لَطِيفًا ، وَكَانَ حَدِيثُهُ دَائِمًا شَائِقًا وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ جُونَاثَانَ ، لِسَبَبٍ
غَامِضٍ لَا يَعْلَمُهُ ، مُتَوَجِّسًا بِخِيفَةٍ مِنْهُ . وَلَمْ يَكُنْ مَصْدَرُ ذَلِكَ هُوَ ، فَقَطْ ، بَلْكَ الْتَنْظَرَةُ
الَّتِي كَانَ يَلْمَحُهَا أحيانًا فِي عَيْنَيْهِ الْغَرِيبَتَيْنِ بِسَبَبِ حُمَرَيْهِمَا ، وَإِنَّمَا هُوَ ، كَذَلِكَ ،
إِحْسَاسُهُ أَنَّ الْكَوْنْتَ لَيْسَ رَجُلًا عَادِيًّا ، وَأَنَّ فِيهِ قُوَى غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ . وَحَالَتْ فُرْصَةٌ وَجَدَ
فِيهَا جُونَاثَانَ بَرَهَانًا يُؤَيِّدُ هَذَا الْإِحْسَاسَ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَقَبَ قُدُوبِهِ بِحَوَالِي أُسْبُوعٍ . كَانَ
جُونَاثَانَ يَقِفُ بِجَوَارِ الْكَافِذَةِ يَحِلُّ ذَقْنَهُ وَقَدْ وَضَعَ أَمَامَهُ مِرَاةً صَغِيرَةً كَانَتْ صَدِيقَتَهُ مِينَا ،
لِحُسْنِ الْحِظِّ ، قَدْ أَهْدَتْهَا إِلَيْهِ . وَلَقَوْلٍ « لِحُسْنِ الْحِظِّ » لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ مِرَاةً فِي
غُرْفَتِهِ ، وَلَا فِي أَيِّ مِنْ غُرَفِ الْقَلْعَةِ الْأُخْرَى .

وَنَجَاةً أَحْسَنَ بِمَلَمَسِ يَدِ ، وَسَمِعَ صَوْتًا يُحْيِيهِ نَجِيَّةَ الصَّبَاحِ ، فَفَقَزَ مِنَ السُّمُفَاجَةِ ،

وَنَظَرَ فَإِذَا الْكَوْثُ وَقِفَ بِجَانِبِهِ . كَانَ الْكَوْثُ بِمَنْ يَمْشُونَ يَهْدُوهُ ، وَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ
يَكُونَ قَدْ دَخَلَ الْحُجْرَةَ فَلَمْ يَسْمَعْ وَقَعَ أَقْدَامِهِ ، أَمَّا غَيْرُ الْمُمْكِنِ فَهُوَ أَنْ يَدْخُلَ الْحُجْرَةَ
وَلَا يَرَى ، وَقَالَ جُونَاثَانُ فِي نَفْسِهِ : « كَيْفَ لَمْ أَرَهُ فِي الْمِرْآةِ وَهُوَ يَدْخُلُ الْحُجْرَةَ ، ثُمَّ
إِنَّهُ يَقِفُ الْآنَ أَمَامَ الْمِرْآةِ ، وَمَعَ أَتْنِي أَرَى نَفْسِي فِيهَا فَإِنِّي لَا أَرَاهُ . »

وَبَيْنَمَا كَانَ جُونَاثَانُ لَا يَزَالُ يُحَدِّثُ فِي الْمِرْآةِ لَحَظَ أَنَّهُ جَرَحَ ذَقَنَهُ وَأَنَّ الدَّمَّ أَخَذَ يَسِيلُ
عَلَى عُنُقِهِ ، فَالْتَفَتَ نَحْوَ الْكَوْثِ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَتَأَكَّدَ مَا إِذَا كَانَ فِي الْحُجْرَةِ حَقِيقَةً ، فَأَصَابَهُ



الْفَرْعُ وَتَجَمَّدَ فِي مَكَانِهِ . كَانَ دِرَاكُولَا يُرَاقِبُهُ وَكَأَنَّهُ حَيَوَانٌ جَائِعٌ . وَبَدَأَ وَكَأَنَّهُ يَتَأَهَّبُ لِمُهاجَمَتِهِ .

كَانَ الْدَّمُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ قَدْ وَصَلَ حَتَّى الصَّلِيبِ الَّذِي قَدَّمَتْهُ لَهُ سَيِّدَةُ الْفُنْدُقِ ، وَبَدُونا تَفَكُّيرٌ مَسَحَ جَوَانِثَانِ الدَّمِ بِظَهْرِ يَدِهِ . وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ رَفَعَتْ يَدُهُ الصَّلِيبَ ، وَإِذَا بِوَجْهِ الْكُوْنَتِ يَتَغَيَّرُ وَيَبْدُو كَالْمَجْنُونِ ، وَوَقَفَ يَرْتَعِشُ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ كَأَنَّمَا تُغَالِبُهُ الرَّغْبَةُ فِي الْهُجُومِ عَلَى جَوَانِثَانِ ، وَلَكِنَّهُ ، لِأَمْرِ مَا ، غَيَّرَ قَادِرٍ . وَفَجْأَةً تَنَاولَ الْكِرَاةَ الصَّغِيرَةَ وَأَلْقَاهَا مِنَ الْتَأْفِيزَةِ . وَمَضَتْ لَحْظَةً سُكُونٍ طَوِيلَةً ، وَجَدَ جَوَانِثَانِ نَفْسَهُ فِي أَثْنَائِهَا بِحَسِبِ الْوَقْتِ الَّذِي انْقَضَى قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَ تَهَشُّمِ الْكِرَاةِ عَلَى الصُّخُورِ . أَمَّا الْكُوْنَتُ فَقَدِ اسْتَدَارَ إِلَيْهِ قَائِلًا : « إِنَّ الشَّيْطَانَ أَعْطَى النَّاسَ الْكَمْرَابَا لِكَيْ يَجْعَلَهُمْ مُتَعَالِينَ مُتَكَبِّرِينَ . إِنِّي لَا أَسْمَحُ بِهَا فِي مَنْزِلِي . » ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يُغَادِرُ الْحُجْرَةَ : « حَاولِ أَلَّا تُجْرَحَ نَفْسُكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ فِي بَلَدِنَا أَكْثَرُ حُطُورَةٍ مِمَّا تَتَصَوَّرُ . »

وَفِي الْبِدَايَةِ ، لَمْ يَكُنْ فِي وَسْجِ جَوَانِثَانِ إِلَّا أَنْ يَنْظُرَ وَاقِفًا وَرَغْوَةً الْكَسَابُونَ تَجِفُّ عَلَى وَجْهِهِ . كَانَ عَاجِزًا عَنْ أَنْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ . وَتَدَافَعَتِ التَّسْأُولَاتُ فِي ذَهْنِهِ : لِمَاذَا اسْتَشِيرَ الرَّجُلُ هَذِهِ الْأَسْتِثَارَةَ بِمَنْظَرِ الْكَمَاءِ ؟ وَأَيُّ نَوْعٍ مِنَ الرِّجَالِ هَذَا الَّذِي لَا تُمَكِّنُ رُؤْيَاهُ فِي الْكِرَاةِ ؟

ثُمَّ نَظَرَ مِنَ التَّأْفِيزَةِ مُتَطَلِّمًا إِلَى أَسْفَلٍ . إِنَّ الْكِرَاةَ لَا يَهْدُ أَنْ تَكُونَ قَدْ هَوَتْ مِيعَةً مِثْرَ قَبْلِ أَنْ تُصْطَلَبَ بِالْأَرْضِ . مَا أَصْنَعُ الْهَرُوبَ مِنْ هَذِهِ الْقَلْعَةِ ! وَمَرَّتْ بِخَاطِرِهِ أَفْكَارٌ عَنِ الْأَبْوَابِ الْمُوصَدَةِ ، وَأَخَذَ يَتَسَاءَلُ : ثَرَى أَهْوُ زَائِرٌ لِلْكُوْنَتِ دِرَاكُولَا ، أَمْ هُوَ سَجِينٌ لَدَيْهِ ؟ أَهْوُ ضَيْفُهُ أَمْ أَسِيرُهُ ؟

الفصل الثالث

كان جوناثان مُحامياً ذَرَسَ القانونَ ، وَقد عَلَّمَتْهُ هَذِهِ الدَّرَاسَةُ كَيْفَ يُواجِهَ الحَقائِقَ . وَمنَ الحَقائِقِ الَّتِي كانَ عَلَيَّهَ أَنَّ يُواجِهاها أَنَّذاك أَنَّهُ سَجِنَ مِن تَوَجُّعٍ ما . وَلَكِنَّ المُؤَكَّدَ أَنَّهُ سَجِنَ مُوقَّتً لِبَضْعَةِ أَيَّامٍ أُخَرى ، وَأَنَّهُ إِذا كانَ دِراكولا قَدْ أَفْرَعَهُ فِهَذا لا يَعبُي بِالضَّرورةِ أَنَّهُ في حَظَرٍ ، فَعَلَيَّهَ أَنَّ يُخْفِي ما يَجُولُ في ذَهِبِهِ مِن أَفْكارٍ ، وَيُحاوِلُ أَنَّ يَعرِفَ المَزيدَ مِن المَعلوماتِ .

وفي هَذا المَساءِ سَمِعَ حُطُوبَ الكَوْنِ وَهُوَ يَدْخُلُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِن خارِجِ المَنزِلِ ، وَلاحظَ أَنَّهُ لَم يَأْتِ مُباشرةً إلى حُجْرَةِ الجُلوسِ . فَمَشَى جوناثان بِحُطًى خَفِيفَةٍ نَحْوَ بابِ حُجْرَةِ الكَوْنِ وَشاهَدَهُ يَرُتَّبُ فِراشَهُ . وَفيما بَعْدَ ، حينَ رآهُ وَهُوَ يَعدُّ بِنَفْسِهِ المائِدَةَ في حُجْرَةِ الطَعامِ ، أَتَضَحَّ لَهُ — عَلى الأَقَلِّ — أَمْرٌ مِنَ الأُمُورِ : ائْضَحَّ لَهُ أَنَّهُ لَيسَ هُناكَ خَدمٌ في القَلعةِ . لَقَدْ كانَ الكَوْنُ نَفْسُهُ هُوَ الَّذي يَقومُ بِكُلِّ أَعْمالِ المَنزِلِ ، وَهُوَ الَّذي يَسوقُ العَربَةَ . إِذا ، فَإِنَّ جوناثان وَخَدَهُ في القَلعةِ مَعَ دِراكولا . وَخَدَهُ ؟ لَكِنَّ لا ، لَيسَ وَخَدَهُ ثَمامًا كَما اكتَشَفَ بَعْدَ أَيَّامٍ قَليلَةٍ .

* * *

وَمَضَتْ الأَيَّامُ عَلى وَبَيرةٍ وَاحِدَةٍ . يَسْتَقِظُ جوناثان مِن نَوْمِهِ في وَقْتٍ مُعَاضِرٍ فَيَتَناوَلُ إَطارَهُ ، ثُمَّ يَطالِعُ في حُجْرَةِ الجُلوسِ ، وَفي اللَّيلِ يَسْتَمِيعُ إلى الكَوْنِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ تاريخِ أُسْرَتِهِ وَعَنِ بَلَدِهِ . وَكانَ حَدِيثُهُ عَنِ أُسْرَتِهِ أَوْ عَنِ بَلَدِهِ شَيئًا وَاحِدًا قَريبًا ، ذَلِكَ أَنَّ أَعْضاءَ أُسْرَةِ دِراكولا كانوا هُمُ المَحْجُوزَ لِجَميعِ الأَحداثِ الَّتِي تُمَثِّلُ تاريخَ تِراسيلفانيا وَهَنا كانَ حَدِيثُهُ شائِقًا . وَكانَ يَروي قِصصَهُ بِأسلوبٍ يَفيضُ بِالعاطِفَةِ وَالْمِشاعِرِ ، حَتَّى لَقَدْ يُخَيِّلُ إلى السَّامِيعِ أَنَّهُ كانَ مُشْتَرِكًا بِنَفْسِهِ في المَعارِكِ الَّتِي يَتَحَدَّثُ عَنها .

وفي بَعضِ الأَحْيانِ كانَ يَتَحَدَّثُ عَنِ أَشْياءَ عاديَةٍ .. عَنِ إنْجِلِيزا .. عَنِ القانونِ ..

من السفن والقطارات . وكان جوناثان يأخذه العجب من كثرة المعلومات التي يلهم بها . وكان من بين الاهتمامات التي أبداها رغبته في تصدير بضائع إلى إنجلترا ، ولذلك فإن برهد اختيار مدينة ساحلية حيث يمكنه شحن البضائع إليها مباشرة . قال الكونت : « لا أريد مدينة كبيرة . فقد يكون في ذلك مشقة ومضيق للوقت ، ماذا ترى ياسيد هاركر ؟ »

فقال جوناثان : « لماذا لا تكون هويثبي ؟ »

* * *

كان جوناثان يفكر في مينا وصديقتها الجميلة لوسي ، إذ كانتا تفتزمان الذهب لقضاء العطلة في تلك المدينة القديمة الرائعة التي تقع في الشمال الشرقي ، والتي تشتهر بصيد الأسماك . حدثه جوناثان عن المدينة وعن صاحبتيه مينا . وبدا على الكونت الاهتمام والرضا ، فقد كانت هويثبي ملائمة له ، وأغرب كذلك عن سعادته البالغة بعزم جوناثان على الزواج . وتمنى له أطيب الأمنيات .

وقد سر جوناثان ما رآه من اهتمامه بزواجه ، فأخرج صوراً فوتوغرافية لمينا ولوسي ، وأبتسم الكونت حين شاهد الصور ، وقال : « يالهما من فتاتين جميلتين ! »

وقد نطق العبارة بطريقة جعلت جوناثان يأسف لتسرعِهِ في إطلاعه على الصور ، ثم قال الكونت :

« صديقتك الآنسة مينا ! من المؤكد أنها ترغب في معرفة أخبارك ، وكذلك السيد هوكينز . هل كتبت إليهما منذ قدومك ؟ »

فأجاب جوناثان : « لا .. لم تفتح لي الفرصة ، لكنني أبعث بأية رسائل . »

قال الكونت : « إذا فاكُتَبِ الآن باصديقي العزيز . اكتب إلى السيد هوكينز وأخبره أنك

سَوْفَ تُقِيمُ مَعِيَ شَهْرًا آخَرَ . »

وَمَا إِنَّ سَمِيعَ جُونَاثَانَ كَلَامَهُ حَتَّى جَمَعَ الدَّمُ فِي عُرْوِهِ ، وَقَالَ : « أَتُرِيدُنِي أَنْ أَقِيمَ هُنَا هَذِهِ الْفَتْرَةَ الطَّوِيلَةَ ؟ »

فَأَجَابَ الْكَوْثُ : « آمَلُ ذَلِكَ . لَقَدْ بُعِثْتُ لِتَرْعَى أَعْمَالِي ، وَأَعْمَالِي تَتَطَلَّبُ مِنْكَ أَنْ تُكَوِّنَ هُنَا لِفْتْرَةً طَوِيلَةً . »

وَهُنَا ، أَحْسَنُ جُونَاثَانَ — أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يُحِسُّ مِنْ قَبْلُ — أَنَّهُ أَشْبَهُ بِالسَّجِينِ . قَالَ لِتَنْفْسِهِ : « كَيْفَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُوَاصِلَ الْحَيَاةَ فِي هَذِهِ الْقَلْعَةِ لِمُدَّةِ شَهْرٍ آخَرَ ؟ وَمَعَ هَذَا فَمَاذَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ ؟ إِنِّي أَعْمَلُ لَدَى السَّيِّدِ هُوكِينَزَ ، وَالْكَوْثُ دَرَاكُولَا يَذْفَعُ أَجْرًا فِي مُقَابِلِ خِدْمَاتِي . »

وَأَسْتَمَرَ الْكَوْثُ يَقُولُ : « إِنِّي أَطْلُبُ إِلَيْكَ أَلَّا تُكْتُبَ فِي رِسَائِلِكَ إِلَّا مَا يَمَسُّ الْقَمَلَ . مَعَ اسْتِثْنَاءِ مَا تَقُولُهُ مِنْ إِلَيْكَ بِخَيْرٍ . »

ثُمَّ نَاولَ جُونَاثَانَ أَوْرَاقًا وَظُرُوفًا لِكِتَابَةِ الرِّسَائِلِ . وَكَانَتْ الظُّرُوفُ مِنَ الرِّقَّةِ وَالشَّفَافِيَةِ بِحَيْثُ يُمكنُ أَنْ يَقْرَأَ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الرِّسَالَةِ مِنْ خِلَالِ الظَّرْفِ .

* * *

وَهَكَذَا جَلَسَ جُونَاثَانَ ، وَكَتَبَ بِضَعِ رِسَائِلَ لَا تَتَضَمَّنُ أَيَّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي كَانَ يَوْءُ لَوْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَكْتُبَ عَنْهَا . وَأَخَذَ الْكَوْثُ الرِّسَائِلَ ، وَقَبَّلَ أَنْ يَذْهَبَ قَالَ : « دَعْنِي أَحْذَرُكَ بِاصْدِيقِي الْكُتَّابِ ، إِذَا غَاذَرْتَ هَذِهِ الْحُجُرَاتِ وَذَهَبْتَ إِلَى أَيِّ جُزْءٍ آخَرَ مِنَ الْقَلْعَةِ ، فَلَا تَسْتَسْلِمَ لِلثُّومِ هُنَاكَ . إِنَّ الْقَلْعَةَ قَدِيمَةٌ ، وَقَدْ وَقَعَتْ أَحْدَاثٌ غَرِيبَةٌ هُنَا ، وَمِنْ الْمُسْتَحْتَمِلِ أَنْ تَرَى أَحْلَامًا مُزَعِجَةً ، أَمَّا فِي حُجْرَتِكَ فَإِنَّكَ فِي مَأْمَنٍ . »

فَقَالَ جُونَاثَانَ فِي تَنْفْسِهِ : « فِي مَأْمَنٍ ؟ كَيْفَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكُونَ آمِنًا وَأَنْتَ هُنَا ؟ »

* * *

هَبَطَ جُونَانَانِ إِلَى حَيْثُ أَلْبَابُ الْكَبِيرِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى سَاحَةِ الدَّارِ . كَانَ أَلْبَابُ مُوصَدًّا كَالْعَادَةِ ، وَلَاحِظٌ أَنَّ يَكُونُ الْفَتْحُ فِي حُجْرَةِ الْكُوَيْتِ . وَكَانَتْ هُنَاكَ حُجْرَةٌ صَغِيرَةٌ أَوْ اثْنَتَانِ غَيْرُ مُوصَدَّتَيْنِ ، وَلَكِنَّ أَيًّا مِنْهُمَا لَمْ تَكُنْ تُؤَدِّي إِلَى أَيِّ مَكَانٍ . ثُمَّ لَاحِظٌ أَنَّ هُنَاكَ بَابًا فِي نِهَآيَةِ دِهْلِيزٍ قَصِيرٍ . وَقَدْ بَدَأَ فِي بَادِي الْأَمْرِ أَنَّهُ مُوصَدٌّ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ سَاقِطًا وَمُسْتَعِدًّا إِلَى الْأَرْضِ ، فَاسْتَطَاعَ جُونَانَانُ أَنْ يَرْفَعَهُ ثُمَّ يَدْفَعُهُ لِيَتَفَتِّحَ قَلِيلًا بِمَا يَكْفِي لِكَيْ يَغْتَرَّ مِنْ خِلَالِ الْفَتْحَةِ . ثُمَّ أَخَذَ يَتَحَسَّسُ طَرِيقَهُ وَيَصْعَدُ سُلَّمًا مُظْلِمًا حَتَّى وَجَدَ نَفْسَهُ فِي حُجْرَةٍ بِهَيْجَةٍ تُضِيئُهَا أَشِعَّةُ الْقَمَرِ ، وَتَوَقَّعَ أَنْ تَكُونَ مُجَاوِرَةً لِحُجْرَةِ ثَوَمِيهِ . وَبَدَأَ مِمَّا فِيهَا مِنْ أَثَابٍ أَنَّهُا رُبَّمَا كَانَتْ تَسْتَعِدُّهَا سَيِّدَاتُ الْقَلْعَةِ مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ .

وَمَدَّ جُونَانَانُ رَأْسَهُ مِنَ النَّافِذَةِ مُتَمَتِّعًا بِاسْتِشْقَاقِ هَوَاءِ اللَّيْلِ . وَكَانَ وُجُودُهُ فِي جُزْءٍ آخَرَ مِنْ أَجْزَاءِ الْقَلْعَةِ يُشِيرُهُ أَنَّهُ قَدْ اتَّصَرَ عَلَى دِرَاكُولَا بَعْضِ الْأَتِصَارِ . وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ سَمِعَ صَوْتًا مِنْ أَسْفَلٍ . وَأَذْرَكَ مِنْهُ أَنَّ هُنَاكَ شَخْصًا مَا يُظَلُّ مِنَ نَافِذَةٍ . وَتَطَلَّعَ صَوْبَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَرَى الْوَجْهَ ، وَلَكِنَّهُ أَذْرَكَ أَنَّهُ لَاهُذٌ أَنْ يَكُونَ الْكُوَيْتُ دِرَاكُولَا . وَسَرَّهُ أَنَّ دِرَاكُولَا لَمْ يَكْتَشِفْ وُجُودَهُ ، وَلَكِنْ سَرَعَانَ مَا تَحَوَّلَ السُّرُورُ إِلَى خَوْفٍ ، فَبَعَرَكَةُ فُجَائِيَّةٍ كَانَ جِسْمُ دِرَاكُولَا كُلُّهُ يَبْرُزُ خَارِجَ النَّافِذَةِ ، وَبَدَأَ يَهْبِطُ عَلَى الْجِدَارِ وَرَأْسُهُ إِلَى أَسْفَلِ كَمَثَلِ ذُبَابَةٍ تَدْبُ هَابِطَةً عَلَى جِدَارٍ . وَكَانَتْ أَصَابِعُ يَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ تَتَشَبَّهُ بِكُلِّ فَرَاغٍ بَيْنَ الْأَحْجَارِ ، وَجَوَابُ ثَوْبِهِ تَرْتَفِعُ حَوْلَ جَسَدِهِ إِلَى أَعْلَى كَأَنَّهُا أُجْنِحَةٌ . وَهَكَذَا أَخَذَ يَهْبِطُ حَتَّى انْتَهَى بِخِلَالِ الظُّلَالِ عِنْدَ أَسْفَلِ جُدْرَانِ الْقَلْعَةِ .

كَأَدَّ جُونَانَانُ يُعْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْفَرْعِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ قَادِرًا عَلَى التَّفَكُّيرِ أَوْ التَّصَرُّفِ بِأَيَّةِ صُورَةٍ . مَا هَذَا الدِّرَاكُولَا ؟

وَأَخِيرًا تَنَبَّهَ إِلَى أَنَّ الدَّرَجَاتِ الَّذِي كَانَ يَلْبَسُهُ حَوْلَ عُنُقِهِ قَدْ اشْتَبَكَ بِقِطْعَةٍ مِنْ حَدِيدِ النَّافِذَةِ فَسَقَطَ خَارِجَهَا . وَجَالَ فِي خَاطِرِهِ أَنَّ لِهَذَا الصَّلِيبِ قُوَّةَ تَقَهَّرِ دِرَاكُولَا . أَمَّا الْآنَ وَقَدْ فَقَدَ الصَّلِيبَ ، فَقَدْ شَعَرَ بِالضَّعْفِ وَالْكَوْنِ ، فَتَمَدَّدَ فَوْقَ سَرِيرٍ فِي مُوْاجَهَةِ النَّافِذَةِ مُنْتَظِرًا أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ قُوَّتُهُ .

أما الذي حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ مِنَ الْعَرَابَةِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حُلْمًا مِنْ الْأَحْلَامِ . ذَلِكَ أَنَّهُ — مَعَ أَنَّ عَيْنَيْهِ مُعْمَصَتَانِ — كَانَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ وَحِيدًا فِي الْحُجْرَةِ . كَانَتْ هُنَاكَ ثَلَاثُ فَنَائِبَ يَرْقُبُهُ مِنْ خِلَالِ الظَّلَالِ ، وَيَتَحَدَّثْنَ فِي هَمْسٍ ، وَحِينَمَا تُحَرِّكْنَ خَارِجَ الظَّلَالِ إِلَى حَيْثُ ضَوْءُ الْقَمَرِ رَأَى ، مِنْ خِلَالِ عَيْنَيْهِ يَصْنِفُ الْمَفْتُوحَتَيْنِ ، أَنَّ الثَّلَاثَ جَمِيعَهُنَّ كُنَّ جَمِيلَاتٍ فَاتِنَاتٍ . وَعِنْدَمَا ضَحِكُنَّ كَشَفَ ضَوْءُ الْقَمَرِ عَنْ أَسْنَانٍ طَوِيلَةٍ يَبِضُ .

وَعِنْدَمَا أَرَادَتْ مِنْهُ قُرْبًا اسْتَطَاعَ أَنْ يَرَى الْإِلْبَهَارَ فِي عُيُونِهِنَّ الْحُمْرِ . وَأَنْ يَسْمَعَهُ فِي تَنَفُّسِهِنَّ ، وَفِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي أَطْلَقْنَ بِهَا ضَحِكَاتِهِنَّ . لَقَدْ كُنَّ شَرِيرَاتٍ فَاعْتَرَاهُ الدُّعْرُ مِنْهُنَّ ، وَلَكِنَّ شَيْئًا مَا — فِي نَفْسِ الْوَقْتِ — جَعَلَهُ يُشَارِكُهُنَّ فِي الْإِلْبَهَارِ وَيَرْغَبُ فِي أَنْ يَتَقَدَّمَ مِنْهُ .

وَإِذَا بَالَتْهُنَّ مِنْهُنَّ آخِرًا تَدْفَعَانِ الثَّالِثَةَ الْشَقْرَاءَ نَحْوَهُ ، فَتَقَدَّمَتْ وَالتَحَنَّتْ بِجَوَارِ السَّرِيرِ وَوَضَعَتْ خَدَّهَا مَلَاصِقًا لِحَدِّهِ . وَأَحْسَ جَوْنَانِ أَنْفَاسَهَا فِي عُنُقِهِ كَمَا أَحْسَ أَنَّ سِنَتَيْنِ حَادَتَيْنِ مِنْ أَسْنَانِهَا تَلْمِسَانِ بَشَرَّتَهُ وَتَسْتَقِرَّانِ بِلَطْفٍ فَوْقَهَا . فَاعْتَمَصَ عَيْنَيْهِ ، وَانْتَظَرَ مَا يَحْدُثُ وَهُوَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى الْحَرَكَةِ ، بَلْ غَيْرُ رَاغِبٍ فِيهَا .

* * *

وَكَانَ مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَشْبَهَ بِمَا يَحْدُثُ وَسَطَ عاصِيفَةِ هَوَاجٍ . فَقَدْ أَحْسَ أَنَّ الْكُوْلَتَ مَوْجُودَ فِي الْحُجْرَةِ . أَحْسَ بِهِ حَتَّى قَبْلَ أَنْ يَرَى يَدَهُ وَهِيَ تُطَبِّقُ عَلَى عُنُقِ الْفَتَاةِ الَّتِي بِجَوَارِ سَرِيرِهِ وَيَغْدِفُ بِهَا غَيْرَ الْحُجْرَةِ . كَانَ غَضْبَانًا غَضْبًا لَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ قَبْلُ . كَانَ وَجْهُهُ فِي صَفْرَةِ الْمَوْتِ . كَانَتْ عَيْنَاهُ يَتَبَيَّعُ مِنْهُمَا الشَّرُّ ، وَكَانَ جَسَدُهُ كُلُّهُ يَرْتَجِفُ ارْتِجَافًا .

صَاحَ الْكُوْلَتُ : « كَيْفَ تَجْرُونَ عَلَى لَمْسِهِ ؟ كَيْفَ تَجْرُونَ عَلَى عَصِيانِ أَوَامِرِي ؟ » فَقَالَتْ : إِخْدَاهُنَّ : « إِنَّكَ لَا اسْتَطِيعُ أَنْ تَفْهَمَ . إِنَّكَ لَسْتَ أَمْرًا » . ثُمَّ أَخَذْنَ جَمِيعًا بَضَحِكُنَّ .

فصاح الكهنة : « أقم أقل لكن لا تخرب أحد ميتة » .

فاجابت أخرى : « سيدي ، لقد كان يؤخذ هنا . ماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟ »

فقال دراكولا : « هذا الرجل لي وشدي ، ولأن أن أصبحت في غير حاجة إليه ، فحكيه
وحيثك فقط . » ولم يتحول دراكولا جرحه ، ولكن متعلها كان واسيحا لجوناثان
وتسألت إحدى القديت وهي تنظر إلى الكيس الذي كان يجوار قلبي دراكولا : « إذا ألق
نصنعه بطني . شهي . هالتي ؟ »

وإذا بالكيس يتحرك فوق الأرض وتخرج منه صيحات خصصيات الأطفال فدفع
دراكولا الكيس بقذبه عبر الشجرة إليهم ، فالتفتوا غلوا مثل الخنودات آخيلة ، غل
حين أخذت الصيحات من داخل الكيس فتو ثم قلوا : وإذا بصبا بطني الخنود ،
وعلى غل جوماتنا لعاس لم نستطيع أن نقاتله . ولكن سر قلبي دراكولا لم يقد بالشئ نه
سرا . فقد كانت بيت نصاصي ودمه



الفصل الرابع

حينما استيقظ جوناثان وجد نفسه فوق سريه في حجريته ، فهل كان الأمر مجرد حلم ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا إذا يرى ملايسه غير مرتبه طبقا للنظام المألوف ؟ ولماذا يرى ساعته في غير مكانها المعهود ؟

ارتدى جوناثان ملايسه ونزل إلى الباب المؤدي إلى الجزء الآخر من القلعة فوجده موصدا ، لا بطريقة عادية ، وإنما قد أوصد في غضب وعنف حتى إن بعض قطع من الجدار قد تساقطت . إذا ، فإنه لم يكن حلما .

وفي المساء لم يشير الكونت بأي كلمة إلى الليلة الماضية ، ولكنه أخرج ورقا للكتابة ، وطلب من جوناثان أن يكتب ثلاث رسائل إلى مينا ؛ يقول في أولها إن عمله كاذب ينتهي ، وأنه سوف يعود في خلال أيام قليلة ؛ ويقول في الثانية إنه سيعود في صباح اليوم التالي ؛ ويقول في الثالثة إنه غادر القلعة ووصل إلى بسترينز .

قال الكونت : « إن الكبريد بطيء ، ولا أريد لأصدقائك أن يظنوا أن شيئا قد حدث لك ، وسوف أبعث بهذه الرسائل في الوقت المناسب ، وبذلك تعرفون متى يتوقعون ميعاد وصولك . »

قال جوناثان في نفسه : « هل أميلك إلا الطاعة ؟ إنني تحت رحمته تماما . »

وبدا اليوم التالي بداية طيبة ، فقد استيقظ على ضجيج أصوات .. أصوات رجال عادين ، فجزى إلى نافذة حجرة المائدة وأطل منها ، فشهد بعض العجر في ركن من أركان ساحة الدار وهم ينزلون من عربّة ثقيل صناديق خشبية طويلة . وكان وقوع بصره على أناس عادين — حتى ولو كانوا من أولئك العجر الترانسيلفانيين الجفاة — مما يبعث في النفس الأمل . فها هنا — في ساحة الدار — رجال طلقاء ربما يستطيعون أن يحملوا

رسالة منه إلى العالم الخارجي . وَجَرَى إِلَى عُرْفَتِهِ لِيُحْضِرَ أَوْرَاقًا مِنْ حَقِيبَتِهِ ، وَلَكِنْ أَيْنَ حَقِيبَتُهُ بِمَا فِيهَا مِنْ بَطَاقَاتٍ وَتَقْوَدُ ؟ أَيْنَ حُلَّتُهُ الَّتِي كَانَ يَرْتَدِيهَا وَقْتُ السَّحَرِ ؟ أَيْنَ مِعْطَفُهُ ؟ كُلُّ ذَلِكَ قَدْ اخْتَفَى . نَرَى أَيْ شَرُّ جَدِيدٍ كَانَ دِرَاكُولَا يُدَبِّرُهُ لَهُ ؟

وَعِنْدَمَا عَادَ إِلَى التَّافِذَةِ كَانَ الْفَجَرُ قَدْ رَحَلُوا ، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ طَوَالَ الْيَوْمِ يَسْمَعُ أَصْوَاتَ خَفَرٍ فِي الْقَلْعَةِ . وَتَأَكَّدَ لَهُ أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا يَحْدُثُ ، فَمَا هُوَ ؟ وَلَكِنْ يَهْتَدِي إِلَى هَذَا الشَّيْءِ لَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ إِلَّا أَنْ يُرَاقِبَ الْكَوْنَتَ . وَفِي الْمَسَاءِ جَلَسَ بِجَوَارِ نَافِذَةِ عُرْفَةِ نَوْمِهِ فِي الْبُظَارِ سَمَاعِ صَوْتِ أَصَابِعِ الْيَدَيْنِ وَأَصَابِعِ الْقَدَمَيْنِ وَهِيَ تَتَشَبَّثُ بِالْجِدَارِ .

وَمَا كَادَتْ الشَّمْسُ تُغِيبُ حَتَّى سَمِعَ هَذَا الصَّوْتَ ، وَكَانَ دِرَاكُولَا قَدْ خَرَجَ مِنَ التَّافِذَةِ ، وَبَدَأَ يَتَحَرَّكُ إِلَى اسْفَلِ الْجِدَارِ كَمَا فَعَلَ فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ ، مَعَ فَارِقٍ وَاحِدٍ ، فَقَدْ كَانَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ يَلْبَسُ مَلَابِيسَ جُونَانَانَ .

وَبَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ وَاضِحًا أَمَامَ جُونَانَانَ ، فَالْكَوْنَتُ يَتَوَى أَنْ يَدْعَ النَّاسَ بِرُؤُوسِهِ فِي بِيستريتهز فَيُظَنُّونَ أَنَّهُ جُونَانَانَ ، وَيَقُومُ بِإِرْسَالِ الرِّسَالِ مِنْهَا ، وَمِنْ نَمِّ يَعْتَقِدُ الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَهَا أَنَّ جُونَانَانَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى بِلَادِهِ . وَكَانَ لَا بُدَّ لْجُونَانَانَ أَنْ يَهْرُبَ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى مِفْتَاحِ الْبَابِ ، وَلَكِنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَجِدَ وَسِيلَةً لِدُخُولِ حُجْرَةِ الْكَوْنَتِ .

وَكَانَتْ هَذِهِ الْحُجْرَةُ تَقَعُ تَحْتَ حُجْرَتِهِ تَمَامًا ، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْدُلَى بِحَبْلِ إِلَيْهَا ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْحَبْلُ ؟ لَمْ يَكُنِ الْكَوْنَتُ لِيَتْرَكَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي مُتَنَاوِلِ زَائِرِهِ ، فَأَخَذَ يُجِيلُ الْظَّرَ فِيمَا حَوْلَهُ . وَكَانَتْ الْحُجْرَةُ ذَاتَ سِتَائِرٍ طَوِيلَةٍ ، فَفَكَّرَ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْزِعَ الْقَضِيبَ التَّحَاسِيَّ الَّتِي تَقْدُلَى مِنْهُ السِّتَائِرُ ، ثُمَّ يَهْبُطُ طَرَفَهُ فِي الْجِدَارِ عَلَى جَانِبِي التَّافِذَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ تُصْبِحُ السِّتَارَةُ مُدْلَاةً حَتَّى نَافِذَةِ الْكَوْنَتِ . وَيَسْتَطِيعُ — بَعْدَ أَنْ يَتَسَلَّقَ التَّافِذَةَ — أَنْ يَتَشَبَّثَ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ فِيمَا بَيْنَ أَحْجَارِ الْجِدَارِ مِنْ فَرَاعَاتٍ وَاسِعَةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ يَهْبِطُ إِلَى حُجْرَةِ الْكَوْنَتِ . وَقَدْ يَكُونُ فِي هَذِهِ الْمَعْمَارَةِ شَيْءٌ مِنَ الْخَطَرِ ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ .

لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، فَلَلَّيْلَ مَخَاطِرُهُ فِي هَذِهِ الْقَلْعَةِ . وَفَوْقَ ذَلِكَ ، فَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ الْكَوْنُتُ قَدْ أَخَذَ الْجَفَتَاخَ مَعَهُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي تَقْسِيهِ : « لَا بُدَّ أَنْ أَتَنْظَرُ حَتَّى الْغَدِ . فَالْكَوْنُتُ دِرَاكُولَا لَا يَظْهَرُ كَثِيرًا فِي الصَّبَاحِ ، وَيَبْدُو أَنَّهُ يَنَامُ هَذِهِ الْفَتْرَةَ ، وَلِذَلِكَ فَالصَّبَاحُ هُوَ الْوَقْتُ الْمُنَاسِبُ . »

عِنْدَمَا جَلَسَ جُونَاثَانُ عَلَى حَافَةِ النَّافِذَةِ مُمَسِّكًا بِالسُّنَّارَةِ كَانَ يَتَمَتَّى لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْمَكَانِ (وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي تَمَتَّى فِيهَا هَذِهِ الْأَمْنِيَّةُ مِنْذُ وَقَدْ إِلَى قَلْعَةِ دِرَاكُولَا) وَلَكِنْ الْأُمُورُ سَارَتْ كَمَا يَشْتَهِي . وَلَمْ يَمُضْ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى كَانَ قَدْ اسْتَقَرَّ وَاقِفًا فِي حُجْرَةِ الْكَوْنُتِ .

وَتَسَاءَلَ جُونَاثَانُ فِي نَفْسِهِ : « أَهَذِهِ حُجْرَةُ الْكَوْنُتِ حَقًّا ؟ إِنْهَا تَبْدُو كَأَنَّ لَمْ تُسْتَحْدَمْ مِنْذُ سِتَوَاتٍ ، فَالْغُبَارُ الْكَثِيفُ يُغَطِّي كُلَّ مَا فِيهَا حَتَّى مَجْمُوعَةٌ مِنَ التَّفُودِ الذَّهَبِيَّةِ كَانَتْ فِي أَحَدِ الْأَرْكَانِ . وَمِنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ الْمِفْتَاحَ لَيْسَتْ هُنَا . فَيَا تُرَى هَلِ الْتَزَوَّلُ عَلَى هَذِهِ السَّلَالِمِ الْحَجَرِيَّةِ يُوَدِّي إِلَى غُرْفَةِ الْكَوْنُتِ الْحَقِيقِيَّةِ ؟ »

وَسَرَعَ يَهَيِّطُ السَّلَمَ ، فَإِذَا بِهِذِهِ الرَّايِحَةِ الْثَرَايِيَّةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ اتَّبَعَتْ مِنْ أَفْئَاسِ دِرَاكُولَا تَرْكُمُ أَثْقَهُ ، وَكُلَّمَا آزَدَاقَ تَقَدُّمًا ، آزَدَاذَتِ الرَّايِحَةُ قُوَّةً وَخَبْرًا كَمَا لَوْ كَانَتْ تَنْتَبِهُ مِنْ جُحْرِ تَغْلِبِ .

وَأَخِيرًا انْتَهَى إِلَى غُرْفَةٍ ذَاتِ أَرْضِيَّةٍ ثَرَايِيَّةٍ ، يَتَسَرَّبُ إِلَيْهَا الضَّوُّ مِنْ نَافِذَةٍ صَغِيرَةٍ عَالِيَةٍ . وَهُنَاكَ فِي أَقْصَى الْغُرْفَةِ كَانَتْ تُوجَدُ الصَّنَادِيقُ الَّتِي أَحْضَرَهَا الْعَجَرُ ، وَالَّتِي تَتَبَّعُ الْخُمْسِينَ صِنْدُوقًا . وَكَانَتْ كُلُّهَا مَمْلُوءَةٌ بِالْتَّرَابِ ، وَعَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْهَا صِنْدُوقٌ آخَرُ أَقْدَمُ مِنْ بَقِيَّةِ الصَّنَادِيقِ .

كَانَتْ أَشِعَّةُ شَمْسِ الصَّبَاحِ ، الَّتِي بَدَأَتْ تَتَسَرَّبُ عِنْدَئِذٍ مِنَ النَّافِذَةِ ، تَقَعُّ عَلَى هَذَا الصَّنْدُوقِ . وَكَأَنَّمَا كَانَتْ الشَّمْسُ تُرْشِدُ جُونَاثَانَ إِلَى الصَّنْدُوقِ فَاتَّجَهَ إِلَيْهِ ، وَنَظَرَ فِي دَاخِلِهِ . وَكَانَتْ نَظَرَةً وَاحِدَةً فِيهَا الْكَفَايَةُ ، لَكِنِّي يَتَدَفَّعُ إِلَى الْوَرَاءِ وَيُطْلِقُ صَبِيحَةً مُدَوِّيَةً .



كَانَ دِرَاكُولَا يَنَامُ مُمَدَّدًا عَلَى سَرِيرِهِ مِنْ تُرَابٍ ، وَلَمْ يَكُنْ وَجْهُهُ شَاجِبًا بَاهِتًا كَمَا كَانَ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّمَا كَانَ أَحْمَرَ دَاكِئًا ، وَلَمْ يَكُنْ شَعْرُهُ أَسْوَدَ كَمَا عَهِدَهُ ، وَإِنَّمَا كَانَ رَمَادِيًا غَامِقًا . وَكَانَ الدَّمُ يَسِيلُ مِنْ جَانِبَيْهِ فِيهِ مُنَحْدِرًا إِلَى عُقْبِهِ وَمِنْ ثَمَّ إِلَى مَلَاسِيهِ . كَانَ جِسْمُهُ كُلُّهُ مَتَوَرِّمًا بِالدَّمَاءِ الَّتِي تَنَبَيْتُ رَأْسَ حَتَّىهَا ، أَمَّا وَجْهُهُ فَقَدْ كَانَتْ تَبْدُو عَلَيْهِ نَظَرُهُ الْخَيَوَانِ الْمُتَوَحَّشِ الَّذِي قَتَلَ فَرِيستَهُ ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا حَتَّى بَشِيمَ وَلَمْ يَعُدْ يَسْتَطِيعُ الْمَزِيدَ .

كَانَ عَلَى جُونَاثَانَ أَنْ يُرْغِمَ نَفْسَهُ لِإِزْغَامًا عَلَى أَنْ يَلْمَسَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الدَّمَوِيَّةَ الَّتِي هِيَ جِسْمُ دِرَاكُولَا . وَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ فِي وَسْئِهِ أَنْ يُعَادِرَ السَّكَانَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُفْتَشَّ فِي جُيُوبِهِ بَعْثًا عَنِ السِّفَاجِ ، وَلَكِنْ جُيُوبُهُ كَانَتْ خَالِيَةً . لَقَدْ كَانَ دِرَاكُولَا مِنَ الدُّكَاةِ بَحِيثٌ لَا يَدْعُ نَفْسَهُ تَفْعُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْكِصِيدَةِ .

لَقَدْ أَرَادَ جُونَاثَانُ — لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ — أَنْ يَتَكَبَّبَ جَرِئَةً قَتْلَ لِكْنِي بِقَضِيٍّ عَلَى هَذَا الشَّيْءِ الْبَغِيضِ الَّذِي يَرْقُدُ فِي صَنْدُوقِهِ . وَتَطَرَّ حَوْلَهُ فَرَأَى حَجَرًا ثَقِيلًا كَانَ قَدْ سَقَطَ مِنَ الْجِدَارِ ، فَأَخَذَهُ وَرَفَعَهُ إِلَى مَافَوْقَ رَأْسِهِ ، وَلَكِنَّهُ تَرَجَّعَ فَتَرَكَهُ يَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ . لَقَدْ رَأَى أَنَّهُ لَيْسَتْ هُنَاكَ جَلْدَوَى مِنْ مُحَاوَلَةِ قَتْلِ شَيْءٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقْتَلَ . لَقَدْ كَانَ وَإِنَّمَا أَنْ مَصَاصِي الدَّمَاءِ لَا يَمُوتُونَ كَمَا يَمُوتُ النَّاسُ الْعَادِيُّونَ .

عَادَ جُونَاثَانُ إِلَى حُجْرَتِهِ ، وَارْتَمَى فَوْقَ سَرِيرِهِ فِي حَالَةٍ مِنَ الْيَأْسِ السَّهْوِ . هَا هُوَذَا الْآنَ فِي مَوْقِفٍ غَرِيبٍ . لَيْسَ مَوْقِفَ سَجِينِ مَصَاصِي الدَّمَاءِ — حَيْثُ لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا طَوْلًا — فَحَسْبُ ، وَلَكِنْ هُنَاكَ مَا هُوَ أَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ . لَقَدْ كَانَ يُقَدِّمُ مُسَاعَدَةً جَمَّةً ، لِمَصَاصِي الدَّمَاءِ لِكْنِي يَجِدَ دَمًا جَدِيدًا فِي بَلَدٍ آخَرَ .

وَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ظَهَرَ الْكُوتُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَعَوَّدُ أَنْ يَظْهَرَ فِيهِ . وَلَمْ يَكُنْ أَحْمَرَ اللَّوْنِ أَوْ مَتَوَرِّمَ الْجِسْمِ كَمَا كَانَ يَبْدُو فِي أَوَّلِ النَّهَارِ . قَالَ الْكُوتُ :

« اللَّيْلَةُ يَا صَدِيقِي لَا بُدَّ أَنْ يُوَدَّعَ كُلُّ مِنَّا صَاحِبَهُ ، فَسَوْفَ تَعُودُ غَدًا إِلَى بَلَدِكَ ، وَأَنَا أَيْضًا سَأَقُومُ بِرِحْلَةٍ . وَفِي الصَّبَاحِ سَوْفَ نَأْخُذُكَ عَرَبِيًّا إِلَى طَرِيقِ بِيستريتِرْ حَيْثُ نَصِلُ إِلَيْهَا

في مساء العَيد . وَأَمَلُ أَنْ أَرَاكَ مَرَّةً ثَانِيَةً فِي قَلْعَةِ دِرَاكُولَا .

فَسَأَلَ جُونَاثَانَ : « لِمَاذَا لَا أَذْهَبُ اللَّيْلَةَ ؟ »

فَأَجَابَ الْكَوُوتُ : « لِأَنَّ عَرَّتِي مَشْغُولَةٌ اللَّيْلَةَ بِاسِيدِي الْعَزِيزِ . »

قَالَ جُونَاثَانَ : « وَلَكِنِّي أَسْتَطِيعُ السَّيْرَ عَلَى قَدَمَيَّ . إِنِّي أَرْغُبُ فِي الرَّحِيلِ الْآنَ . »

قَالَ الْكَوُوتُ : « وَحَقَائِكَ ؟ »

قَالَ جُونَاثَانَ : « لَا يُهْمُنِي أَمْرُ حَقَائِي ، وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أُرْسِلَ فِيمَا بَعْدَ مَنْ يَأْخُذُهَا . »

فَأَبْسَمَ الْكَوُوتُ قَائِلًا : « ثَمَالٌ مَعِي . إِنَّكَ لَنْ تَبْقَى فِي مَنْزِلِي سَاعَةً أَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُ ، وَلَوْ أَنَّنِي حَزِينٌ لِرَحِيلِكَ وَحَزِينٌ لِرَغْبَتِكَ فِي التَّمْجِيلِ بِالرَّحِيلِ . »

وَمَضَى الْكَوُوتُ وَجُونَاثَانُ يَتَّبِعُهُ إِلَى أَسْفَلِ السَّلْمِ حَيْثُ الْبَابُ الْكَبِيرُ . قَالَ لْجُونَاثَانَ :
« أَصْنَعْ . »

وَلَمَّا بَاصَوَاتِ ذُنَابٍ كَثِيرَةٍ تَتَبِعْتُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنْهُمَا . وَكَأَنَّمَا انْتَبَهَتْ هَذِهِ الْأَصْوَاتُ بِمَجْرَدِ أَنْ رَفَعَ دِرَاكُولَا يَدَهُ ، ثُمَّ شَرَعَ يَفْتَحُ الْبَابَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مُوصَدًّا بِالْقِفْلِ . وَلَمْ يَكُنْ يَنْفَتِحُ قَلِيلًا حَتَّى عَلَتْ أَصْوَاتُ الذَّنَابِ . وَأَسْتَطَاعَ جُونَاثَانُ أَنْ يَرَاهَا وَهِيَ تَيْبُ هُنَا وَهَنَّاكَ وَأَفْوَاهُهَا الْمَمْتَعْطِشَةُ الْحَمْرَاءُ مَفْغُورَةٌ عَلَى آخِرِهَا ، وَأَسْتَمَرَ الْبَابُ يَنْفَتِحُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَأَذْرَكَ جُونَاثَانُ أَنَّهُ لَا يَقِفُ فَاصِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الذَّنَابِ الشَّرْسَةِ الْجَالِيعَةِ إِلَّا الْكَوُوتُ . وَتَدَانَبَ الْهَوَاجِسُ فِي نَفْسِهِ : أَهَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ الْكَوُوتُ يُدَبِّرُهُ ؟ أَنْ يَقْدَمَهُ طَعَامًا سَائِغًا لَهُذِهِ الْخِزَانَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَذْهَبُ وَتَجِيءُ كَأَنَّهَا تَحْدَمُ ، وَالَّتِي يُسَمِّيهَا الْكَوُوتُ « أَوْلَادَهُ » ؟

وَأَخِيرًا صَاحَ جُونَاثَانَ : « أَغْلِقِي الْبَابَ . سَأُنْتَظِرُ حَتَّى الصَّبَاحِ . »

نَطَقَ بِالْعِبَارَةِ وَهُوَ يُدِيرُ رَأْسَهُ لِكَيْلَا يَرَى دِرَاكُولَا دُمُوعَهُ الَّتِي لَمْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَمْنَعَهَا .

أَمَّا دِرَاكُولَا فَقَدْ صَفَقَ الْبَابَ بِشِدَّةٍ ، وَأَخَذَتْ أَصْوَاتُ الذُّنَابِ تَحْفَتُ بَعِيدًا . وَحَاطَتْ
الْيَفَائِثُ مِنْ جُونَانَانَ إِلَى الْوَرَاءِ وَهُوَ يَصْعَدُ السَّلَمَ عَائِدًا ، فَإِذَا الْكَوْنُتُ يَضْحَكُ بِلا صَوْتٍ .

بَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ سَمِعَ جُونَانَانُ أَصْوَاتَ نُحْيُولٍ ، وَغِنَاءَ الْغَجَرِ فِي سَاحَةِ الدَّارِ . وَتَطَلَّعَ
مِنْ نَافِذَتِهِ فَرَأَى عَرَبَةً الثَّقَلِ مُحْمَلَةً بِالصَّنَادِيقِ الْخَشَبِيَّةِ ، وَأَذْرَكَ أَنَّ دِرَاكُولَا كَانَ فِي وَاحِدٍ
مِنْهَا .. فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْجُلْتَرَا .

وَأَطْمَأَنَّ جُونَانَانُ إِلَى أَنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الْقَابِلِ حُرًّا فِي مُعَاذَرَتِهِ الْقَلْعَةَ .
وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ تُكُونَ هُنَاكَ عَرَبَةٌ تُقِلُّهُ ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ الْمَشْيَ عَلَى أَيْةِ حَالٍ . وَلَمْ
يَكُنْ يَحْشَى الذُّنَابَ ، لِأَنَّ الْوَقْتَ سَيَكُونُ نَهَارًا ، وَدِرَاكُولَا غَائِبٌ ، وَلَكِنْ بَقِيََتْ هُنَاكَ
مُشْكِلَةٌ . صَحِيحٌ أَنَّ دِرَاكُولَا قَدْ ذَهَبَ ، وَهَذَا جَمِيلٌ ، وَلَكِنْ الْوَقْتُ لَيْلٌ ، وَمَخَاطِرُ اللَّيْلِ
لَمْ تَذْهَبْ مَعَ دِرَاكُولَا . لَقَدْ كَانَ وَجُودُ الْكَوْنُتِ فِي الْقَلْعَةِ يَجْعَلُهُ بِمَأْمَنِ مِنْ هَذِهِ
الْمَخَاطِرِ . وَتَسَاءَلَ فِي نَفْسِهِ : « وَالْآنَ ، وَقَدْ ذَهَبَ ، فَمَنْ الَّذِي يَحْمِينِي مِنْهَا ؟ »
وَقَفَزَتْ إِلَى خَاطِرِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي قَالَهَا دِرَاكُولَا لِلْفَتَيَاتِ الثَّلَاثِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلَاءِ :
« وَإِلَى أَنْ أَصْبَحَ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَيْهِ . » وَالْآنَ .. لَقَدْ حَاطَتْ هَذِهِ اللَّحْظَةُ .

وَأَخَذَ يُصْنَعِي . فِي الْبَدَايَةِ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ هَادِئًا كُلُّ الْهَدْوِ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بَدَأَ يَسْمَعُ
ضَجَجَاتٍ ، ثُمَّ خَفِيفَ انْتَوَابٍ حَرِيرِيَّةٍ فِي الْأَرْكَانِ ، فَتَجَمَّدَ الدَّمُ فِي عُرُوقِهِ ، وَتَأَكَّدَ أَنَّهُ
أَصْبَحَ تَحْتَ رَحْمَةِ هَوْلَاءِ النَّسْوَةِ ، وَفَكَرَ فِي نَفْسِهِ : « ثَرَى هَلْ يُقْدِرُ لِي أَنْ أَرَى
الْجُلْتَرَا ، وَمِنَا ، مَرَّةً أُخْرَى ؟ »

القِسْمُ الثَّانِي هُويَتِي

الفصل الخامس

كانت مينا مُوراي تجلسُ في مقعدها تتطلَّعُ إلى البَحرِ وقد أُمسكتْ بِرسالةٍ في يديها . وكانت صديقَتُها لُوسي وستِترا تجلسُ بجوارِها وهي تقرأ كتابًا . ولم تُكنْ تُلحظُ نظرةَ القلبِ التي في عيني مينا .

كانت مينا فتاةً جميلةً ، ولكن لُوسي كانت أكثرَ جمالًا . كانت ذات جمالٍ فنانٍ ، رشيقةَ الكلام ، ذات شعرٍ طويلٍ أشقر ، وبشرةٍ صافيةٍ ملساء . ولذلك لم يكن غريبًا أن يقعَ كثيرٌ مِنَ الشبانِ في غرامِها ، ولو أنها لم تُكنْ تَميلُ حقًا إلا إلى اثنين فقط ، أحدهما طيبٌ شابٌ ماهرٌ يُدعى جاك سيوارد ، كان يتولَّى الإشرافَ على مُستشفىٍ للمجانينِ على مَقرَبةٍ مِنَ المَنَزَلِ الذي تُقيمُ فيه في مَشارفِ لندن . والآخَرُ يُدعى آرثر هولمود ، وهو ابنُ أَحَدِ اللوردات . وأخيرًا استقرَّ اختيارُ لُوسي على آرثر ، ومعَ أنها كانت تُحبُّ جاك سيوارد كثيرًا فإنها رأت أن ما يتَّصفُ بِهِ مِنْ جِدِّيةٍ ووقارٍ لا يتفقُ معَ ما تتَّصفُ بِهِ مِنْ حُبٍّ لِلمَرحِ والدُّعابة . ثم إنها لم تُشأْ أن تُقضيَ بَقِيَّةَ حياتِها في دارٍ للمجانينِ . وفوقَ هذا فإن آرثر هو الذي كان يَسْتَأْذِنُ بِحُبِّها الحَقِيقِي . وكان مِنَ الطَّبيعي أن يَشعُرَ الدكتور سيوارد بالحُزنِ ، ولكنَّهُ كان يُحبُّ آرثر هولمود ، ولذلك فقد استقرَّ رأيه في النهايةِ على أنَّه إذا لم يكن قَدِ اسْتَطاعَ أن يظفرَ بلُوسي زوجةً لَهُ فإنه — على الأقل — يَسْتَطِيعُ أن يظلَّ صديقًا لها . وقال في نفسِهِ : « مَنْ يَدري ، ربَّما نحتاجُ يومًا ما إلى صديقي يُحبُّكَ . »

وإذا كانت لُوسي جميلةً مُسلَّبةً تفيضُ بِالْحَيَوِيَّةِ ، فإن مينا هي التي كانت تُدبِرُ كُلَّ شَيْءٍ دائِمًا . فهي التي تولَّتْ حَجزَ الكُفْرِ التي سَوَّفَ يُيمانُ فيها في هُويَتِي ، واشترتِ التذاكِيرَ لِلرَّحْلةِ ، واتَّخَذَتْ سَكْذِلكَ التَّرتِيباتِ لِأُمِّ لُوسي لِكَيْ تُلحَقَ بِهِما فيما بَعْدَ ، فقد كانت السَّيِّدةُ وستِترا — والدةُ لُوسي — مَريضةٌ بِالقلبِ ، ورأت مينا أن قضاءَ أيامٍ على

شاطئ البحر قد يعود على صحتها بالخير .

كانت هوبتي مدينة مأهولة ، فهناك دائما زوارق للصيد تعدو منها وتروح . وطوبى
البحر الصاخبة تحلق ثم تنفض من السماء لتلقط الأسماك التي يلقي بها الصيادون . وفي
التاجية الجنوبية للنهر الذي يجري في واد عميق مخترقا المدينة ، كان المرء يستطيع أن
يتسلق إلى الكنيسة القديمة حيث يلتقي الهدوء والسكينة ، وحيث كانت عظام الكثيرين
من البحارة الذين غرقوا في البحر ملقاة في ساحة الكنيسة . وكان أهل المدينة يحبون أن
يجلسوا على المقاعد التي وضعت على طول الممار بين القبور حيث يستطيع المرء من
ساحة الكنيسة أن يشاهد المدينة كلها ، وأن يمتد بصره إلى مسافة بعيدة فوق البحر .
وكثيرا ما كانت مينا ولوسي تجلسان هناك تستمعان إلى قدامى الصيادين الذين اعتزلوا
العمل ، وكانوا يقضون وقتهم بين رواية القصص ، وبين الاستمتاع بالتحدث إلى ألفيات
الحسنات .

قالت مينا وهي تقلب بين أصابعها الورقة الرقيقة التي كتبت فيها الرسالة : « إنها
رسالة غريبة .. ثمانا كالرسالتين الأخريتين . كل ما يقوله فيها إنه بخير ، وأنه في طريقه
إلى الوطن . قطعاً كان يستطيع أن يكتب أكثر من هذا . إنه لم يخط كلمة واحدة عن
رحلته ، أو عن السيد الذي يقيم معه . الواقع أنها ليست رسالة ودية . »
فضحكت لوسي وقالت : « اعتقد أن الرجال ليسوا كالنساء في كتابة الرسائل ، فهم
يجدون مشقة في تسجيل مشاعرهم بالكتابة . »

فردت مينا : « لعلك على حق يا عزيزتي لوسي ، ولكنني سأكون مسرورة أن أراه
ثانية ، وأن أؤكد أن كل شيء على ما يرام . لقد كان المفروض أن يعود إلى لندن منذ
أسبوعين . »

لم تكن مينا سعيدة ، والقطلة التي بدأت بداية سارة بالنسبة لها انقلبت إلى تعاسة
بسبب قلقها على جوناثان . لقد كان لديها إحساس — لم تستطيع أن تُعبر عنه بالكلمات —
أن هناك أمورا لا تسير في مسارها الصحيح ، وهي تشعر أن الأمور لن تعود إلى نصابها إلا إذا
رجع جوناثان إلى الوطن . كذلك لم تكن لوسي على عادتها ، وحينما رأتها مينا كذلك

قَالَتْ لِنَفْسِهَا : « أَتُرَاهَا الْهُمُومُ الَّتِي أَعَانِي مِنْهَا هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ لُوسِي قَلْعَةً ؟ أَمْ أَنْ هُنَاكَ سَبِيًّا
آخَرَ ؟ » وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ لُوسِي كَانَتْ قَدْ بَدَأَتْ تُمَارِسُ أَمْرًا . لَمْ تُمَارِسْهُ مُنْذُ كَانَتْ طِفْلَةً
صَغِيرَةً ، بَدَأَتْ تُنْشِي فِي أَثْنَاءِ نَوْمِهَا . وَفِي أَثْنَاءِ اللَّيْلَتَيْنِ الْخَامِسَتَيْنِ كَانَتْ مِمَّنْ تَسْتَقِظُ مِنْ
نَوْمِهَا فَتَجِدُ صَدِيقَتَهَا تُنْشِي حَوْلَ الْحُجْرَةِ عَلَى غَيْرِ هَذِي ، كَأَنَّهَا تُرِيدُ شَيْئًا وَلَكِنَّهَا لَا تُدْرِي
مَا هُوَ . أَوْ رُبَّمَا كَانِ الطَّقْسُ هُوَ السَّبَبُ ، فَطَوَالَ الْيَوْمِ كَانِ الْجَوُّ يَدُو وَكَأَنَّهَا يَنْذِرُ بِعَاصِفَةٍ
شَدِيدَةٍ ، وَكَانِ الْهَوَاءُ سَاخِنًا مُثْقَلًا بِالسُّحُبِ ، وَالضُّبَابُ يَكَادُ يَحْجُبُ الشَّمْسَ .

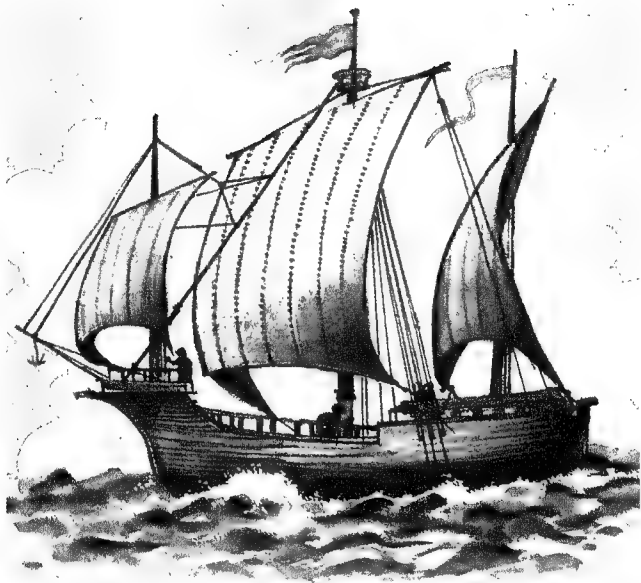
وَقَضَبَ الْفَتَاتَانِ فِتْرَةً مَا بَعْدَ الظُّهْرِ فِي هَذِهِ ، ثُمَّ خَرَجَتَا تَتَمَشَّيَانِ نَحْوَ سَاحَةِ الْكَنِيسَةِ
ثَانِيَةً . وَحِينَمَا أَجْتَازَتَا الْجِسْرَ الَّذِي يَقَعُ فِي وَسْطِ الْمَدِينَةِ كَانَتَا تَرِيَانِ زُرَاقَ الصَّيْدِ وَهِيَ
آتِيَةٌ . وَمَعَ أَنَّ الرِّيحَ لَمْ تَكُنْ شَدِيدَةً ، وَالْبَحْرَ لَمْ يَكُنْ هَائِجًا فَإِنَّ الصَّيَادِينَ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ
طَقْسًا سَيِّئًا ، وَلَمْ يَشَاءُوا أَنْ يَخْرُجُوا خَشْيَةً أَنْ تَذْهَبَهُمُ الْعَاصِفَةُ .

عِنْدَمَا وَصَلَتِ الْفَتَاتَانِ إِلَى الْكَنِيسَةِ وَجَدَتَا أَنَّ أَحَدَ أَصْدِقَائِهِمَا الصَّيَادِينَ الْكُسَيْنِينَ
يَجْلِسُ عَلَى مَقْعِدِهِمَا الْمُفْضَلِ يَنْتَظِعُ إِلَى الْبَحْرِ . كَانَ هَذَا الصَّيَّادُ هُوَ السَّيِّدُ سُوِيلَزْ ،
الشَّيْخُ الَّذِي كَانَ يَزْعَمُ أَنَّ عُمُرَهُ قَارِبَ الْبَقَعَةِ عَامٍ ، وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّغَبِ تَصْدِيقُ مِثْلِ
هَذَا الزَّعْمِ . وَسَأَلَتْهُ لُوسِي وَهِيَ تَجْلِسُ بِجَانِبِهِ : « أَتُظَنُّ أَنَّ عَاصِفَةً سَتَهْبُ بِأَسِيدِ
سُوِيلَزْ ؟ »

فَأَجَابَ الْبَحَّارُ الشَّيْخُ : « نَعَمْ يَا عَزِيزَتِي ، وَهُوَ أَمْرٌ غَرِيبٌ ، لِأَنَّ هَذَا الْوَقْتُ مِنَ السَّنَةِ
لَيْسَ وَقْتُ عَوَاصِفٍ ، أَنَا مَا رَأَيْتُ طَقْسًا كَهَذَا قَطُّ . وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ الطَّقْسَ لَيْسَ هُوَ
الشَّيْءُ الْغَرِيبُ الْوَحِيدُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ . »

قَالَ هَذَا وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الْبَحْرِ ، ثُمَّ أَضَافَ : « أَنْظُرَا إِلَى السُّفِينَةِ . »
وَتَنَظَّلَتِ الْفَتَاتَانِ فَشَاهَدَتَا سَفِينَةً شِرَاعِيَّةً لَيْسَتْ كَبِيرَةً كَالْحُجْمِ عَلَى بُعْدِ حَوَالِي كِيلُو
مِثْرٍ مِنَ الشَّاطِئِ .

وَقَالَتْ لُوسِي : « غَفَوَا يَا سَيِّدُ سُوِيلَزْ إِنَّمَا كَمَا تَرَى — لَسْنَا مِنَ الْبَحَّارَةِ ، وَالسُّفِينَةُ
تَبْدُو لَنَا عَادِيَّةً جِدًّا ، تَرَى هَلِ الْعَلَمُ الَّذِي تَرْفَعُهُ هُوَ الْعَلَمُ الرَّوسِي ؟ »



فَأَجَابَ الْبَحَّارُ الشَّيْخُ : « نَعَمْ ، إِنَّهَا سَفِينَةٌ رُوسِيَّةٌ .. هَذَا صَحِيحٌ ، وَلَكِنْ لَيْسَ
هَذَا هُوَ أَلْمُهُمْ ؛ إِنَّهَا سَفِينَةٌ عَادِيَّةٌ . مَا فِي ذَلِكَ شَكٍّ ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ الشَّادُّ هُوَ أَنَّهَا مُسِيرَةٌ بِطَرِيقَةٍ
غَيْرِ عَادِيَّةٍ . فَهَذَا رَجُلٌ عِنْدَ عَجَلَةٍ الْقِيَادَةِ ، وَلَكِنَّ السَّفِينَةَ تَتَحَرَّكُ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ ، كَأَنَّهَا
الرَّجُلُ لَا يَدْرِي أَيْنَ يُوْجِّهُهَا . انْظُرَا ! إِنَّهَا تَمُضِي ثَانِيَةً . إِنَّهَا تَتَحَرَّكُ حَيْثُمَا تَذْفَعُهَا الرِّيحُ . إِنْ
الرَّجُلُ الَّذِي يَقِفُ عَلَى عَجَلَةِ الْقِيَادَةِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْزِمَ أَمْرَهُ ، أَيَّانِي إِلَى هَوَيْتِي أَمْ يَسْتَدِيرُ إِلَى
الْبَحْرِ وَيُوجِّهُ الْعَاصِفَةَ . وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يَحْزِمَ أَمْرَهُ عَلَى عَجَلٍ فَسَوْفَ تَرْتَبِطُ السَّفِينَةُ
بِالصُّخُورِ . »

الفصل السادس

عندما نازت العاصفة كانت هوجاء على غير العادة ، فقبل الساعة الثامنة مساءً بقليل هبَّ الرِّيح . وما إن حلَّت الساعة العاشرة حتَّى أخذت الأشجار تمايلُ بِعُنفٍ ، وسطوحُ المنازلِ تَتطايرُ ، والأمواجُ العاتيةُ تَتَكَسَّرُ فوق السُّورِ البحريِّ الَّذي يَحِمي مرسى زوارق الصيدِ . لقد كانت عاصفةٌ مِنْ ذَلِكَ النوعِ الَّذي لا يَتَكَرَّرُ حَدوثُهُ إِلَّا مَرَّةً واحدةً كُلَّ عَمْسِينَ عامًا ، وَالَّذي يَروي عَنْهُ الْأَجْدَادُ لِلْأَخْفَادِ .

وَمِنْ حُسْنِ الحِظِّ أَنَّ مُعْظَمَ الزَّوارِقِ كانت قد عادتْ إلى هَوْنِها بَعْدَ الظُّهْرِ ، أَمَّا الْقَلِيلَةُ الَّتِي تَأَخَّرَتْ فِي الْقَوْدَةِ فَقَدْ لَقِيَتْ بَعْضَ المَشَقَّةِ فِي الدُّخُولِ . وَعِنْدَمَا وَصَلَ آخِرُ زَوَّارِقِ مِنْ زَوَارِقِ هَوْنِها كانتِ الْجَمَاهِيرُ الَّتِي تَجَمَّعَتْ لِلْمُرَاقَبَةِ قد عادتْ إلى يَوْنِها ، فِيمَا عدا الْقَلِيلِينَ الَّذِينَ اسْتَأْذَنُوا أَنْ يَبْقَوْا فَفَضَّلُوا الْبَقَاءَ عَلَى النُّومِ ، لَعَلَّ بَعْضَ الْقَوَارِبِ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ . وَلَكِنَّ الَّذِي أَتَى كَانَ شَيْئًا آخَرَ .

لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يَتَبَيَّنُ مِنْهُ أَيُّ ضَوْءٍ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ ظُهُورُهُ مَفاجِئَةً مُفْرِعَةً لَمَامًا . فَبَيْنَمَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ فِي دَقِيقَةٍ مِنَ الدَّقَائِقِ شَيْءٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، فَإِذَا هُنَاكَ فِي الدَّقِيقَةِ التَّالِيَةِ سَفِينَةٌ رَفَعَتْ جَمِيعَ أَشْرَعِها ، وَالرِّيحُ تَدْفَعُها مِنَ الخَلْفِ . وَعِنْدَمَا مَرَّتْ مِنْ بِحَالِ الْفَتْحَةِ الَّتِي فِي السُّورِ البحريِّ تَبَيَّنَ أَنَّها السَّفِينَةُ الرُّوسِيَّةُ الَّتِي جَذَبَتْ أَهْتمامَ السَّيِّدِ سُوِيلِرْ .

لِماذا قَضَى الرُّبَانُ هَذَا الْوَقْتَ الطَّوِيلَ لِكَيْ يَتَّخِذَ قَرَارَهُ بِالرُّسُو فِي هَوْنِها ؟ وَأَيُّ نَوْعٍ مِنَ الرُّبَانَةِ هَذَا الَّذِي يَجْرُ بِغَيْرِ ضَوْءٍ ، وَفِي لَيْلَةٍ عاصِفةٍ مِثْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ ؟

وَعِنْدَمَا أَصْبَحَتِ السَّفِينَةُ أَقْرَبَ شَاهِدَ الْمُحْتَشِدُونَ عَلَى الشَّاطِئِ ، رَجُلًا بِجَوَارِ عَجَلَةٍ لِقِيَادَةِ فَصَايَحُوا وَأَخَذُوا يُلَوِّحُونَ بِالثَّحْبَةِ ، وَلَكِنَّ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ جَوَابٌ . وَجَيْنَمَا صَارَتْ أَكْثَرُ قُرْبًا بَدَأَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَتَوَقَّفُ عَنِ الصِّيَاغِ ، ثُمَّ تَلَاهَا آخَرٌ .. وَخَيْمٌ سَكُونٌ . كَانَ الرَّجُلُ مُقْبِلًا إِلَى الْعَجَلَةِ ، وَكَانَ يُحَدِّقُ نَحْوَهُمْ بِعَيْنَيْنِ لَا تُبْصِرَانِ . وَلَكَشَفَ الْأَمْرَ ، فَالسَّفِينَةُ قَدْ شَقَّتْ أَعْتَى الْأَمْوَاجِ وَدَخَلَتْ الْمَرَفَ بِقِيَادَةِ رَجُلٍ مَيِّتٍ .

وَتَحَرَّكَتِ السَّفِينَةُ نَحْوَ الْجِسْرِ ، وَأَخَذَ الرُّكَّابُ الْقَلِيلُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَقِفُونَ فَوْقَ ظَهْرِهَا يَجْرُونَ طَلَبًا لِلنَّجَاةِ . وَلَوْ أَنَّ السَّفِينَةَ اسْتَمَرَّتْ فِي سَبِيلِهَا لَحَطَمَتِ الْجِسْرَ وَحَمَلَتْهُ بَعِيدًا . وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَجِبْ ، فَقَدْ حَدَثَ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ أَنْ تَغَيَّرَ مَجْرَى الرِّيحِ فَذَفَعَتِ السَّفِينَةَ نَحْوَ الشَّاطِئِ الرَّمْلِيِّ الْجَنُوبِيِّ لِلنَّهْرِ . وَكَانَتِ الدَّفْعَةُ قَوِيَّةً حَتَّى إِنَّ الْأَشْرِعَةَ وَالْجِبَالَ وَقَطَعَ الْخَشَبَ هَوَتْ بِشِدَّةٍ مُحْدِنَةً ذَوْبًا عَالِيًا . وَحِينَئِذٍ ، وَبَيْنَمَا كَانَ الْكَثْبُ الَّذِي عَلَى الشَّاطِئِ الْمُقَابِلِ يُرَاقِبُ مَا يَحْدُثُ ، إِذَا بِكُلِّبِ ضَحْمٍ أَسْوَدَ يَنْدَفِعُ فَجَاءَهُ مِنْ وَسْطِ السَّفِينَةِ ، كَمَا لَوْ كَانَتْ قُوَّةُ الصَّدْمَةِ الَّتِي جَعَلَتِ السَّفِينَةَ تَرْتَعِلُ بِالْأَرْضِ هِيَ الَّتِي دَفَعَتْهُ . وَقَفَزَ الْكَلْبُ عَالِيًا فَوْقَ الرُّجَالِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَعْدُو مُتَّجِهَاً إِلَى الشُّوَارِجِ الضَّيِّقَةِ الَّتِي تَغْلُوهَا الْكَثِيسَةُ .

وَفِي الصَّبَاحِ التَّالِيِ كَانَتِ الْعَاصِفَةُ قَدْ هَدَاثَتْ ، وَبَكَرَتْ مِنَّا بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى قَبْلَ أَنْ تَتَأَوَّلَ الْإِنْفِطَارَ . وَقَدْ شَجَعَهَا عَلَى هَذَا الْبُكُورِ أَنَّ الشَّمْسَ مُشْرِقَةً ، وَالسَّمَاءَ زُرْقَاءَ صَافِيَةً ، ثُمَّ أُخْبِرَ هَذَا الْوُصُولِ الْقَرِيبَ لِلْسَّفِينَةِ الرُّوسِيَّةِ فِي اللَّيْلَةِ الْهَامِيَةِ . وَلَمْ تُكُنْ لَوْسِي قَدْ نَامَتْ فِي اللَّيْلِ تَوْتًا هَادِئًا ، وَلِلذَلِكَ رَأَتْ مِنَّا أَنَّهُ خَيْرٌ لَهَا أَنْ تَتْرَكَهَا فِي فِرَاشِهَا .

كَانَتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا تَتَحَدَّثُ عَنِ السَّفِينَةِ الرُّوسِيَّةِ ، وَسَرَّعَانَ مَا عَرَفَتْ مِنَّا كُلُّ شَيْءٍ مِنَ السَّيِّدِ سَوِيلَز . عَرَفَتْ أَنَّ الطَّبِيبَ الَّذِي فَحَصَ جُثَّةَ رَبَّانٍ السَّفِينَةِ يَرَى أَنَّ الْوَفَاةَ حَدَثَتْ مُنْذُ أَيَّامٍ ، وَأَنَّ الرِّبَّانَ هُوَ الَّذِي قَبِدَ نَفْسَهُ إِلَى الْكَعْجَلَةِ ، وَأَنَّ الْكَهْبَلِ الَّذِي قَبِدَ نَفْسَهُ بِهِ قَدْ شَقَّ جِلْدَهُ وَتَغْلَغَلَ حَتَّى الْعَظْمِ . وَيَبْدُو أَنَّ السَّفِينَةَ دِيبِيَّتِي لَمْ تَتَّخِذْ طَرِيقَهَا إِلَى هَوَيْتِي مُصَادَفَةً ، فَقَدْ كَانَ أَحَدُ تُجَّارِ الْمَدِينَةِ يَتَوَقَّعُ وَصُولَهَا ، إِذْ كَانَ قَدْ تَلَقَّى تَفْوِضًا بِتَسْلِيمِ صَنَادِيقٍ خَشَبِيَّةٍ مُعَبَّئَةٍ بِحِمْلِهَا السَّفِينَةَ ، عَلَى أَنَّ يَسْتَحْتَهَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى لَنْدَنَ بِالْقِطَارِ .

أَمَّا الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ فَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَكَانَ مِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ حَيَوَالًا ضَحْمًا مِثْلَ هَذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْتَقِيَ نَهَايَهَا . وَلَكِنَّ مَدِينَةَ هَوَيْتِي كَانَتْ أَكْثَرَ أَمْنًا بِدُونِهِ . وَقَدْ عَثَرَ الْأَهَالِيُّ عَلَى كَلْبٍ قَوِيٍّ ضَحْمٍ مِنْ كِلَابِ الْمَدِينَةِ مَيِّتًا وَقَدْ مَرَّقَ يَصْفُ عُنُقُهُ تَمْرِيقًا . وَسَادَ الْأَعْتِقَادُ أَنَّ كَلْبَ السَّفِينَةِ دِيبِيَّتِي هُوَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ هَذَا .

عادت مينا إلى المنزل ، وأبانت لوسي في أثناء تناول الإفطار ما عرفت من أخبار .
وَمَعَ أَنَّ لُوسِي أَبْدَتْ أَهْمَامًا بِمَا سَمِعَتْ فَإِنَّ مِينَا لَمْ يَرُهَا حَالَهَا ، فَقَدْ كَانَتْ تَبْدُو فِي
وَجْهِهَا نَظْرَةً نَاعِسَةً حَالِمَةً . وَرَأَتْ مِينَا أَنَّهَا فِي حَاجَةٍ إِلَى اسْتِنشَاقِ الْهَوَاءِ النَّيِّمِ ،
فَأَخَذَتْهَا لِتَقْضِيَ الْيَوْمَ مَعَهَا خَارِجَ الْمَنْزِلِ . وَحِينَمَا رَجَعْنَا فِي الْمَسَاءِ عَرَفْنَا مَزِيدًا مِنْ
الْأَخْبَارِ عَنِ السَّفِينَةِ دِيمِيتر مِمَّا نُشِرَتْهُ صُحُفُ الْمَسَاءِ . فَقَدْ عَثَرُوا عَلَى السَّجِّلِ الَّذِي
يُدُونُ فِيهِ رُبَانُ السَّفِينَةِ مَلاحِظَاتِهِ الْيَوْمِيَّةَ عَنِ الرِّحْلَةِ وَاسْتِطَاعَ أَحَدُ رِبابَةِ هُوِيَتِي الْقَدَامِي
مِمَّنْ يَتَرَفُّونَ اللُّغَةَ الرُّوسِيَّةَ أَنْ يَتَرْجِمَ مَا فِيهِ إِلَى الْإِنْجِلِيزِيَّةِ . وَهَذَا مَا قَرَأْتُهُ مِينَا وَلُوسِي فِي
صَحِيفَةِ هُوِيَتِي بُوَسْتِ الْمَسَائِلَةِ :

« أَتَخَرَّبُ السَّفِينَةَ دِيمِيتر مِنْ قَارِئَا النَّيِّمِ عَلَى الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ وَعَلَى ظَهْرِهَا رُبَانُ
وَضَابِطَانِ وَخَمْسَةٌ مِنَ الْبَحَّارَةِ وَطَاوٍ . وَفِي الْبِدَايَةِ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ يَسِيرُ سَيْرًا حَسَنًا ،
وَلَكِنْ بَعْدَ انْقِضَاءِ نَحْوِ أُسْبُوعٍ لَاحَظَ الرُّبَانُ أَنَّ رِجَالَهُ يَبْدُو عَلَيْهِمْ أَكْفَلَقُ وَالْإِلْعَاجُ .
وَحَاوَلَ الضَّابِطُ الْأَوَّلُ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى السَّبَبِ ، فَلَمَّا اسْتَمَعَ إِلَيْهِمْ اتَّعَقَدَ أَنَّ مَا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ
هَرَاءٌ ، بَلْ إِنَّهُ قَائِلَةٌ بِعَضَبٍ . وَبَعْدَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ عَلَى هَذَا اخْتَفَى أَحَدُ الرُّجَالِ ، وَكَانَ قَدْ
انْتَهَى مِنْ تَوْبَةِ الْمُرَاقِبَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا . وَشُوْهِدَ يُغَادِرُ مَكَانَهُ لِيَهْبِطَ مِنْ سَطْحِ السَّفِينَةِ إِلَى
مَخْدَعِهِ . وَلَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى سَرِيرِهِ قَطُّ . وَشَاعَ بَيْنَ الرُّجَالِ جَمِيعًا أَنَّ
هُنَاكَ أَمْرًا غَيْرَ طَبِيعِيٍّ فِي السَّفِينَةِ . وَبَعْدَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ رَوَى أَحَدُ الرُّجَالِ لِلرُّبَانِ أَنَّهُ
يَبْتِمَا كَانَ فِي تَوْبَتِهِ لِلْمُرَاقِبَةِ فِي اللَّيْلِ الْمَاضِيَةِ شَاهِدَ رَجُلًا غَرِيبًا يَصْعَدُ إِلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ
وَيَمْسَحِي مَنَاجِحَهَا إِلَى الْجُزْءِ الْخَلْفِيِّ مِنْهَا ، وَهُنَاكَ انْخَفَى ثَمَامًا .

« وَحِينَئِذٍ أَمَرَ الرُّبَانُ بِتَفْقِيشِ السَّفِينَةِ كُلِّهَا ، وَكَانَتْ جَمِيعُ الصَّنَادِقِ الَّتِي فِي الْكَعَاقِ مُحْكَمَةً
الْإِعْلَاقِ بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ — إِنْ كَانَ مُحْتَظًا فِيهَا — أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ .
وَكَانَتْ الْأَرْبَطَةُ بَيْنَهَا مُحْكَمَةً بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَخْتَبِي فِيهَا بَيْنَهَا .
وَلَمْ يُسْمَرْ الْبَحْثُ عَنْ وُجُودِ أَحَدٍ ، وَلِذَلِكَ عَادَتْ إِلَى رِجَالِ السَّفِينَةِ الطَّمَآنِيَّةُ ، وَلَمْ
يَخْدُثْ مَا يُعَكِّرُ صَفْوَهُمْ ، إِلَى أَنْ وَاجَهُوا جَوًّا عَاصِفًا فِي خَلِيجِ يَسْكَاي . هُنَاكَ فَقَدْ رَجُلٌ

آخِرُ مِنَ الْبَحَارَةِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ فَقَدْ أَتَانِ آخِرَانِ ، وَكَانَ اخْتِفَاؤُهُمْ جَمِيعًا يَتِمُّ بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي حَدَّثَتْ مَعَ الْأَوَّلِ . وَكَانَتْ نَتِيجَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَرْضَ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْمُرَاقَبَةِ وَحْدَهُ .

وَعِنْدَمَا بَلَغُوا الْقُنَالِ الْإِنْكِلِيزِيَّ اسْتَمَرَّ الْجَوْ الْعَاصِيفُ ، وَاسْتَمَرَّ اخْتِفَاءُ الرِّجَالِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ الْقَدُّ الْكَافِي لِرَفْعِ أَشْرَعَةِ السَّفِينَةِ وَإِثْرَالِهَا . وَفِي النَّهَايَةِ لَمْ يَكُنْ بَاقِيًا عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ إِلَّا الرِّبَانُ ، وَالضَّابِطُ الْأَوَّلُ .

« وَإِلَى هُنَا كَانَ مِنَ الصَّعْبِ قِرَاءَةُ الْمُلَاحَظَاتِ الْمُدَوَّنَةِ بِالسَّجَلِ ، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ الضَّابِطَ الْأَوَّلَ جَرَّ جُنُودَهُ فَرَّاحَ يَفْتَحُ الصَّنَادِيقَ الَّتِي فِي قَاعِ السَّفِينَةِ . وَلَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى صَاحَ صَئِحَةٌ ثُمَّ جَرَى إِلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ وَقَفَزَ إِلَى أَعْمَاقِ الْبَحْرِ . وَبَعْدَ هَذَا أَصْبَحَتْ كَلِمَاتُ السَّجَلِ مُسْتَعْصِمَةً عَلَى الْقِرَاءَةِ . »

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي شَبِعَتْ جِنَازَةُ رَبَّانِ السَّفِينَةِ الَّذِي اعْتَقَدَ صَيَادُو هَوَيْتِي أَنَّهُ كَانَ بَحَارًا شَجَاعًا ، وَأَنَّهُ أَدَّى وَاجِبَهُ خَيْرَ مَا يَكُونُ الْأَدَاءُ . وَقَدْ سَارَ فِي جِنَازَتِهِ جَمْعٌ غَفِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَسَارَتْ مَعَهُمْ مِينَا وَلُوسِي ، وَلَكِنْ مِينَا — بَعْدَ ذَلِكَ — تَمَنَّتْ لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ صَحِبَتْ مَعَهَا لُوسِي ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمَا سَمِعَتَا فِي الْجِنَازَةِ أَنْبَارًا سَيِّئَةً .

كَانَتَا تَتَوَقَّعَانِ أَنَّ تَرِيَا صَدِيقَهُمَا الْمُسَيَّنَّ السَّيِّدَ سُوِيلَز . لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وَجَاءَ إِلَيْهِمَا أَحَدٌ رِفَاقِهِ الصَّيَادِينَ الْمُسَيَّنَّ وَأَخْبَرَهُمَا أَنَّ السَّيِّدَ سُوِيلَزَ قَدْ وَجَدَ مَيِّتًا وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى مَقْعَدِهِ الْمُعْتَادِ فِي سَاحَةِ الْكَنِيسَةِ ، وَالسَّبَبُ أَرْمَةٌ قَلْبِيَّةٌ . صَحِيحٌ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا ، وَلَكِنْ مِينَا كَانَتْ تَرَى أَنَّهُ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ . وَقَدْ قَرَّرَ الطَّبِيبُ الَّذِي فَحَصَهُ أَنَّهُ يَبْدُو مِنْ النُّظَرَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي عَيْنَيْهِ أَنَّ شَيْئًا مَا قَدْ أَفْرَعَهُ . وَلَكِنْ مَا الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ فِي سَاحَةِ الْكَنِيسَةِ تَهَادِفَةً هَذِهِ لِكَيْ يُفْرَعَ رَجُلًا مُسَيَّنًا فَيَقْضَى عَلَيْهِ ١٩

الفصل السابع

في هذه الليلة استيقظت مينا من نومها وقد أتابها شعور غريب . كان هناك فراغ في الحجرة ، وحتى قبل أن تنهض من فراشها وتُنظر ، كانت تُحسُّ أن لوسي ليست بالحجرة . اتجهت إلى الباب فوجدته مغلقاً ولكنه لم يكن موصداً بالميزلاج كما تركته . ارتدت ببطء وجزء ، وسارعت بالنزول إلى القاعة السفلى ، فإذا بها تجد الباب الأمامي للمنزل نصف مفتوح ، فتأكدت أن لوسي لابد قد خرجت . ولم تكن لدى مينا فكرة واضحة عن المكان الذي قصده . ولكنها ما كادت تخطو خارج المنزل حتى سمعت الساعة تذك الكواحدة . لقد كانت ساعة الكنيسة مناً جعل فكرها يتساق إلى هناك . لقد كانتا ذهابان إلى ساحتها كل يوم تقريباً ، فلعل لوسي قادتها قدماها إلى هناك وهي نائمة .

كانت الليلة حليكة الظلام ، ولكن كان هناك ضوء فجائي ينبعث بين الحين والحين كلما دُفعت الريح تجمعات السحب المتكسرة ليتجارت رجة القمر . وحينما وصلت مينا إلى طرف ساحة الكنيسة كان هناك من الظلام أكثر مما كان من الضوء . ولكن ، في هذه اللحظة ذاتها إبتعت ضوء القمر الساطع ، وتملكتها الفرحة حين رأت صدقتها مضطجعة فوق مقعدها المتعاد ، المقعد نفسه الذي مات فوقه السيد سويلز اليأس . وفي نفس اللحظة تقريباً جاءت السحابة التالية لتغطي القمر ثانية ، ولكن مينا أغترها إحساس — في خلال اللحظة التي أبتعت فيها ضوء القمر — أن لوسي لم تكن وحدها ، فلقد شاهدت في ظل المقبرة الكائنة خلف المقعد شكلاً ما ، ولم تستطع أن تحدد ما إذا كان شكل إنسان أو حيوان . ولكن هناك شيء طويل يجثم فوق جسم لوسي .

وصاحت مينا : « لوسي ! لوسي ! »

ثم جرت نحوها ، ولكن عندما وصلت إلى المقعد كانت لوسي وحدها . كانت لا تزال نصف مضطجعة ، ورأسها فوق ظهر المقعد ، أما عنقها فكان مكشوفاً . وتوقفت

مينا وهي تسأل نفسها : « ترى ، ألوسي التي نحلّم ، أم لاني أنا الخالصة ؟ إن ضوئه
القمري — عادةً — يجعل الكمرء يتصوّر أشياء غير موجودة ، ومع هذا فإنني أحس إحساساً
أكيداً أنه كان معها شيء ما ، أو شخص ما . »

كانت لوسي مستغرقة في نوم عميق ، ولكنها كانت تتنفس بطريقة غير طبيعية تنفساً
سريعاً مضطرباً . وجلست مينا على المقعد بجوارها لحظات وهي حيرى ، ماذا تفعل بعد
هذا ؟ قد يكون من الخطر أن توقظها دفعة واحدة ، ولكن — في نفس الوقت — قد
تصاب بالبرد إذا تركت على حالها هذه فترة طويلة . خلعت مينا معطفها وطوقتها به ، وفي
أناء ذلك سقط الزر العلوي من المعطف ، فأخذت المشبك المصنع الذي كانت
تلبسه ثم شكت به الفتحة من ناحية عنقها . يبدو أن المشبك انغرز في جلدها ، إذ إن
لوسي صرخت صرخة ألم ووضعت يدها على عنقها . ثم خلعت مينا جذاعها ووضعت
في قدمي لوسي ، وساعدتها على المشي ببطء . وشيئاً فشيئاً عادت إليها الحياة من
جديد ، وعادت إلى المنزل حيث كانت الشوارع خالية .

وفي صبيحة اليوم التالي تركت مينا صديقتها تنام حتى وقت متأخر ، وحينما
استيقظت ، كان يبدو على وجهها الشحوب ، ولكنها لم تصب بالبرد . أما العاقبة السيئة
التي خرجت بها من تجربة الليلة الماضية فهي بقعتان صغيرتان حمراوان في عنقها .
وأخذت مينا تلوم نفسها إذ لم تكن حريصة حينما استخذمت المشبك ، ولكن لوسي
طمأنتها وقالت إنها لا تحس بالألم فيهما ، وكان يبدو عليها أنها لا ترغب في الخوض في
هذا الموضوع .

في تلك الليلة كانت مينا تأمل أن تنام لوسي نوماً هادئاً مما كان في الليلة الماضية ،
ولكن الأمر لم يكن كذلك . فحينما حان وقت النوم ، لم تكن مينا بإصداً كالباب
بالمفتاح فحسب ، بل إنها أخذت المفتاح معها في فراشها أيضاً ، وكان هذا من حسن
الخط . لأنها سمعت لوسي وهي تنهض من فراشها وتحاول فتح الباب مرة أولى وثانية .
وفي المرة الثالثة استيقظت مينا لتجد لوسي تسحب الستائر إلى الخلف ، وتحثيث أن

تَسْقُطَ مِنَ التَّافِئَةِ فَأَتَّخِذَهَا إِلَى فِرَاشِهَا ، ثُمَّ أَعَادَتْ السَّيَّارَ إِلَى حَيْثُ كَانَتْ .
كَانَ الْفَمَرُ لَا يَزَالُ يَبْذُرُ كَامِلًا . وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْخَارِجِ يَبْدُو جَمِيلًا أُنْجَادًا . وَكَانَ
الْهُدُوءُ مُخَيَّمًا فِيهَا عِدَا خُفَاشَا ضَحْخَمًا كَانَ يَحُومُ فِي دَوَائِرٍ وَاسِعَةٍ ، وَيَقْتَرِبُ حَتَّى يَكَادَ
يَلْقِصِقُ بِالتَّافِئَةِ . وَلَكِنَّ يَبْدُو أَنَّ ظُهُورَ مِينَا قَدْ أَفْرَعَهُ ، فَأَتَّخَذَ طَيْرُ عَبْرِ الْوَادِي فِي الْحِجَاوِ
الْكَنِيسَةَ .

كَانَتْ صِحَّةُ لُوسِي تَزْدَادُ سُوءًا ، وَكَانَ ذَلِكَ مَبْعَثَ قَلْبِي لِمِينَا . وَكَانَتْ تُصَرِّفَاتُ
لُوسِي فِي مُعْظَمِ الْأَوْقَاتِ هِيَ تُصَرِّفَاتُ الصَّدِيقَةِ الْوَدُودِ الَّتِي عَرَفْتُ مِينَا مِنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ
وَأَحْبَبْتُهَا . وَلَكِنَّ — فِي أَوْقَاتٍ أُخْرَى — كَانَتْ تَبْدُو وَكَأَنَّهَا شَخْصٌ غَرِيبٌ ، وَكَانَتْ
لُوسِي دَائِمَةً الشُّحُوبَ وَالْإِزْهَاقَ فِي الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ . وَلِذَلِكَ كَتَبْتُ مِينَا إِلَى وَالِدَةِ لُوسِي
تَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تُعْجَلَ بِالْحَضُورِ إِلَى هَوَيْتِي . صَحِيحٌ أَنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ خُطُورَةٌ فِي تَحْمِيلِ
السَّيِّدَةِ وَسَيَّرْنَا مَسْقَاتِ السَّفَرِ يَسْتَبِ قَلْبُهَا الضَّعِيفُ . وَلَكِنْ إِذَا كَانَتْ لُوسِي مَرِيضَةً فَإِنَّ
مِنْ حَقِّ أُمِّهَا أَنْ تُعْرِفَ . كَذَلِكَ طَلَبْتُ مِينَا مِنْ لُوسِي أَنْ تُعْرِضَ نَفْسَهَا عَلَى طَبِيبٍ ،
فَأَسْتَجَابَتْ لَهَا وَهِيَ غَيْرُ رَاضِيَةٍ كُلِّ الرُّضَا . وَقَدْ قَرَّرَ الطَّبِيبُ أَنَّهَا لَا تُعَالِي مِنْ أَيِّ
مَرَضٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الرَّاحَةِ وَالْهُدُوءِ .

وَلَمْ نُنْشَأْ مِينَا أَنْ تَسْأَلَ لُوسِي عَنْ مَوْضُوعِ مَشْيِهَا فِي أَثْنَاءِ النَّوْمِ ، إِذْ وَجَدْتُ أَنَّهُ مِنْ
الْخَيْرِ أَلَّا تُقْلِقَ بِهَا الْحَدِيثَ الْمُبَاشِرَ فِيهِ عَقَبَ وَقَوَّعِهِ . وَلَكِنَّ ، بَعْدَ ظَهْرِ أَحَدِ الْأَيَّامِ ،
وَحِينَمَا كَانَا تَحْتَازَانِ سَاحَةَ الْكَنِيسَةِ وَجَدْتُ مِينَا أَنَّ الْوَقْتَ مُنَاسِبٌ لِكُنْيِ تَطْرِقِ
الْمَوْضُوعِ . وَفَكَّرْتُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَا يُقْلِقُ لُوسِي فَإِنَّ التَّحَدُّثَ فِيهِ رُبَّمَا يُسَاعِدُهَا
وَيَكُونُ خَيْرًا لَهَا ، وَلِذَلِكَ سَأَلْتُهَا : « بِمَ كُنْتِ تَحْلُمِينَ فِي بَلِّكَ اللَّيْلَةَ حِينَمَا جِئْتِ إِلَى هُنَا
وَحَذِّكِ ؟ »

فَاجَابَتْ لُوسِي مُتَسَائِلَةً : « هَلْ كُنْتُ أَحْلُمُ ؟ نَعَمْ ، لَا بَدَّ أَنَّهُ كَانَ حُلْمًا ، وَلَكِنَّهُ
يَبْدُو كَالْحَقِيقَةِ ثَمَانًا . لَقَدْ أَحْسَسْتُ بِرَغْبَةٍ شَدِيدَةٍ فِي أَنْ أَكُونَ فِي سَاحَةِ الْكَنِيسَةِ . وَمَعَ
هَذَا ، فَلَسْتُ أَذْهَرُ لِمَ إِذَا ذَلِكَ لِأَنِّي أَذْكُرُ أَنَّي كُنْتُ خَائِفَةً مِنْ شَيْءٍ مَا أَيْضًا . وَمَعَ

أَنِّي لَأَبْذُ كُنْتُ نَائِمَةً ، فَإِنِّي أَتَذَكَّرُ سِيرِي فِي الشُّوَارِعِ ، وَحِيلَ إِلَيَّ أَنَّ الْمَدِينَةَ مُنْقَلَبَةٌ بِالْكِلَابِ . كَانَتِ الضُّوْضَاءُ عَلَى أَشْدهَا ، وَعِنْدَمَا كُنْتُ أَغْبُرُ الْجِسْرَ إِذَا بِسَمَكَةٍ تَقْفُزُ ، فَتَوَقَّفَتْ كَنِي أَجِيلَ بَصَرِي فِي الْمَاءِ . ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَى الْكَنِيسَةِ وَبَدَأَ لِي كَأَنِّي لَا أَزَالُ أُحَدِّثُ فِي الْمَاءِ ، وَأَنَّنِي أَغْوَصُ فِيهِ ، فِي مَاءٍ عَمِيقٍ أَخْضَرَ ، وَكَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ طَوِيلٌ قَاتِمٌ ذُو عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ ، وَكَانَتَيْنِ مَشَاعِرَ مِنَ اللَّذَّةِ وَالْخَوْفِ وَالْأَلَمِ جَمِيعًا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَذْكُرُ أَنَّكَ كُنْتَ يَجَانِبِي عَلَى الْمَقْعَدِ . هَلْ كُنْتَ أَنْتِ ؟ أَمْرٌ عَجِيبٌ حَقًّا .

قَالَتْ هَذَا ، ثُمَّ أَطْلَقَتْ فِي الضَّحْلِ .

لَمْ يَرُقْ مِنِّي أَنَّ تَرَى لُوسِي تَضْحَكُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، فَلَقَدْ كَانَتْ ضَحِكُهَا غَيْرَ طَبِيعِيٍّ . كَمَا أَحَسْتُ أَنَّ لُوسِي لَمْ تُخْبِرْهَا بِكُلِّ مَا كَانَتْ تَذْكُرُهُ عَنْ هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُحَاوِلْ أَنْ تُلِحَّ عَلَيْهَا لِكُنِّي تُخْبِرْهَا بِالْمَزِيدِ . ذَلِكَ لِأَنَّ لُوسِي قَالَتْ إِنَّهَا تَشْكُو مِنْ صُدَاحٍ ، وَقَدْ أَوْتُتْ إِلَى فِرَاشِهَا عَقِبَ عَوْدَتِهَا إِلَى الْمَنْزِلِ مُبَاشَرَةً . أَمَّا مِنِّي فَقَدْ جَلَسْتُ تَكْتُبُ بَعْضَ الرِّسَالِ حَتَّى الْعَاشِرَةِ . وَأَحَسْتُ أَنَّهَا فِي حَاجَةٍ إِلَى الْهَوَاءِ الطَّلَقِ فَخَرَجْتُ تَمْشِي حَتَّى مَكْتَبِ الْبَرِيدِ فِي الْمَدِينَةِ . وَفِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ مَرَّتْ بِمَقْعَةٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرَى مِنْهَا ظَهَرَ الْمَنْزِلِ الَّذِي تُقِيمَانِ فِيهِ ، وَلَمْ يَكُنِ الْقَمَرُ بَدْرًا كَمَا كَانَ فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ لَا يَزَالُ سَاطِعًا . وَحِينَمَا رَفَعْتُ بَصَرَهَا إِلَى نَافِذَةِ حُجْرَةٍ تُوِيهَا أُخَذْتُهَا الدَّهْشَةُ إِذْ شَاهَدْتُ لُوسِي فَلَوَّحَتْ لَهَا يَدَيْهَا ، وَلَكِنْ لُوسِي لَمْ يُبَادِلْهَا التَّجَبُّعَ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تُسْتَبِدُّ عَلَى حَافَةِ النَّافِذَةِ كَمَا لَوْ كَانَتْ نَائِمَةً . وَفِي التَّوَّ حَظَرَ عَلَى بَالِي مِنِّي مَا حَدَّثَ فِي لَيْلَةٍ سَاحَةِ الْكَنِيسَةِ ، وَالشَّكْلُ الْغَرِيبُ الَّذِي حِيلَ إِلَيْهَا وَقَتِيلٌ أَنَّهُ جَائِمٌ فَوْقَ صَدِيقَتِهَا . وَهَلَكْنَا لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ ، بَدَأَ كَمَا لَوْ أَنَّ شَيْئًا مَا مُتَمَدِّدًا أَمَامَ وَجْهِهَا عَلَى حَافَةِ النَّافِذَةِ ، وَبَدَأَ أَشْبَهُ بِجَنَاحِ طَائِرٍ أَوْ حُفَاشٍ . هَزَوْتُ مِنِّي إِلَى الْمَنْزِلِ ، وَسَارَعْتُ إِلَى آرْتِقَاءِ السُّلَّمِ وَتَبَّأَ . وَحِينَمَا دَخَلْتُ الْحُجْرَةَ ، كَانَتْ لُوسِي فِي فِرَاشِهَا مُسْتَقْرِقَةً فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ . كَانَتْ تَنْتَفِسُ تَنْفَسًا سَرِيعًا مُضْطَرِبًا كَمَا فَعَلْتُ فِي سَاحَةِ الْكَنِيسَةِ ، وَكَانَتْ تَشُدُّ بِمِفْرَشِ السَّرِيرِ بِقُوَّةٍ حَوْلَ عُنُقِهَا . إِنَّجَهْتُ مِنِّي إِلَى النَّافِذَةِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ شَيْءٍ .



لَمْ تُكُنِ الْأَيَّامُ الْقَلِيلَةُ الْقَالِيَةَ سَعِيدَةً بِالنِّسْبَةِ لِمِيقَانَا . كَانَتْ لُوسِي تَأْكُلُ وَتَشَامُ ، وَكَانَتْ تَسْتَشِيرُ الْهَوَاءَ الطَّلُقُ كَثِيرًا ، وَتَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ تَزْدَادُ شُحُوبًا وَضَعْفًا . وَأَمَّا كَانَ رَأْيُ الطَّيِّبِ فَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ لِي أَنَّهَا كَانَتْ مَرِيضَةً . أَمَّا الْجُرْحَانِ الصَّغِيرَانِ فِي عُنُقِهِمَا فَالْهِمَا لَمْ يَتَحَسَّنَا . كَانَا لَا يَزَالَانِ مَفْتُوحَيْنِ ، بَلْ لَقَدْ زَادَا ائْتِسَاعًا ، وَكَانَتْ مِينَا تَرْجُو أَلَّا يَكُونَ عَذَمٌ جِرْصِيهَا هُوَ السَّبَبُ فِي مَرَضِ لُوسِي .

وَأَخِيرًا قَالَتْ مِينَا : « لَا بُدَّ أَنْ تَسْتَشِيرِي طَبِيبًا آخَرَ يَا لُوسِي ، سَوْفَ أَكْتُبُ إِلَى دُكْتُور

سيوارد . »

أَفْضَلُ الْتَّامِنِ

جِئْنَا نَزَلْتُ مِنَّا لِنَتَنَاوَلَ طَعَامَ الْإِفْطَارِ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي وَجَدْتُ نِحْطَابًا لَهَا قُرْبَ
مَكَانٍ جُلُوسِهَا إِلَى الْهَائِدَةِ . وَإِذْ وَقَعَ بَصَرُهَا عَلَى خَاتَمِ بُودَايَسْتِ عَلَى طَائِعِ الْيُودِ
صَاحَتْ : « أَخِيرًا ! لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُونَانَانِ . »

وَلَكِنْ جِئْنَا رَأَتْ أَنَّ الْكِتَابَةَ عَلَى الظَّرْفِ لَيْسَتْ بِخَطِّ جُونَانَانِ عَادَتْ إِلَيْهَا أَسْوَأُ
مَخَافِهَا .

« السَّيِّدَةُ الْعَزِيزَةُ »

أَكْتُبُ إِلَيْكَ بِنَاءً عَلَى رَغْبَةِ السَّيِّدِ جُونَانَانِ هَارَكَرَ الَّذِي لَا يَمْلِكُ الْقُوَّةَ الْكَافِيَةَ لِكَيْ يَكْتُبَ
بِنَفْسِهِ ، وَلَوْ أَنَّهُ يَتَحَسَّنُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَشُكْرًا لِلَّهِ وَلِلسَانِ جُوزَيْفِ . لَقَدْ كَانَ تَحْتِ رِعَايَتِنَا
طَوَالَ الْأَسَابِيعِ الْأَرْبَعَةِ الْهَامِضِيَّةِ ، وَقَدْ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أُبْعَثَ إِلَيْكَ بِحَبِّهِ ، كَمَا طَلَبَ أَنْ أَكْتُبَ
إِلَى السَّيِّدِ بِيْتَرِ هُوكِينِزِ فِي إِكْسْتِرِ بِالْجَلْتِرَا لِأَخْبِرَهُ أَنَّ عَمَلَهُ قَدْ أَتَمَّجَزَ ، وَأَنَّهُ يَأْسَفُ لِنَتَأَخُّرِهِ فِي
الْعُودَةِ . إِنَّهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى بَضْعَةٍ أَسَابِيعَ أُخْرَى مِنَ الرَّاحَةِ فِي دَارِنَا الَّتِي تَقَعُ فَوْقَ التَّلَالِ ، ثُمَّ
يَعُودُ بِقَدَمِهَا إِلَى الْجَلْتِرَا . كَمَا طَلَبَ أَنْ أُخْبِرَكَ أَنَّهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَقْوَدٍ ، إِذْ يَرْغَبُ فِي سَدَادِ
تَقَابِثِ إِقَامَتِهِ هُنَا ، وَذَلِكَ لِكَيْ يَتَمَكَّنَ دَارِنَا مِنْ تَقْدِيمِ الْعَوْنِ لِلْأُولِيكَ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ .

الْمُخْلِصَةُ

الْأُنْحُثُ أَغَاثَا

مُسْتَشْفَى سَائِتِ جُوزَيْفِ »

وَقَدْ ذُهِبَتْ بِعِبَارَاتٍ أُخْرَى كَتَبْتُهَا الْأُنْحُثُ أَغَاثَا :

« السَّيِّدُ هَارَكَرَ نَائِمٌ الْآنَ ، وَقَدْ وَجَدْتُ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ أَفْتَحَ الرِّسَالَةَ لِأَضْيِفَ
الْعَزِيزَةَ . جِئْنَا جَاءَ إِلَيْنَا كَانَ يَتَحَدَّثُ فِي هَيْجٍ عَنِ الذَّمَّائِ وَالذَّمَّائِ وَمَصَاصِي الدَّمَاءِ ،
وَيَبْدُو أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ لَهُ شَيْءٌ غَرِيبٌ مُفْزِعٌ — وَرُبَّمَا شَرِيرٌ — حَتَّى لَقَدْ صَارَتْ الْأُمُورُ كُلُّهَا
مُخْتَلِطَةً فِي عَقْلِهِ . وَلَقَدْ وَجَدْنَا مِنَ الْأَفْضَلِ الْأَلْوَجْهَ إِلَيْهِ أَيْ سُؤَالِ . لَقَدْ وَصَلَ إِلَى بُودَايَسْتِ

بِالْقِطَارِ قَادِمًا مِنْ يَسْتَرِيْزْ دُونَ قَذْكِرَةِ سَمَرْ ، وَفِي حَالَةٍ شَدِيْدَةٍ مِنَ الْاضْطِرَابِ . وَكُنَّا نُوَدُّ أَنْ نَكْتُبَ إِلَيْكَ مِنْ قَبْلِ ، وَلَكِنْ حَالَةٌ لَمْ تَكُنْ تَسْمَحُ بِذَلِكَ . أَمَّا الْآنَ فَقَدْ أَصْبَحَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْنَا ، وَأَنْ يَكُونَ لِكَلَامِهِ مَعْنَى .

وَحِينَمَا ظَهَرَتْ لُوسِي صَاحَتِ مِينَا : « أُو يَا لُوسِي ! إِنَّهُ يَخْتَرُ . لَقَدْ جَاءَنِي الْأَخْبَارُ أَخِيرًا . لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ قَطُّ أَنَّ السَّعَادَةَ سَوْفَ تَعْمُرُنِي حِينَ أَعْلَمُ أَنَّهُ يَرْقُدُ فِي مُسْتَشْفَى ، وَلَكِنَّهُ — عَلَى الْأَقْلَ — لَمْ يَحْتَفِ . إِنَّهُ — عَلَى الْأَقْلَ — لَمْ يَمُتْ . لَا بُدَّ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِ بِقَدْرِ مَا أَسْتَطِيعُ مِنْ سُرْعَةٍ . »

وهكذا ، انْحَدَثَ مِينَا الْإِجْرَاءَاتِ اللَّازِمَةِ : أُرْسِلَتِ الْخِطَابَاتُ وَالْبَرْقِيَّاتُ إِلَى السَّيِّدِ هُوكِينِزْ ، وَإِلَى الْأَخْتِ أَغَاثَا ، وَاشْتَرَتْ تَذَاكِرَ السَّفَرِ بِالسَّفِينَةِ وَالْقِطَارِ . وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهَا السَّيِّدُ هُوكِينِزْ بِرِسَالَةٍ رَقِيْقَةٍ ، وَكَانَ مِنْ رَأْيِهِ أَنَّهَا سَوْفَ تَكُونُ فِكْرَةً طَيِّبَةً بِالنِّسْبَةِ لِمِينَا وَجُونَاثَانَ أَنْ يَعْقِدَا قِرَاءَتَهُمَا فِي بُودَابِسْت ، وَتَعَهَّدَ أَنْ يَقْوَى هُوَ أَخْذَ الْإِجْرَاءَاتِ اللَّازِمَةِ .

أَمَّا لُوسِي — وَقَدْ اسْتَشْفَرَتْ مَا عَمَرَ مِينَا مِنْ سَعَادَةٍ — فَقَدْ بَدَأَتْ حَالَهَا تَتَحَسَّنُ قَلِيلًا . وَلَكِنَّهَا كَانَتْ لَا تَزَالُ بَعِيدَةً عَنِ الشِّفَاءِ ، وَكَانَتْ مِينَا تَضَعُ أَمْلَهَا فِي وَصُولِ السَّيِّدَةِ وَيَسْتِرَا ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ أَثْمَرٍ طَيِّبٍ .

وَقَالَتْ مِينَا ، لِلْمَرَّةِ الْعِشْرِينَ مِنْذُ وَصُولِ رِسَالَةِ الْأَخْتِ أَغَاثَا : « أُو يَا لُوسِي ! لَأَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ الْإِنْتَظَارَ لِكَيْ أَرَاهُ ثَانِيَةً ! »

كَانَتِ الْفَتَاتَانِ فِي مَحَطَّةِ هُويْجِي تَنْتَظِرَانِ الْقِطَارَ الَّذِي يَقُلُّ السَّيِّدَةُ وَيَسْتِرَا . وَقَالَتْ لُوسِي ، لِلْمَرَّةِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ عَلَى الْأَقْلَ خِلَالِ هَذَا الْأُسْبُوعِ : « كَمْ أُنْمَتِي لَوْ أَسْتَطَعْتُ أَنْ أَنْزُوجَ بِسُرْعَةٍ مِثْلِكَ . لَأَنَّ لَفْتَاةَ سَعِيدَةٍ حَقًّا يَامِينَا ، وَأَنْ لَمْ يَكُنِ اللَّوْزُ غُودَا لِمِينِجْ وَالِدُ آرْتِرْ مَرِيضًا لَا سْتَطَعْنَا — آرْتِرْ وَأَنَا — أَنْ نَنْزُوجَ أَيْضًا فِي هَذَا الصَّيْفِ . غَرِيْبِي الْيَسْمَكِيْنُ ، إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّبِعَ عَنِ الْكَمْتَرِلِ . »

وَلَمْ تَكُنْ لُوسِي تَتَحَدَّثُ كَثِيرًا عَنْ آرْتِرْ فِي أَثْنَاءِ الْأَسَابِيحِ الْقَلِيلَةِ الْخَامِصِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ

سُرْتُ مِنَّا جِئْنَا سَمِعَتْهَا تَحَدَّثُ ثَانِيَةً ، وَتَمَنَّتْ هِيَ كَذَلِكَ لَوْ أَنَّ آثَرَ كَانَ يَمْلِكُ
الْحُرِّيَّةَ لِكَيْ يَأْتِيَ إِلَى هَوَيْتِي . إِنَّ لُوسِي فِي حَاجَةٍ إِلَى عَوْنٍ مِنْ رَجُلٍ يَقِفُ بِجَانِبِهَا .

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ لَاحَظْتُ مِنَّا أَنَّ هُنَاكَ قِطَارَ نَضَائِعٍ يَتَحَرَّكُ بِطَءٍ يُغَادِرَ الْمَحْطَةَ ،
وَكَانَتْ مُعْظَمُ أَحْمَالِ الْقِطَارِ مِنَ السَّمَلِ الَّذِي يُنْقَلُ إِلَى لَنْدَنَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ شَيْئًا
آخَرَ كَذَلِكَ .

صَاحَتْ مِنَّا : « مَا هَذِهِ الصَّنَائِقُ الْمَحْمُولَةُ فِي عَرَبَاتِ الْقِطَارِ الْمَكْشُوفَةِ ؟ لَقَدْ
رَأَيْتُهَا مِنْ قَبْلُ . عَجَبًا ! مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهَا الصَّنَائِقُ الَّتِي كَانَتْ فِي السَّفِينَةِ دِيمِيتر . »

وَعَادَتْ بِهَا الْخَوَاطِرُ إِلَى الْعَاصِفَةِ ، وَإِلَى السَّفِينَةِ ، وَإِلَى الرِّبَانِ الْكَمِيَّتِ . كَمْ هُوَ
مُؤَسِّفٌ أَنْ يَمُوتَ رِجَالٌ كَثِيرُونَ فِي سَبِيلِ إِخْضَارِ قَلِيلٍ مِنَ الصَّنَائِقِ إِلَى الْجَلْتِ . قَالَتْ
لُوسِي جِئْنَا مَرَّتْ بِهَا الْعَرَبَاتُ الْمَكْشُوفَةُ : « إِنِّي أَشْعُرُ بِالْبُرُودَةِ . »

وَالْوَاقِعُ أَنَّهَا بَدَتْ فَجْأَةً وَقَدْ كَسَاهَا الشُّحُوبُ الشَّدِيدُ ، وَأَكْتَابَهَا الْمَرَضُ . وَكَانَ قِطَارُ
النَّضَائِعِ قَدْ خَرَجَ مِنَ الْمَحْطَةِ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتِي ظَهَرَ فِيهَا الْقِطَارُ الَّذِي يُقِلُّ السَّيِّدَةَ
وَسِتْنَرَا قَادِمًا ، فَقَالَتْ مِنَّا وَقَدْ طَوَّقَتْ صَدِيقَتَهَا بِذِرَاعَيْهَا : « كُلُّ شَيْءٍ سَوْفَ يَكُونُ
أَحْسَنَ الْآنَ . »

تَنَفَّسَتْ لُوسِي نَفْسًا عَمِيقًا وَقَالَتْ : « آوْ يَا مِينَا ! عَزِيزَتِي مِنَّا ! إِنِّي أَمَلُّ أَنْ يَكُونَ
الْأَمْرُ كَذَلِكَ . إِنِّي لَا أَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ الَّتِي كُنْتُ أَشْعُرُ بِهَا مِنْ قَبْلُ . »

الْقِسْمُ الثَّالِثُ دُكْتُور سِيوَارْدُ

الفصل التاسع

جَلَسَ الدُّكْتُورُ سِيوَارْدُ يَكْتُبُ تَقَارِيرَهُ الْأُسْبُوعِيَّةَ عَنْ دَارِ الْمَجَانِينِ الَّتِي يَتَوَلَّى الإِشْرَافَ عَلَيْهَا . وَكَانَ مِنْ بَيْنِ الْحَالَاتِ الَّتِي يُعَالِجُهَا حَالَةُ رَيْنُفِيلْدِ الَّتِي كَانَتْ مَحْطَ أَهْتِمَائِهِ ، فَهَاهُنَا رَجُلٌ مَوْفُورُ الْقُوَّةِ ، فِي أَوَاسِطِ الْعُمُرِ ، يَقْضِي كُلَّ وَقْتِهِ فِي الْقَبْضِ عَلَى الذُّبَابِ وَالْإِنْبَاءِ عَلَيْهِ حَيًّا فِي وَعَاءٍ زُجَاجِيٍّ . مِثْلُ هَذَا الصَّنِيعِ — عَلَى الْأَقْلَ — لَمْ يَكُنْ يُسَبِّبُ أَيَّ ضَرَرٍ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ — كَذَلِكَ — يُمَسِّكُ الْعَتَاكِبَ وَيُقَدِّمُ لَهَا الذُّبَابَ طَعَامًا . وَتَطَوَّرَ



الأمر فأصبح يُمسِك زَوْجًا مِنَ الطُّورِ الصَّغِيرَةِ وَيَقْدُمُ لَهَا الْغَنَائِبَ غِذَاءً . وَسَأَلَ الرَّجُلَ عَمَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْمُسْكِرِ أَنْ يَقْتَتِي قِطًّا صَغِيرًا ، فَرَفَضَ الدُّكْتُورُ سِيوَارْدَ طَلِبَهُ . وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ أُلْبَغَ مُمَرَّضُ يَنْفِيلْدَ أَنَّ الطَّائِرَيْنِ اخْتَفَيَا ، وَأَنَّ هُنَاكَ دَمًا وَرِيشًا فِي أَحَدِ أَرْكَانِ الْحُجْرَةِ وَلِذَلِكَ حَمَدَ الدُّكْتُورُ سِيوَارْدَ اللَّهَ لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ يَنْفِيلْدَ قِطًّا .

وَكَانَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ يَنْفِيلْدَ يَتِمَّعُ حُطَّةً ، وَأَنَّ هَذِهِ الْحُطَّةَ كَانَتْ — بِمَنْطِقِهَا الْجُنُونِيَّ مَعْقُولَةً . فَقَدْ كَانَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ — إِذْ يَلْتَقِيهِمُ الطَّائِرَيْنِ — فَهُوَ لَا يَقْضِي عَلَى حَيَاتِهِمَا فَحَسَبُ ، وَلَئِمَّا يَقْضِي فِي نَفْسِ الْوَقْتِ عَلَى حَيَاةِ الْغَنَائِبِ وَالذُّبَابِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَتَّبَعُ فِيهِ شُعُورًا بِالسُّطُورَةِ وَالْقُوَّةِ . وَلَكِنَّ الْمَسْأَلَةَ هِيَ : مَا الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهِ كُلُّ هَذَا ؟

إِنَّ قَتْلَ الْغَنَائِبِ وَالذُّبَابِ لَيْسَ أَمْرًا ذَا شَأْنٍ ، وَلَكِنَّ لِنَفَرٍ أَنَّهُ بَدَأَ يُكْرَهُ فِي الْقَضَاءِ عَلَى حَيَاةِ كَاتِبَاتٍ أَغْلَى مِنْ هَذِهِ ؟ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ — إِذَا تَسَلَّطَتْ عَلَيْهِ — قَدْ تَجَعَلَ مِنْهُ قَاتِلًا . وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِيَ الْمُسْكِكَةُ الْوَحِيدَةُ فِي حَالَةِ يَنْفِيلْدَ . فَمُنْذُ بَضْعَةِ أَيَّامَ بَدَأَتْ تَتَابُهُ حَالَةٌ هِيَاجٍ بِدُونِ سَبَبٍ مَلْحُوظٍ ، وَظَلَّ يَرُدُّ قَوْلَهُ : « إِنَّ السَّيِّدَ قَرِيبٌ » ، فَهَلْ كَانَ هَذَا تَوْعَاً مِنَ الْكُھُوسِ الدَّنِيِّ يَأْتُرِي ؟ وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ ، وَاقْتَرَنَ الْأَمْرُ بِرَغْبَتِهِ فِي الْقَتْلِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُشِيرُ إِلَى حَالَةٍ خَطِيرَةٍ .

أَزَاحَ الدُّكْتُورُ سِيوَارْدَ السَّجَّلَ الَّذِي يُدَوِّنُ فِيهِ مُلَاحَظَاتِهِ بَعِيدًا ، وَأَرَاخَ رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَكَانَ اللَّيْلُ قَدْ انْتَصَفَ ، وَغَلَبَهُ التَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ . كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكِيدُ فِي عَمَلِهِ كَثِيرًا ، وَلَكِنَّ هَذَا كَانَ يُسَاعِدُهُ عَلَى التَّفَكُّيرِ فِي لُوسِي .

وَعِنْدَمَا ذَهَبَ إِلَى فِرَاشِهِ أُخِيرًا أَصَابَهُ أَرْقٌ . وَكَانَ لَا يَزَالُ مُسْتَقِظًا حِينَمَا دَخَلَ الْحَارِسُ اللَّيْلِيُّ حُجْرَتَهُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ صَبَاحًا ، وَقَالَ : « لَقَدْ أُرْسَلَنِي إِلَيْكَ الْمُمَرَّضُ الْمَمْنُوطُ بِهَ الْعَمَلِ الْبَلِيَّةِ لِأَيْلُوكَ أَنْ يَنْفِيلْدَ قَدْ هَرَبَ . » فَارْتَدَّى سِيوَارْدُ رِيَابَةً عَلَى عَجَلٍ ، وَنَزَلَ عَلَى السَّلَمِ وَتَبَّأَ إِلَى حُجْرَةِ يَنْفِيلْدَ ، وَكَانَ الْمُمَرَّضُ قَدْ أَبْغَطَ اثْنَيْنِ مِنْ زُمَلَائِهِ ، وَوَقَفَ الثَّلَاثَةُ يَنْتَظِرُونَ تَوَجُّهَاتِ الطَّيِّبِ .

وَقَالَ الْمُمْرُضُ شَارِحًا : « لَقَدْ حَدَثَ الْأَمْرُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ يَا سَيِّدِي : كُنْتُ قَدْ نَظَرْتُ مِنْ خِلَالِ النَّافِذَةِ الَّتِي فِي بَابِهِ مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً ، وَبَدَأَ لِي أَنَّهُ نَائِمٌ ، ثُمَّ نَظَرْتُ ثَانِيَةً مُنْذُ لَحَظَاتٍ فَرَأَيْتُهُ يَتَسَلَّقُ إِلَى خَارِجِ النَّافِذَةِ . إِنَّهُ قَوِيٌّ جِدًّا يَا سَيِّدِي ، فَلَقَدْ فَتَى قَضْبَانِ النَّافِذَةِ بِيَدَيْهِ وَقَرَّ هَارِيًا ، وَأَظُنُّ أَنَّهُ أَتَجَهَّ نَحْوَ كَارْفَاكْسِ . »

قَالَ الدُّكْتُورُ سِيوَارْدُ : « اتَّبِعُونِي ، فَسَوْفَ نَسْلُكُ نَفْسَ الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَهُ مِنْ خِلَالِ النَّافِذَةِ . »

وَبَيْنَمَا كَانَ الطَّبِيبُ يَتَسَلَّقُ النَّافِذَةَ كَانَ يَعْجَبُ مِنْ قُوَّةِ الرَّجُلِ الْمَجْنُونِ الَّذِي اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَخَيَّرَ الْقَضْبَانَ الْكَحْدِيدِيَّةَ الْغَلِظَةَ كَأَنَّمَا هِيَ أَسْلَاكٌ . مَا الَّذِي جَعَلَهُ يَقَعْلُ ذَلِكَ يَأْتَرَى ؟ إِنَّهُ لَمْ يُحَاوِلِ الْهُرُوبَ قَطُّ مِنْ قَبْلِ !

وَجَيْنَمَا أَصْبَحَ الرِّجَالُ الْخَمْسَةُ فِي الْخَارِجِ جَرَوْا نَحْوَ السُّورِ الْمُرْتَفِعِ الَّذِي يَقِفُ حَاجِزًا بَيْنَ الْمُسْتَشْفَى وَأَرْضِي كَارْفَاكْسِ الْمُشْجَرَةِ الَّتِي تَغْشِيهَا الظُّلَامُ ، وَسَأَلَ الطَّبِيبُ : « إِذَا كَانَ يَنْفِيلِدُ يُرِيدُ مُجَرَّدَ الْهُرُوبِ ، فَلِمَاذَا لَمْ يَنْطَلِقْ نَحْوَ الطَّرِيقِ ؟ »

وَكَانَ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ السُّورِ مَمَرٌ تَكْشُوهُ الْأَغْشَابُ الطَّوِيلَةُ . سَلَكَوا ذَلِكَ الْمَمَرُ حَتَّى لَاحَ أَمَانَتُهُمْ فِي عَتَمَةِ اللَّيْلِ هَيْكَلُ الْمَنْزِلِ وَالْكَنِيسَةِ . وَلَمْ يَصْغُبْ عَلَيْهِمُ الْعُتُورُ عَلَى يَنْفِيلِدِ الَّذِي بَلَّسَ جِلْبَابَ الثَّوَمِ الْأَبْيَضِ ، وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ يُحَاوِلُ أَنْ يُخْفِيَ نَفْسَهُ ، وَإِنَّمَا كَانَ مُنْشَبِّهًا بِجِسْمِهِ بِبَابِ الْكَنِيسَةِ ، وَذِرَاعَاهُ مَمْدُودَتَانِ إِلَى أَعْلَى . وَكَانَ يَقُولُ : « سَيِّدِي ! إِنَّ خَادِمَكَ هُنَا ، فَمَرَّةً بِمَا تَرَى . »

فَقَالَ الطَّبِيبُ : « ثَمَانًا كَمَا قَدَّرْنَا . إِنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْهَوَسِ الدِّينِيِّ ، وَلَقَدْ جَاءَ إِلَى هُنَا لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّهَا أَقْرَبُ كَنِيسَةٍ . »

وَلَبَدُّ أَنْ يَنْفِيلِدُ سَمِعَ صَوْتَهُ ، فَقَدَّ الْتَفَتَ فَجَاءَهُ وَوَاجَهُهُمُ وَهُوَ يُزْمِجُرُ كَمَا تَزْمِجُرُ الْحَيَوَانَاتُ الضَّارِيَّةُ . أَمَّا الطَّبِيبُ وَرِجَالُهُ فَقَدْ أَحْكَمُوا الْخَلْفَةَ حَوْلَهُ حَتَّى أَصْبَحُوا عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْهُ بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُونَ الْإِمْسَاكَ بِهِ ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَ يُعَاتِلُ قَبَالَ الْمُسْتَمِيمِ . وَكَانَ الرِّجَالُ

الخمسة أشد قوة فحملوه وعادوا به وهو يرأس ويقوم . وكان هناك خفاش يطير حائما بين الأشجار وتحاربها ، وبدا كأنما تحركات الخفاش تزيد استيثاره وصياحا ، حتى إن كل من في المستشفى استيقظوا على صيحاته وصراخاته .

وفي صباح اليوم التالي جاء زائر إلى الدكتور سيوارد ، ولم يكن الطبيب راغباً في استقبال أي زائر بعد ما حدث في الليلة الماضية . ولكنه كان آرثر هولموود وهو صديق لا بد أن يراه . ولم يكن الشاب الفارع — القوام ، الأنين الثياب ، الكبهى المنظر — سعيداً كما كان يبدو عادة ، وإنما كان قلقاً بسبب تدهور صحة لوسي .

قال آرثر : « لقد كانت تبدو في أحسن حال حينما عاذا من هوبيني ياجاك ، مع أن مينا موري قالت إنها كانت مريضة جداً . »

قال الطبيب : « لقد كتبت مينا إلى بذلك ، وكان يبدو من رسالتها أنها شديدة القلق عليها . »

قال آرثر : « حسناً ، لقد ظننت في البداية أن مينا اخترعت قصة مرضها . ولكن ما إن ألقضت أيام قليلة بعد عودتها حتى تغيرت ، وأدركت تماماً ماذا كانت مينا تقصده . إنها الآن في غاية الضعف حتى إنها لا تكاد تتحرك هنا وهناك إلا بصعوبة ، ثم إنها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم . إنني لا بد أن أعود إلى لندن اليوم ، ولكنني أريدك أن تذهب لتناول الغداء مع آل وستيرا . ولا حظ أن لوسي لن تتحدث عن مرضها على مستمع من أمها ، ولكن يمكنك بعد ذلك أن تجد فرصة لرؤيتها على الغدا . »

وفي وقت متأخر من نفس الصباح استقل الدكتور سيوارد عربته إلى هيلينغدون حيث تقيم أسرة وستيرا . ولم يكن قد رأى لوسي منذ أسابيع ، ولم يكن مرتاحاً إلى رؤيتها الآن ، ولكنه لم يتس وعده أن يكون لها صديقاً .

وحينما قابلها لاحظ أنها شاحبة ولكن مبسمة ، على الأقل ، في أثناء الغداء حينما كانت أمها معها . ولكن بعدما ذهبت السيدة وستيرا لتستريح تحلت لوسي عن

التَّظَاهِرُ ، وَقَالَتْ : « آه يا جاك ! أنا لَسْتُ عَلَى مَا يُرَامُ ، وَكَمْ أَوَدُّ أَنْ أَكُونَ عَلَى مَا يُرَامُ . »

فَقَالَ الطَّبِيبُ : « تَوَدِّينَ أَنْ تُكُونِي عَلَى مَا يُرَامُ مِنْ أَجْلِ آرْتَرُ ؟ »

فَتَبَسَّمتْ لُوسِي فِي رِقَّةٍ وَقَالَتْ : « نَعَمْ يا جاك مِنْ أَجْلِ آرْتَرُ . »

فَتَكَلَّفَ سِيوارْدُ انْتِسَامَةً وَسَأَلَهَا : « لُوسِي ، مِمَّ تُشْكِينَ ؟ »

فَأَعْبَرَتْهُ أَنَّهَا تُشْكُو مِنْ ثَوَمٍ ثَقِيلٍ أَثْبَتَ بِالْمَوْتِ .. مِنْ أَخْلَامٍ مُزَعِجَةٍ لَا تُسْتَطِيعُ أَنْ تَذْكُرَهَا حِينَما تُسْتَيْقِظُ .. مِنْ إِرْهَاقٍ وَشُحُوبٍ .. مِنْ ضَيْقٍ فِي التَّنْفُسِ ، وَإِحْسَاسٍ مُسْتَوِرٌ بِالْبَرُودَةِ .

وَلَمَّا فَحَصَهَا سِيوارْدُ لَمْ يَجِدْ سَبَبًا لِهَذِهِ الْأَعْرَاضِ ، فِيمَا عَذَا عَضَّتِي حَشَرَةٍ فِي عُنُقِهَا تَبْدُوَانِ كَرِيهَتِي الْمُنْتَظَرِ ، كَمَا أَنَّ ضَعْفَ الدَّمِ كَانَ مُنْخَفِضًا .

وَسَأَلَ الطَّبِيبُ نَفْسَهُ : « أَتُكُونُ قَدْ فَقَدْتَ كَمِّيَّةً مِنَ الدَّمِ ؟ »

إِنَّهُ أَمَرَ بَعِيدَ الْأَحْتِمَالِ . كُلُّ مَا يُمَكِّنُ عَمَلَهُ هُوَ أَنْ يَأْخُذَ بَعْضًا مِنْ دَمِهَا وَيُرْسِلَهُ إِلَى لَنْدَنَ لِفَحْصِهِ . وَجَاءَ التَّغْيِيرُ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ مُتَضَمِّنًا أَنَّهُ لَيْسَ فِي دَمِهَا شَيْءٌ غَيْرٌ طَبِيعِيٍّ . وَتَعَجَّبَ سِيوارْدُ : أَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ السَّبَبُ نَفْسِيًّا ؟ أَيُمْكِنُ أَنْ تَمْرَضَ بِسَبَبِ أَنَّهَا تَتَوَهَّمُ أَنَّهَا مَرِيضَةٌ ؟

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ يَشْكُكُ فِي هَذَا الْأَحْتِمَالِ . كَانَ يَقْتَعِدُ أَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا غَيْرَ عَادِيٍّ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، وَلَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ يَسْتَطِيعُ مُعَالَجَةَ أَحَالَاتٍ غَيْرِ الْعَادِيَةِ . إِنَّهُ أَسْتَاذُهُ الْقَدِيمُ وَصَدِيقُهُ فَنان هِيلْسِينْغِ فِي أَمِسْتَرْدَامِ . عَلَى أَيِّ حَالٍ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ يَبْدُو خَطِيرًا ، وَمِنْ أَجْلِ لُوسِي لَا بُدَّ أَنْ يَبْذُلَ كُلَّ مُحَاوَلَةٍ مُمَكِّنَةٍ . نَعَمْ سَوْفَ يَسْتَدْعِي فَنان هِيلْسِينْغِ .

الفصل العاشر

وَصَلَ البروفيسور أبراهام فان هيلسينغ إلى هيلينغدون بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَأَقَامَ فِيهَا فِتْرَةً كَافِيَةً لِفَحْصِ لُوسِي الَّتِي كَانَ يَرَاهَا بِمُفْرَدِهَا ، ثُمَّ عَادَ بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً إِلَى أَمِسْتَرْدَام . وَلَمْ يَقُلِ البروفيسور كَثِيرًا بَعْدَ فَحْصِهَا ، وَلَكِنْ سِيوَارْدُ أَحَسُّ أَنَّهَا لَمْ يُضَيِّعْ وَقْتُ الرَّجُلِ الْكَعْظِيمِ هَبَاءً ، فَقَدْ أَثَارَتْ أَلْحَالَهُ أَهْتِمَامَهُ ، وَطَلَّبَ أَنْ يُوَفَّى بِتَقَارِيرِ يَوْمِيَّةٍ عَنْ حَالَةِ لُوسِي . وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي بَدَأَ أَنْ لُوسِي فِي تَحْسُنٍ . لَقَدْ كَانَ فَنَانُ هِيلْسِينْغِ رَقِيقًا مَعَهَا ، وَقَدْ وَضَعَتْ فِيهِ يَفْتَنَهَا . وَالْوَاقِعُ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ مُحِبًّا إِلَى الشَّابَّاتِ الصَّغِيرَاتِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٍ اسْتَطَاعَ الدُّكْتُورُ سِيوَارْدُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِتَقْرِيرٍ يَتَضَمَّنُ مَزِيدًا مِنَ التَّحْسُنِ فِي حَالَتِهَا ، كَمَا لَوْ كَانَتْ السَّحَابَةُ الْقَاتِمَةُ الْمُخَيِّمَةُ عَلَيْهَا قَدْ بَدَأَتْ تَنْقَشِيعُ وَتَزُولُ .

وَلَكِنْ إِذَا كَانَتْ لُوسِي قَدْ بَدَأَتْ تَتَحَسَّنُ ، فَإِنَّ يَنْفَعِلِدَ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ، فَمُنْذُ حَادِثِ هُرُوبِهِ الْخَفِضَتْ مَعْنَوِيَّاتُهُ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ ، فَقَدْ كَانَ يَتَزَوَّى فِي رُكْنٍ كَيْتَمَالٍ بِلَا حَيَاةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَحَدَّثُ إِلَّا قَلِيلًا . وَلَقَدْ حَاوَلَ الدُّكْتُورُ سِيوَارْدُ أَنْ يُخَفِّزَهُ أُخْيَانًا لَكِنِ يَنْكَلِمُ ، وَلَكِنْ كَانَ كُلُّ مَا يَقُولُهُ هُوَ : « لَقَدْ تَرَكْنِي ! لَيْسَ هُنَاكَ أَمَلٌ لِي ! لَقَدْ تَرَكْنِي . »

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي لِإِبَارَةِ هِيلْسِينْغِ عَادَ الْكَرْمَزُ لُوسِي وَاشْتَدَّ بِهَا حَتَّى إِنَّ سِيوَارْدَ بَعَثَ بِرَقِيقَةٍ إِلَيْهِ يَطْلُبُ فِيهَا أَنْ يَأْتِيَ عَلَى الْفُورِ . وَاسْتَجَابَ البروفيسور وَوَصَلَ فِي الْمَسَاءِ التَّالِي حَيْثُ قَادَهُ سِيوَارْدُ إِلَى خُجْرَةِ لُوسِي بِالطَّابِقِ الْغُلُوبِيِّ . وَكَانَتْ تَبْدُو فِي حَالَةٍ سَيِّئَةٍ لَمْ تُعْهَدْ مِنْ قَبْلُ . كَانَتْ شَدِيدَةَ الشُّحُوبِ ، حَتَّى إِنَّ شَفَتَيْهَا وَخَلْقَهَا لَمْ يَعُدْ لَهَا نَوْنٌ . كَانَتْ تَنْتَفِسُ بِطَرِيقَةٍ ثَمِيرِ الْأَسَى وَالْأَلَمِ فَيَمْنُ يَرَاهَا أَوْ يَسْمَعُهَا ، بَلْ إِنَّهَا بَدَتْ وَكَأَنَّهَا تَكَادُ تَفْقِدُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْكَلَامِ . وَقَدْ فَحَصَهَا فَنَانُ هِيلْسِينْغِ وَهُوَ صَابِتٌ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْخُجْرَةِ يَتَّبِعُهُ سِيوَارْدُ . وَكَانَ يُوشِكُ أَنْ يَبْدَأَ حَدِيثَهُ جِئِمَا طَرَّقَ أَسْمَاعُهُمَا صَوْتُ مُضْطَرَبٍ . وَإِذَا بَارْتَرُ هُرمُوودُ يَصْعَدُ السَّلَمَ وَثَبًا ، وَبَادَرَ يَقُولُ : « لَقَدْ عَجِلْتُ بِالْحَضُورِ قَدَرُ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَنْبَغُ عِلْمِي أَنَّهَا أَسْوَأُ حَالًا ! »

فَأَجَابَ ثَان هِيلسينغ : « إِنَّهَا تُوَجِّهُ أُعْظَمَ خَطَرٍ إِلَيْهَا الشَّابُّ . »
فَصَاحَ آرتَر : « خَطَرٌ ؟ وَلَكِنْ مَاذَا يُؤْسِعُنَا أَنْ نَفْعَلَهُ ؟ إِنِّي عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِتَقْدِيمِ آخِرِ
قَطْرَةٍ مِنْ دَمِي لِإِنْعَادِهَا . »

أَقْبَلَ الْبُروفيسور : « إِلَيْهَا السَّيِّدُ الْكَزْبِيُّ ، أَنَا لَا أَسْأَلُكَ أَنْ تُقَدِّمَ مِثْلَ هَذَا الْقَدْرِ . لَيْسَ
آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِكَ ، وَلَكِنْ يُنْ أَنْ الدَّمُ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَعَلًا . إِنْ مَا فِي
جَسَدِهَا مِنْ دَمٍ لَا يَكَادُ يَكْفِي لِكَيْ يَظَلَّ قَلْبُهَا نَابِضًا . إِنْ دَمَ شَابٍّ مُعَافَى مِثْلِكَ هُوَ الَّذِي
نَحْتَاجُ إِلَيْهِ . أَرْجُوكَ يَا سَيِّدُ هُولْمُودُ — وَأَطْنِ أَلَاكَ السَّيِّدُ هُولْمُودُ — أَنْ تَخْلَعْ سِتْرَتَكَ
فُورًا . لَا بُدَّ أَنْ تُقَوِّمَ مُبَاشَرَةً بِعَمَلِيَّةِ تَقْيِيلِ دَمٍ بِادُكْتُورِ سِيَوَارْدِ . »

خَلَعَ آرتَرُ سِتْرَتَهُ دُونَ أَنْ يَفُوهَ بِكَلِمَةٍ ، وَبَدَأَ يَلْبِسُ كُمَ قَمِيصِيهِ ، وَكَانَتْ لُوسِي
الْمِسْكِينَةُ قَدْ بَلَغَ مِنْهَا الْكَرْضُ حَدًّا لَمْ تُعُدْ تُشْعُرُ مَعَهُ بِالْفَتْحَةِ الَّتِي أَخَذَهَا الطَّبِيبَانِ فِي
ذِرَاعِهَا لِتَقْيِيلِ الدَّمِ إِلَيْهَا . وَلَكِنْ بَعْدَ مُضِيِّ عَشْرِ دَقَائِقٍ بَدَأَ الدَّمُ يَتَدَفَّقُ مِنْ ذِرَاعِ آرتَرِ إِلَيْهَا
فَيَمِيدُ اللُّوْنُ إِلَى وَجْهِهَا الشَّاحِبِ ، وَبَدَأَ تَنْفَسُهَا يَنْتَظِمُ ، وَقَالَ الْبُروفيسور : « وَالْآنَ ،
سَتَرْتُكَ الْآنِسَةَ لُوسِي لِتَنَامَ ، وَسَوْفَ أَعُودُ غَدًا لِأَرَاهَا . وَلَكِنْ أَمَانًا شَيْئًا آخَرَ لَا بُدَّ أَنْ
نَفْعَلَهُ قَبْلَ أَنْ نَتَصَرَّفَ . »

وَنَزَلَ الْبُروفيسور إِلَى الطَّابَقِ السُّفْلِيِّ ثُمَّ عَادَ وَمَعَهُ صُنْدُوقٌ ، فَوَضَعَهُ فَوْقَ سَرِيرِ لُوسِي
وَقَالَ لَهَا مُبْتَسِمًا : « هِيَ أَفْتَحِيهِ . »

فَتَحَّتْ لُوسِي الصُّنْدُوقَ ، وَقَالَتْ وَهِيَ تُمُدُّ يَدَهَا لِتُخْرِجَ مِنْهُ بَعْضَ الْأَزْهَارِ الصَّغِيرَةِ
الْأَيْضَاءِ : « أَلْهِدِي لِي ؟ أَوْ بِادُكْتُورِ ثَان هِيلسينغ ! يَالَكَ مِنْ عَطُوفٍ ! »
فَرَدَّ الطَّبِيبُ : « نَعَمْ يَا عَزِيزَتِي ، إِنَّهَا لَكَ . وَلَكِنَّهَا مِنْ أَجْلِ مَرَضِكَ وَلَيْسَتْ مِنْ أَجْلِ
الاسْتِمْتَاعِ بِهَا . شُجْبًا . »

فَرَفَعَتْ لُوسِي الْأَزْهَارَ إِلَى أَنْفِهَا ، وَلَمْ تَكُذِّ تَشْمُهَا حَتَّى صَاحَتْ : « أَفْ ! إِنَّهَا
أَزْهَارُ الثُّومِ . إِنَّهَا مِنَ الثُّومِ الْغَادِي . أَيْهَا دُعَابَةُ يَا بُروفيسور ؟ »



وَأُخْذَتْ سِيَّوَارْدُ الدَّهْشَةِ حِينَ رَأَى أَنَّ فَنانَ هِيلْسِينْغَ لَمْ يَضَحَكَ ، بَلْ عَلَى الْكَفْسِ بَدَأَ وَجْهَهُ جَادًّا رَزِينًا بِصُورَةِ لَمْ يَعْهَدْهَا مِنْ قَبْلُ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى يَدِ لُوسِي وَقَالَ : « إِنَّهَا لَيْسَتْ دُعَابَةً . هُنَاكَ سَبَبٌ وَرَاءَ كُلِّ مَا أَفْعَلُهُ ، وَأَنَا أَحْذَرُكَ : لَا تُعْصِي لِي أَمْرًا أَطْلُبُهُ مِنْكَ وَإِلَّا فَأَنْتَ لَنْ تَسُوِّفَ تُعْرِضِينَ نَفْسَكَ لِخَطَرِ الْمَوْتِ . نَعَمْ ! بَلْ لِمَا هُوَ أَسْوَأُ . »

وَلَمَّا لَاحَظَ أَنَّهُ قَدْ أَفْرَعَهَا بِكَلَامِهِ اسْتَمَرَّ يَقُولُ بِصَوْتٍ أَرْقَى : « لَا تُخَافِي ! إِنَّمَا أَحَاوِلُ أَنْ أُسَاعِدَكَ . إِنَّ لِهَذِهِ الْأَزْهَارِ الْعَادِيَةِ قُوَّةَ كَثِيرَى . » وَكَانَ الَّذِي فَعَلَهُ الْبَرْوِيسُورُ بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُوجَدُ فِي أَيِّ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ الطَّبِّ الَّتِي قَرَأَهَا سِيَّوَارْدُ . فَقَدْ بَدَأَ بِإِعْلَاقِ جَمِيعِ الثَّوَائِدِ ثُمَّ أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ حُفْنَةً مِنَ الْأَزْهَارِ وَمَسَحَ بِهَا الثَّوَائِدَ وَالْبَابَ وَالْمِجْدَفَةَ مَسْحًا شَامِلًا .

قَالَ سِيَّوَارْدُ : « وَالْآنَ يَا بَرْوِيسُورُ ، أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا لِسَبَبٍ مُعَيَّنٍ ، وَلَعَلَّ مِنْ ذَوَاعِي سُرُورِي أَنَّهُ لَيْسَ مَعَنَا الْآنَ طَبِيبٌ آخَرٌ يَرَى مَا تَفْعَلُهُ . وَلَوْ أَنَّ مَعَنَا طَبِيبًا آخَرَ لَقَالَ إِنَّكَ أَتَقَرَّرْتُ مِهْنَةَ الطَّبِّ وَأَصْبَحْتَ سَاحِرًا . إِنَّكَ تَبْدُو كَمَا لَوْ كُنْتَ تُحَاوِلُ أَنْ تَطْرُدَ رُوحًا شَرِيرَةً . »

فَاجَابَ فَنانَ هِيلْسِينْغَ فِي هَذِهِ : « لَعَلِّي أَفْعَلُ ذَلِكَ . »

قَالَ ذَلِكَ وَهُوَ يُشَكِّلُ مِنْ بَيِّنَةِ الْأَزْهَارِ عِقْدًا ، ثُمَّ طَوَّقَ بِهِ عُنُقَ لُوسِي قَائِلًا : « مَهْمَا يَكُنْ مَا تَفْعَلْنَاهُ اللَّيْلَةَ فَلَا تَفْتَحِي الثَّوَائِدَ أَوْ أَلْبَابَ وَلَا تَتْرَعِي عِقْدَ الْأَزْهَارِ مِنْ حَوْلِ عُنُقِكَ . إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ ! »

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي وَصَلَ فَنانَ هِيلْسِينْغَ إِلَى الْمُسْتَشْفَى فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ لِكَيْ يَضْحَكَ دُكْتُورُ سِيَّوَارْدَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَيَسْتَبْرَأَ ، حَيْثُ اسْتَقْبَلَتْهُمَا السَّيِّدَةُ وَسَيِّئَرَا . قَالَتِ السَّيِّدَةُ : « أَمَلْتُ أَنْ تَجِدَ لُوسِي أَحْسَنَ حَالًا . لَقَدْ تَطَلَّعْتُ الْآنَ إِلَى حُجَرَتِهَا فَوَجَدْتُ أَنَّهَا نَائِمَةٌ تَوْنًا هَادِئًا ، وَلِذَلِكَ لَمْ أَشَأْ أَنْ أَوْقِظَهَا . »

فَقَالَ الْبَرْوِيسُورُ وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِ السَّرُورُ : « إِذَا فَعَلَجِي بِسِيرِ سَيِّرَا مُرَضِيًّا . »

فَرَدَّتِ السَّيِّدَةُ وَسِتْرًا وَهِيَ تَبْتَسِمُ : « نَعْلَهُ عِلَاجِي أَنَا . لَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَى حُجْرَتِهَا فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ لِلنَّوْمِ فَوَجَدْتُهَا نَامًا فِي هُدُوءٍ . وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ هَوَاءٌ نَقِيٌّ فِي الْحُجْرَةِ ، وَكَانَتْ تَنْتَشِيرُ فِيهَا رَائِحَةً نَفَاضَةً مُنْبِئَةً مِنْ بَعْضِ أَزْهَارٍ حَوْلَ عُنُقِهَا ، فَفَكَّرْتُ أَنْ ذَلِكَ سَوْفَ يَضُرُّ بِالطِّفْلِ الْمَسْكِينَةِ وَهِيَ فِي هَذِهِ الْحَالِ مِنَ الضَّعْفِ ، لِذَلِكَ اسْتَبَعَدْتُ الْأَزْهَارَ وَفَتَحْتُ التَّافِذَةَ قَلِيلًا . أَعْتَظِدُ أَنَّكَ سَوْفَ تُسَرُّ جِدْنَ تَرَاهَا . أَنَا وَاثِقَةٌ . »

وَمَا إِنْ سَمِعَ قَان هِيلْسِينْغَ قَوْلَهَا حَتَّى اكْتَسَى وَجْهُهُ بِشُحُوبٍ كَشُحُوبِ الْمَوْتَى ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، وَلَكِنْ سِيَّوَرْدَ لَا حَظَّ أَنْ الرَّجُلُ يُحَاطِلُ أَنْ يُخْفِيَ مَشَاعِرَهُ . كَانَ الْبُروفيسور عَلَى عِلْمٍ بِأَحَالِ الصَّحْبَةِ لِلْسَّيِّدَةِ وَسِتْرًا ، وَيَعْلَمُ الْخَطَرَ الَّذِي يَتَهَدَّدُهَا إِذَا فُوجِعَتْ بِمَا يَصْنَعُهَا . وَلَكِنْ مَا إِنْ غَادَرَتِ الْحُجْرَةَ حَتَّى صَعِدَا السَّلَمَ وَبُيَا إِلَى حُجْرَةِ لُوسِي . وَبَيْنَمَا كَانَ دُكْتُورُ سِيَّوَرْدَ يُزِيحُ السَّائِرَ كَانَ قَان هِيلْسِينْغَ يَنْتَحِي فَوْقَ لُوسِي الَّتِي كَانَتْ لَا تَزَالُ نَائِمَةً . قَالَ الْبُروفيسور وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا الشَّاجِبِ :

« هَذَا مَا كُنْتُ أَحْشَاهُ . وَلَكِنَّهَا ، عَلَى الْأَقْلَ ، لَمْ تَفْقِدِ الْكَثِيرَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ . جَاكِ ، إِنِّي مُضْطَرٌّ إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَى أَمِستَرْدَامَ الْيَوْمِ . وَعَلَيْكَ أَنْ تَنَامِ فِي هَذَا الْمَنَزِلِ كُلِّ لَيْلَةٍ ، وَسَوْفَ أَهْبِثُ بِصَنَائِدِي مِنْ أَزْهَارِ الثُّومِ الطَّازِجَةِ كُلِّ يَوْمٍ ، فَأَفْعَلُ كَمَا فَعَلْتُ أَنَا فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ تَمَامًا . سَوْفَ أَعُودُ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ إِذَا دَعَيْتِ الْحَالَ ، فَقُمْ عَلَى جِرَاسَتِهَا بِعَيْنَايَةِ . »

فَسَأَلَ سِيَّوَرْدَ : « عَلَى جِرَاسَتِهَا ؟ أَحْرُسُهَا مِنْ مَادَا ؟ أَوْ مِنْ ؟ »

قَالَ ذَلِكَ وَهُوَ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَعَدَمِ الْأَمْنِ ، فَقَالَ الْبُروفيسور : « الْأَخْسَنُ بِجَاكِ أَنْ تَقُولِ مِنْ . لَقَدْ كُنْتُ دَائِمًا طَالِبًا حَاضِرِ الْبَدِيَةِ وَلَكِنْ أَمَامَكَ الْكَثِيرُ مِمَّا تَتَعَلَّمُهُ . »

قَالَ هَذَا ثُمَّ ذَهَبَ .

الفصل الحادي عشر

كانت الأيام القليلة التالية قاسية بالنسبة للدكتور جاك سيوارد . كان يقضي وقته بين المستشفى نهاراً وهييلندون ليلاً ، ولقد كان من الممكن أن تكون المهمة أيسر لو أنه كان يعلم مِمَّ يحرس لوسي ، ولكنَّ فان هيلسينغ لم يذكر له ما يوضح الأمر .

وفي صبيحة كلِّ يوم كان صندوق من زهور الثوم الطازجة يصل من هولنده في برید خاص ، وكان سيوارد يفعلُ بها مثلاً ما فعل البروفيسور في أول ليلة تماماً . ولم يكن مبالاً إلى هذه العملية ، إذ كانت تبدو غير قائمة على أساس علمي . وكان الدكتور سيوارد من الأطباء الذين يلتزمون بالعلم ، ولكنَّ الظواهر كانت تدلُّ على أنَّ العملية مُجديَّة ، فقد أخذ وجه لوسي يستردُّ لونه الطبيعي يوماً بعد يوم ، بل إنَّ الجرحين الصغيرين اللذين في عنقها أخذتا يلتئمان . ولكنَّ الليالي كانت مرهقة له ، فقد استيقظ عدة مرات على أصوات غريبة كان يبدو أنها آتية من خارج نافذة لوسي ، وفي أول الأمر كان يظنُّ أنه عُصن شجرة يختلج بالنافذة بسبب الريح ، ولكنَّه في الليلة التالية تأكَّد أنه لا توجد شجرة ، وكان الصوت يبدو في بعض الليالي أشبه برفرة أجنحة .

وكذلك كان ينفيلد سبباً في بعض المتاعب ، ففي أخذ الأيام جاء في تقرير دكتور هينسي مساعد الدكتور سيوارد أن ينفيلد قد هاجم رجلين على حين غفلة . كان يسير في الحديقة مع الممرض المكلف برعايته حينما سمح هذين الرجلين يسوقان عربة في الطريق القادم من كافاكس فالتفت عليهما ، وتدخل الممرض بسرعة وجذب ينفيلد بعيداً عن الرجلين . ورأى الدكتور هينسي أنه قد يكون من الحكمة أن يمنح الرجلين بعض الثمود ، وأنَّ يحتفظ بأستنيهما من قِبل الاحتياط فيما لو حدثت فيما بعد أية مشككة . وفي وقت مبكر من إحدى الليالي كان سيوارد يجلس في مكتبه يلقي نظرة على صحيفة المساء قبل أن يذهب إلى هييلندون كعادته . كان يقرأ في الصحيفة قصة ذئب كان قد هرب ثوراً من حديقة الحيوان يَلْتَدن ، وكان الثعاس يكاد يثلبه بسبب الإرهاق الذي حلَّ به من كتابة التقارير ، ولذلك بدا كأنما يرى في المنام الذئب يقتحم الحجرة . ونجاة

فَتَحَ الْبَابَ ، وَحَدَّثَ اقْتِحَامَ فِعْلًا — فِي الْحَقِيقَةِ لَا فِي السَّمَاءِ — لَمْ يَكُنِ الْمُفْتَحِمُ ذُنْبًا ،
وَلَيْسَ كَانَ يَنْفِيلِدَ وَهُوَ يَتَدَوَّى فِي ضَرَاوَةِ الذَّنْبِ ، وَلِي يَدِهِ شَيْءٌ يَلْمَعُ . وَصَاحَ سِيوَارْدُ : « آه
يَا إِلَهِي ! »

لَقَدْ كَانَ يَنْفِيلِدَ يُمَسِّكُ فِي يَدِهِ بِسِكِّينٍ مَطْبُوحٍ . وَحَاوَلَ سِيوَارْدُ أَنْ يَجْعَلَ الْخِنْضَةَ
حَايِلًا بَيْنَهُمَا ، وَلَكِنْ يَنْفِيلِدَ كَانَ أَسْرَعَ فَوَجَّهَ ضَرْبَةً إِلَى ذِرَاعِهِ الْيُسْرَى ، فَبَادَرَ سِيوَارْدُ
وَالْتَقَطَ بِمِئْنَاهُ الْحَجَرَ الثَّقِيلَ ، الَّذِي يُثَبِّتُ بِهِ الْأَوْرَاقَ ، مِنْ فَوْقِ الْمَكْتَبِ وَبَادَرَهُ بِضَرْبَةٍ بِهِ
طَرَحَتْهُ أَرْضًا ، فَتَمَدَّدَ الرَّجُلُ وَوَجَّهَهُ إِلَى الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ طَارَ السِّكِّينُ مِنْ يَدِهِ ، وَهَكَذَا
ذَهَبَتْ لَحْظَةُ الْحَظَرِ . وَبَيْنَمَا كَانَ سِيوَارْدُ وَاقِفًا فِي دُحُولٍ مِمَّا حَدَثَ ، قَابِضًا ذِرَاعَهُ
الْمَجْرُوحَةَ ، سَمِعَ وَقَعَ أَقْدَامِ رِجَالِهِ وَهُمْ يَجْرُونَ فِي الدَّهْلِيزِ . كَانَ يَشْعُرُ بِالْأَلَمِ ، وَالْذَّمَاءِ
تَنْزِفٍ مِنْ جُرْحِهِ عَلَى الْأَرْضِ حَيْثُ يَرْقُدُ يَنْفِيلِدُ .

وَحِينَمَا دَخَلَ الْحَرَّاسُ الْحُجْرَةَ رَفَعَ يَنْفِيلِدَ رَأْسَهُ فَكَشَفَ فَمَهُ الْمُلْطَّحَ بِالدَّمِ ، إِذْ كَانَ
يَشْتَرِبُ — وَهُوَ مُلْقًى عَلَى الْأَرْضِ — مِنْ دِمَاءِ الطَّيِّبِ الَّتِي كَانَتْ تَقَطُرُ فَوْقَ أَرْضِيَّةِ
الْحُجْرَةِ . وَبَيْنَمَا كَانُوا يَقْدُونَهُ بَعِيدًا كَانَ يَصْرُخُ قَائِلًا : « الدَّمُ هُوَ الْحَيَاةُ . »

وَعُشِيَ سِيوَارْدُ إِحْسَاسًا بِالْعَنْيَانِ ، وَامْتَدَّتْ الْأَيْدِي إِلَيْهِ لِتَحْوِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّقُوطِ ، ثُمَّ
غَابَ عَنِ الْوَعْيِ فَلَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا .

حِينَمَا ثَبَّتَهُ سِيوَارْدُ كَانَ يَجْلِسُ فِي سَرِيرِهِ وَهُوَ يَشْعُرُ بِالضَّعْفِ وَالْوَهْنِ . وَلَعَلَّهُ فَقَدْ مِنْ
الدَّمَاءِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَعْتَقِدُ ، وَلَمَّا نَظَرَ فِي سَاعَتِهِ وَجَدَ أَنَّهَا الْعَاشِيرَةُ ، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي
كَانَ يُتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ فِي هِيلِينْغْدُونِ ، وَلَكِنْ هَلْ عَافِيَتُهُ تَسْمَحُ لَهُ بِالذَّهَابِ ؟ وَدَخَلَ
الدُّكْتُورُ هِينْسِي الْحُجْرَةَ وَقَالَ :

« هِيلِينْغْدُونُ ؟ مُسْتَحِيلٌ يَا عَزِيزِي سِيوَارْدُ . إِنَّهُ وَاجِبِي الَّذِي لَا مِرَاءَ فِيهِ — كَطَائِبٍ —
أَنْ أُخْبِرَكَ بِضَرُورَةِ الْبَقَاءِ فِي الْفِرَاشِ . »

وَأَخِيرًا أَتَقَبَّلُ أَنْ يَذْهَبَ الدُّكْتُورُ هِينْسِي بِنَفْسِهِ إِلَى هِيلِينْغْدُونِ ، قَبْلَ أَنْ يَنَامَ ، لِيَزُورَ
مَنْزِلَ وَسَيْتِنَا .

كان لابد أن يقضي شخص ما الليل هناك . ولكن سيوارد لم يكن يريد أن يعرف هينسي الكثير عن حالة لوسي ، إذ إن البروفيسور كان قد أعطى تعليماته حين قال : « الذي حدث في هيلينغدون يجب أن يبقى سرًا لا يُداع . » وتوق هذا ، فإن سيوارد لم يشأ أن يعرف الأطباء الآخرون شيئًا عن هذا « السحر » الذي يمارس عن طريق « زهور الثيم » . ولذلك ، ورغبة في التستر طلب الدكتور هينسي أن يحبر لوسي بأن تقوم بعمل الإجراءات المعمودة ، على أمل أن تفهم هي ما يريد .

لم يتم سيوارد في هذه الليلة نومًا مريحًا يذراعه المجرحة ، وحينما أدرسته النعاس أبحرًا لم يهنا بالراحة إلا قليلًا ، إذ إن بريقة وصلت في ساعة مبكرة . وقال الصبي الذي حملها إن البريقة كان ينبغي أن تسلم في مساء اليوم السابق لولا أنها أرسلت خطأ إلى قرية أخرى لتحمل نفس الاسم . وجاء في البريقة : « إحرص على وجودك في هيلينغدون الليلة . إن الأمر في غاية الأهمية . سوف أصل مبكرًا في صباح التاسع عشر . »

فان هيلسينغ

وصاح سيوارد : « يا للسماء ! إنه يقصد الليلة الماضية . ترى ماذا كان فان هيلسينغ يعني ؟ » ولم ينتظر لتناول الإفطار ، وإنما استقل العربة مباشرة إلى هيلينغدون . وكان الوقت لا يزال مبكرًا ، ولم يشأ أن يوقظ لوسي أو والدتها ، ولذلك دق الجرس برفق لعل إحدى الخاديمات تسمع فتفتح له الباب ، ولكن لم تكن هناك استجابة ، فدق الجرس مرة ثانية دون جدوى . قدس أذنه في صندوق الخطاب لعله يسمع أو يرى شيئًا ، ولكن كل شيء كان في صمت القبور . فأحس في قرارة نفسه أن أمرًا سيئًا قد حدث ، وأخذ يهرول حول المنزل لعله يجد نافذة مفتوحة . ولكن تعليمات فان هيلسينغ كانت تفتد بدقة ، وكل المنافذ كانت موصدة بعناية وإحكام . وما زال حتى وصل إلى حجرة السيدة وسنرا التي اختيرت لتكون في الطابق الأرضي لكي تتجنب صعيد السلم لمرضاها . وتوجى بأن نافذة الحجرة مخطمة ، وأن فوق رجاها بعض قطرات من

الدم ، وَأَنَّ هُنَاكَ آثَارَ أَقْدَامِ حَيَوَانٍ فِي حَوْضِ الزُّهُورِ الَّذِي يَغُفُّ تَحْتَ التَّافِذَةِ ، وَمِنْ
الْمُحْتَمَلِ أَنْ تُكُونَ آثَارُ أَقْدَامِ كُلِّبٍ ، أَوْ لَعَلَّهَا — وَإِنْ بَدَتْ الْفِكْرَةُ سَخِيفَةً — آثَارُ أَقْدَامِ
ذِفِّبٍ .

وَأَخَذَ سِيوَارْدُ يَتَطَلَّعُ فِيمَا حَوْلَهُ . وَكَانَ الْهَدْوُ يَسُودُ الْمَنْزِلَ وَالْحَدِيقَةَ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ
عَادِيَةٍ . وَالْحَتَّى لِكُنِّي يَتَأَمَّلُ فِي آثَارِ الْأَقْدَامِ بِعَيْنَايَةٍ أَكْثَرَ ، وَإِذَا بِهِ يَسْمَعُ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ
صَوْتًا يَجِيءُ مِنْ خَلْفِهِ ، فَهَبَّ وَاقْفًا ، مُتَاهِبًا لِلدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ ، فَلَمْ يَجِدْ أَمَانَهُ إِلَّا قَانِ
هَيْلسِينْغِ ، فَقَصَّ عَلَيْهِ فِي عِبَارَاتٍ مُوجِزَةٍ مَا حَدَّثَ بِشَأْنِ رَيْنْفِيلْدِ وَالْكَزْبِيَّةِ الَّتِي تَلَقَّاهَا .
قَالَ قَانِ هَيْلسِينْغِ وَهُوَ يَضَعُ يَدَهُ خِلَالَ التَّافِذَةِ الْمَحْطَمَةِ : « أَخَشَى أَنْ تُكُونَ قَدْ
وَصَلْنَا بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ . »

ثُمَّ فَتَحَ التَّافِذَةَ ، وَتَسَلَّقَ كِلَاهُمَا وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ إِلَى الدَّخِيلِ . كَانَتْ لُوسِي وَأُمُّهَا
مُمَدِّتَيْنِ فَوْقَ السَّرِيرِ ، وَكَانَتْ تَبْدُو عَلَى وَجْهِ السَّيِّدَةِ وَسَيِّرًا نَظَرَةً رُغْبٍ رَهْبَةٍ لَمْ يَرَ
سِيوَارْدُ مِثْلَهَا قَطُّ ، فَلَمَّا جَسَّ يَدَهَا وَجَدَ أَنَّهَا مَيْتَةٌ . وَكَانَتْ تَقْبِضُ بِيَدِهَا الْأُخْرَى بِقُوَّةٍ
عَلَى عَقْدِ مِنَ الزُّهُورِ . وَلَا بُدَّ أَنَّهَا — فِي لَحْظَةِ فَرَجٍ — اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُصِلَ إِلَى آتِنِيهَا ،
وَأَنَّ تُمَدَّ يَدَهَا فَتَنْتَرِعَ الزُّهُورَ الَّتِي كَانَتْ حَوْلَ عُنُقِهَا .

كَانَتْ لُوسِي تُرْقِدُ بِجَوَارِهَا ، وَكَانَ الْجُرْحَانِ اللَّذَانِ فِي عُنُقِهَا ، وَاللَّذَانِ كَانَا قَدْ بَدَا
يَلْتَحِمَانِ ، مُفْتَوَحَيْنِ عَلَى سَمْعَةٍ ، وَفِيهِمَا مَظْهَرُ الشَّيْءِ الْمَنْهُوشِ . وَأَمْسَكَ قَانِ هَيْلسِينْغِ
يَدَهَا وَوَضَعَ أَذُنَهُ مُلَاصِقَةً لِيَصْدَرِهَا ، وَمَضَتْ الثَّوَانِي كَأَنَّهَا سَاعَاتٌ قَبْلَ أَنْ يَهْتِفَ قَائِلًا :
« لَمْ يَقِفِ الْأَوَانُ بَعْدُ . أَسْرِعْ وَهَاتِ بَعْضَ الْكُحُولِ . »

وَهَرِغَ سِيوَارْدُ إِلَى حُجْرَةِ الطَّعَامِ ، قَرَأَ فِيهَا مَنْظَرًا أَزَالَ الدَّهْشَةَ الَّتِي كَانَتْ تَمْلِكُنَّهُ
جِئْنَ دَقِ الْكَرْسِ دُونَ مُجِيبٍ . رَأَى الْخَادِمَاتِ مُمَدَّدَاتٍ عَلَى الْأَرْضِ ، فَأَلْحَنَ فَوْقَهُنَّ
لِيَشْمَ رَائِحَةَ أَنْفَاسِهِنَّ ، فَكَتَشَفَ أَنَّ مُحَدَّرًا قَدْ وَضِعَ فِي شَرَابِهِنَّ فَجَعَلَهُنَّ يَسْتَقْرِفْنَ فِي
الثَّوْمِ . وَأَخَذَ سِيوَارْدُ رُجَاجَةً وَعَادَ إِلَى حُجْرَةِ الثَّوْمِ حَيْثُ أَخَذَ قَانِ هَيْلسِينْغِ يَدَكَ بِالسَّائِلِ

يَذِي لُوسِي وَذِرَاعَيْهَا وَوَجْهَهَا ، وَحِينَئِذٍ أَخْبَرَهُ سِيوارِدُ بِمَا حَدَّثَ لِلْخَادِمَاتِ ، فَقَالَ لَهُ
فَإِن هِيلْسِينْغَ :

« إِذْهَبْ فَتَبَيَّنْهُنَّ ، فَتَحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَاءٍ سَائِجٍ ، إِذْ لَا بُدَّ أَنْ تَبْقَى لُوسِي دَافِقَةً ، ثُمَّ
اسْتَدْعِ السَّيِّدَ هُوْلْمُودَ قُرْبَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نُنْقِلَهَا . وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا
لِلْأَسْوَأِ . »

وَلَمَّا كَانَتْ لُوسِي فِي حَالَةٍ إغْيَاءٍ شَدِيدٍ فَقَدْ رَأَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَتِهَا أَنْ يُنْقَلَ إِلَيْهَا
دَمًا طَازِجًا ، وَلِذَلِكَ أَتَرَ أَنْ يَتَرَكَّهَا فِي تَوْبِهَا ، وَجَلَسَ سِيوارِدُ يُرَاقِبُهَا . وَكَانَ مِنَ الْكَرِيبِ
أَنْ هُزِلَتْهَا جَعَلَ أَسْنَانُهَا يُبْدُو أَطْوَلَ وَأَحَدُ بِمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلِ . وَلَكِنْ جِئْنَا فَتَحَّتْ عَيْنَيْهَا
أَخِيرًا بِذَلِكَ الْفَنَاءِ الشَّابَّةِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي كَانَ يَعْرِفُهَا وَيُحِبُّهَا .

كَانَ آرْتِرُ شُجَاعًا ، فَقَدْ جَلَسَ مَعَ لُوسِي طَوَالَ الْوَقْتِ وَلَمْ تُكْشِفْ مَلَامِحَ وَجْهِهِ عَمَّا
كَانَ يَفْعَلُ فِي قَلْبِهِ مِنْ حُزْنٍ وَأَسَى . وَدَخَلَ فَإِن هِيلْسِينْغَ بَعْدَ ذَلِكَ وَطَلَبَ مِنْهُ الدُّهَابَ
إِلَى حُجْرَةِ الْمَجْلُوسِ لِیُحَاوِلَ أَنْ يَأْخُذَ قِسْطًا مِنَ الثَّوْمِ ، عَلَى جِوْنِ بَقِي سِيوارِدَ مَعَ لُوسِي .
وَفِي خَوَالِي السَّاعَةِ السَّادِسَةِ صَبَاحًا دَخَلَ فَإِن هِيلْسِينْغَ حَتَّى يُتَبَّحَ لَهُ فُرْصَةٌ لِلرَّاحَةِ ،
ثُمَّ حَلَّ الْمَسْتَدِيلَ الْخَرِيرِي الَّذِي كَانَ قَدْ عَقَدَهُ حَوْلَ عُنُقِهَا وَهَتَفَ : « اُنْظُرْ . »

وَتَطَلَّعَ سِيوارِدُ إِلَيْهَا فَتَمَلَّكَهُ شُعُورٌ غَرِيبٌ بَارِدٌ ، إِذْ رَأَى أَنَّ الْجُرْحَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا حَوْلَ
عُنُقِهَا قَدْ انْتَحَمِيَا نِهَايَةً ، فَقَالَ فَإِن هِيلْسِينْغَ فِي أَسَى : « إِنَّهَا تَمُوتُ الْآنَ . إِنَّهَا لَحْظَاتٌ
وَتُفَارِقُ الْحَيَاةَ . إِذْهَبْ فَأَنْقِظْ صَدِيقَهَا الشَّابَّ حَتَّى يَكُونَ بِجَوَارِهَا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ . »

وَأَخَذَ فَإِن هِيلْسِينْغَ — بِمَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ كِيَاَسَةٍ وَتَقْدِيرٍ — يُسْرِخُ شَعْرَهَا حَتَّى أَصْبَحَ
مُرْسَلًا حَوْلَ رَأْسِهَا فِي مُوجَابَةٍ ذَهَبِيَّةٍ ، وَجِئْنَا جَاءَ آرْتِرُ فَتَحَّتْ عَيْنَيْهَا وَقَالَتْ فِي صَوْتٍ
خَافِيٍّ : « آرْتِرُ يَا حَبِيبِي ! »

فَالْحَنَى آرْتِرُ لِيُغْلِيَهَا ، وَلَكِنْ فَإِن هِيلْسِينْغَ الَّذِي كَانَ يُرَاقِبُهُ عَنْ كَتَبٍ سَارِعَ فَأَوْقَعَهُ
قَائِلًا : « لَا ! لَيْسَ الْآنَ ! أُمْسِكْ يَدَيْهَا فَقَطْ . »

وَأَغْمَضَتْ لُوسِي عَيْنَيْهَا ، وَبَدَأَ عَلَيْهَا التُّعَاسُ ، وَلَا حَظَّ سِيوَارْدَ لِلْحَرَّةِ الثَّانِيَةِ التَّغَيُّرَاتِ
الْقَرِيبَةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ طَرَأَتْ عَلَيْهَا فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ : الْجِلْدُ الْمَشْدُودُ ، وَالْقَمَمُ الْمَفْتُوحُ ،
وَالْأَسْنَانُ الطَّوِيلَةُ الْخَادَّةُ .

ثُمَّ تَكَلَّمَتْ لُوسِي ثَانِيَةً فِي صَوْتٍ نَاعِسٍ رَهِيقٍ : « أَرْثَرُ ، قَبْلَنِي . »

وَعِنْدَمَا الْهَنَى أَرْثَرُ عَلَيْهَا فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا ، وَعِنْدَمَا رَأَى سِيوَارْدَ كَيْفَ أَصْبَحَتْ عَيْنَاهَا
أُصِيبَ بِصَدْمَةٍ فَقَدْ أَصْبَحَتْ جَامِدَتَيْنِ مُتَحَجَّرَتَيْنِ . أَمَّا فَاَن هِيلْسِينْغَ فَقَدْ لَاحَظَ شَيْئًا
جَعَلَهُ يُسَارِعُ إِلَى أَرْثَرِ قَبْلَ أَنْ يُقْبِلَهَا فَيَجْذِبَهُ إِلَى الْوَرَاءِ بِكُلِّ مَا أَوْتَى مِنْ قُوَّةٍ وَهُوَ يَهْتَفُ :
« لَا مِنْ أَجْلِ حَيَاتِكَ ! مِنْ أَجْلِ رُوحِكَ الْحَيَّةِ ! »

كَانَ سِيوَارْدُ يَرْكُزُ عَيْنَيْهِ عَلَى وَجْهِ لُوسِي ، فَشَاهَدَ ظِلًّا مِنَ الْقَضَبِ يَمُرُّ عَبْرَ وَجْهِهَا ،
وَرَأَى أَسْنَانَهَا الْخَادَّةَ تَنْطَبِقُ . وَلَمْ تَمُضْ إِلَّا هُنَيْئَةً حَتَّى عَادَتْ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ : الْفَتَاةُ
الْشَاجِيَةِ الْمَنْهَوَكَةِ الْمُسْرِفَةِ عَلَى الْمَوْتِ . وَحَاوَلَتْ أَنْ تَبْتَسِمَ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ
الْقُوَّةَ لِتَبْتَسِمَ . كَانَ الْأَمْرُ كَمَا لَوْ أَنَّ هُنَاكَ اثْنَتَيْنِ مِنْ لُوسِي تَعِيشَانِ فِي بَدَنِ وَاحِدٍ .

وَقَالَ فَاَن هِيلْسِينْغَ فِي صَوْتٍ رَهِيقٍ لِأَرْثَرِ : « نَعَالَ يَابَنِي ، خُذْ يَدَهَا فِي يَدِكَ وَقَبْلِهَا
الآنَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الشُّفَتَيْنِ وَلَتَكُنْ قُبْلَةً وَاحِدَةً . »

وَفَعَلَ أَرْثَرُ كَمَا قَالَ ، وَمَا لَيْثَ أَجْفَانُ لُوسِي أَنْ أَنْطَبَقَتْ ، وَصَارَ تَنْفُسُهَا ثَقِيلًا ،
حَتَّى تَوَقَّفَتْ أَنْفَاسُهَا آخِرًا .

وَقَالَ سِيوَارْدُ فِي صَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « لَقَدْ اكْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ . »

فَرَدَّ فَاَن هِيلْسِينْغَ : « لَا ! كُنْتُ أَمْنَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ ، وَلَكِنَّهَا —
فَقَطْ — مُجَرَّدُ بَدَايَةٍ . »

الفصل الثاني عشر

لَمْ يَكُنْ لِلْأُوسِيِّ وَأُمِّهَا أَسْرَةٌ تَتَوَلَّى شُؤُونَ الْجِنَازَةِ ، وَقَدْ وَافَقَ مُحَامِيهَا عَنْ طَلِيبٍ خَاطِرٍ عَلَى أَنْ يَمُومَ الذُّكُورَ سِيَوَارِدَ بِهَذِهِ الْكُفَّةِ ، وَحُدِّدَ لَهَا الْيَوْمُ الْقَائِلِي . وَحَتَّى حُلُولِ مِيعَادِ الْجِنَازَةِ كَانَتْ لُوسِي تَرْقُدُ فِي حُجْرَتِهَا بَيْنَ طَاقَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الزُّهُورِ الْبَيْضَاءِ وَشَمُوعِ يَتَضَاءُ طَوِيلَةٍ ، وَقَدْ عَاذَ إِلَيْهَا بَعْدَ مَوْتِهَا كُلِّ مَا كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ جَمَالٍ . بَلْ إِنَّهَا كَانَتْ أَجْمَلَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَذْوِيَ جَسَدُهَا بِالْمَوْتِ ، كَانَ — كُلَّمَا مَضَتْ السَّاعَاتُ — يَبْلُغُوا وَكَأَنَّهُ يَعُودُ إِلَى الْحَيَاةِ .



وفي هذا المساء ، وبيّما كان سيوارد يقف مع فان هيلسينغ أمام الجثة تصل إليهما الرائحة الكريهة التي تنشرها الأزهار والشموع المحترقة ، قال سيوارد : « أنا لا أستطيع أن أصدق أنني أنظر إلى جسد ميت . »

فردّ فان هيلسينغ : « لعلّ من الخير أن نفكر في الأمر هكذا . »

وترك فان هيلسينغ الحجرة ، ثم عاد ومعه صندوق أزهار الثوم الذي وصل ذلك الصباح من هولنده كالعادة ، وقال : « إن واجبتنا نحوها لم ينته بالحبوت . »

وصل آرثر مبكراً في صباح يوم الجنازة ، وكانت روحه المعنوية في غاية السوء ، وكان في أشد الحاجة لكل عون يمكن أن يقدمه أصدقائه . دخل معهم لكي يرى لوسي ، وأخذته الدهشة للمرة الثانية من مظهرها . فلقد بدا جمالها رائعاً ، حتى ليمكن القول إنه كان رائعاً بطريقة تثير الخوف .

وفي هذا الصباح وصلت رسالة معنونة باسم لوسي ، وعرف آرثر أنها بخط مينا ففتحها وقرأها عليهما . والواقع أنها لم تتضمن الكثير ، فيما عدا أن مينا تزوجت في بودابست ، وأنها عادت هي وجوناثان إلى إنكستر .

ولكن فان هيلسينغ أبدى اهتماماً وقال : « لا بد أن أقابلها ، وسوف أطلب منها الحضور إلى لندن ، فلعلها تستطيع أن تخبرني بأشياء أريد معرفتها . »

أما من حيث جنازة لوسي وأُمها فليس هناك الكثير الذي يقال ، فبعد أن دُفنتا في مقبرة أسرة وسترا عاد آرثر إلى لندن لرعاية والده ، وعاد الدكتور سيوارد إلى المستشفى . أما فان هيلسينغ فقد كان من الغريب أنه — بالرغم من كثرة مشاغله — لم يكن راغباً في العودة إلى أمستردام .

وسأل سيوارد عما إذا كان من الممكن أن يقيم معه فترة ، وقال إنه يأمل أن يدبر لقاء مع مينا . ولكن سيوارد أحس أن هذا لم يكن السبب الوحيد في رغبته في الإقامة ، وتساءل في نفسه : « أترأه يرغب في الانتظار لأنه يتوقع حدوث شيء ؟ »

وَفَعْلًا حَدَثَ شَيْءٌ بَعْدَ أُسْبُوحٍ مِنَ الْجِنَازَةِ . شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ يَمَسُّ حَيَاتَهُمْ مِنْ أَيْهِ نَاحِيَةٍ ، وَلَئِنَّا هَذَا ذَا أَهْمِيَّةٍ لِفَان هِيلْسِينْغ .

كَانَا يَجْلِسَانِ فِي مَكْتَبِ الدُّكْتُور سِيوَارْدِ ذَاتَ مَسَاءٍ يَتَنَاوَلَانِ الشَّايَ فِي هُدُوءٍ كَالْعَادَةِ ، وَكَانَ الطَّبِيبُ يَقْرَأُ صَحِيفَةً لَلدُّنِ الْمَسَائِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُحِبُّ الْأَطْلَاعَ عَلَيْهَا فِي هَذَا الْوَقْتِ كُلِّ لَيْلَةٍ ، وَسَأَلَ سِيوَارْدُ :

« هَلْ قَرَأْتَ عَنْ حَوَادِثِ الْأَعْتِدَاءِ عَلَى الْأَطْفَالِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي لَنْدُنِ يَابُرُوْفِيْسُور ؟ يَبْدُو أَنَّ عَدَدًا مِنَ الْأَطْفَالِ فِي شِمَالِ لَنْدُنِ قَدْ اخْتَفَوْا وَهُمْ يُلْعَبُونَ ، وَكَانَ يُعْتَرَّ عَلَيْهِمْ بَعْدَ بَضْعِ سَاعَاتٍ ، وَفِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ غَالِبًا ، وَهُمْ فِي حَالَةٍ مِنَ الشُّحُوبِ وَالْإِعْيَاءِ يُرْمَى لَهَا ، وَفِي أَغْنَائِهِمْ جُرُوحٌ . »

وَكَرَّرَ سِيوَارْدُ الْعِبَارَةَ الْأُخْرَى « وَفِي أَغْنَائِهِمْ جُرُوحٌ » ثُمَّ سَأَلَ : « أَلَيْسَ هَذَا مُثِيرًا ؟ » وَوَصَلَ كَلَامَهُ : « وَكَانَ كُلُّ مِنَ الْأَطْفَالِ يَقُولُ — بَعْدَ أَنْ يُفَيَّقَ — إِنَّهُ قَابِلُ سَيِّدَةٍ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ تَأْخُذُهُ لِيَتَمَشَّى مَعَهَا ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَيُّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَذَكَّرَ مَا حَدَّثَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ . »

وَتَنَاوَلَ فَاْن هِيلْسِينْغِ الصَّحِيفَةَ وَقَرَأَ الْقِصَّةَ كَامِلَةً بِعِنَانَةٍ ثُمَّ سَأَلَ : « مَا رَأَيْتَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ؟ »

فَأَجَابَ سِيوَارْدُ : « لَيْسَتْ لَدَيَّ فِكْرَةٌ ، فِيمَا عَدَا أَنَّ أَحَالَةَ تَبْدُو أَشْبَهَ قَلِيلًا بِحَالَةِ لُوسِي . »

فَقَالَ هِيلْسِينْغُ : « أَشْبَهَ قَلِيلًا فَقَطْ ؟ هَلْ تُقْصِدُ أَنَّهَا الصَّدِيقُ أَلَيْكَ — بَعْدَ كُلِّ مَا رَأَيْتَهُ — لَا تَزَالُ لَيْسَتْ لَدَيْكَ فِكْرَةٌ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَوْتِ لُوسِي الْمِسْكِينَةِ ؟ »

قَالَ سِيوَارْدُ : « لَقَدْ مَاتَتْ نَتِيجَةً لِمَا فَقَدَتْهُ مِنْ دِمَاءٍ . »

قَالَ فَاْن هِيلْسِينْغُ : « وَكَيْفَ فَقَدَتْ دِمَاءَهَا ؟ »

سَكَتَ سِيوَارْدُ ، فَقَالَ فَاْن هِيلْسِينْغُ : « إِنَّكَ رَجُلٌ ذَكِيٌّ بِاصْدِيقِي ، وَلَكِنَّكَ تُنْظَرُ

إلى الحياة نظرة ضيقة . إلك تظن أن العلم يقدم لنا إجابات عن كل شيء ، ولكنك مُحيطٌ . فهناك أشياء كثيرة لا يستطيع العلم أن يصل إليها ، وأنت لا تريد أن تراها . إن كلاً من لوسي وهؤلاء الأطفال فقدوا دماءهم بسبب الجروح التي في أعناقهم . والآن أخبرني ، من الذي أخذت هذه الجروح ؟

قال سيوارد : « لقد سمعت عن خفافيش في أمريكا الجنوبية تمتص دماء الناس أو الحيوانات في أثناء نومهم بهذه الطريقة ، ولكن ليس لدينا في إنجلترا مثل هذه الخفافيش . »

فقال فان هيلسينغ : « أصبت بإصيدي جاك ، ولكن إذا لم يكن الذي امتص دماء لوسي من الخفافيش مصاصة الدماء ، فماذا يكون إذا ؟ »

فلاذ سيوارد بالصمت لحظة ، ثم استدأر بوجه شاحب كسيف نحو فان هيلسينغ وقال : « أريدني أن أعتقد أن مصاص دماء .. أن رجلاً مصاص دماء هو الذي أخذت هذه الجروح ؟ ولكني لا أؤمن بوجود مصاصين للدماء من البشر . إننا لا نعيش في عالم الأساطير والقصص الخرافية . إنه لا يعتقد في أشياء كهذه إلا مجنون . »

فنظر فان هيلسينغ إلى سيوارد محزوناً وقال : « كنت أتمنى أن أكون مجنوناً ولا أضطر إلى القول بأن لوسي قد قتلت حقيقة مصاص دماء . ولكن ، ليس هذا كل شيء . » وهنا غطى وجهه يديه كما لو كان غير راغب في الاستمرار في الحديث ، ثم قال :

« لا تظن أن مصاص الدماء الذي شرب دماء هؤلاء الأطفال هو نفس مصاص الدماء الذي شرب دم لوسي . »

فقال سيوارد : « ماذا تعني يا بروفيسور ؟ »

فأجاب : « أعني يادكتور سيوارد أن مصاص الدماء الذي اعتدى على هؤلاء الأطفال هو لوسي نفسها ! »

القِسْمُ الرَّابِعُ

لندن

الفصل الثالث عشر

أَخَذَ فَا ن هِيلْسِينْغُ يُنْظِرُ إِلَى الدُّكْتُورِ سِيوَارْدِ فَتَصْطَلِدُ نَظْرَاتُهُ مُبَاشَرَةً بِعَيْنَيْنِ غَاضِبَتَيْنِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يَسِيرًا عَلَى سِيوَارْدِ أَنْ يَقْبَلَ عَقْلُهُ بِسُهُولَةٍ فِكْرَةَ أَنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي أَحَبَّهَا يَوْمًا مَصْاصَةُ دِمَاءٍ تُهَاجِمُ صِغَارَ الْأَطْفَالِ لِتَشْرَبَ دِمَاءَهُمْ . وَكَانَ فَا ن هِيلْسِينْغُ وَاقِعًا أَنَّهُ لَيْسَ فِي مَكْتَبَةِ الدُّكْتُورِ سِيوَارْدِ أَيُّ مَرْجِعٍ يَتَضَمَّنُ مَعْلُومَاتٍ عَنِ مَصَاصِي الدِّمَاءِ ، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَعْني أَنَّهُمْ غَيْرُ مُوجُودِينَ . إِنَّهُمْ مُوجُودُونَ ، وَعَلَى فَا ن هِيلْسِينْغِ أَنْ يَبْثُبَ ذَلِكَ . صَحِيحٌ أَنَّ هُنَاكَ الْكَثِيرَ الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ هُوَ تَفْسُهُ عَنِ هَذَا الْمَوْضُوعِ بَعْدَ ، وَلَكِنْ هُنَاكَ حَقِيقَةٌ مُؤَلِّمَةٌ وَاضِحَةٌ لَهُ وَهِيَ أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ فِي الْبَقِيَّةِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ مَصَاصُ دِمَاءٍ وَاحِدٌ ، أَمَّا الْآنَ فَقَدْ أَصْبَحَ هُنَاكَ اثْنَانِ ، وَفِي الْأَسْبُوعِ الْقَادِمِ أَوْ الشَّهْرِ الْقَادِمِ قَدْ يُصْبِحُ هُنَاكَ ثَلَاثَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ أَوْ خَمْسَةٌ ، وَهُوَ الْوَحِيدُ « أَبْرَاهَامُ فَا ن هِيلْسِينْغِ مِنْ أَيْسْتِرْدَامِ » الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَوْقِفَ هَذَا التَّكَاثُرَ ، وَلَكِنَّهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُعَاوِظُهُ .

قَالَ فَا ن هِيلْسِينْغُ فِي رَقَةٍ : « يَا صَدِيقِي ، إِنَّ الْحَقِيقَةَ قَدْ يَكُونُ حَمْلُهَا شَاقًا ، وَأَنَا لَا أَتَوَقَّعُ — وَأَنْتَ أَخَذَ الْفَلَمَاءَ — أَنَّهُ يُمْكِنُكَ أَنْ تُصَدِّقَ شَيْئًا بِدُونِ بُرْهَانٍ ، وَلَكِنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْدِمَ لَكَ هَذَا الْبُرْهَانَ إِذَا جِئْتَ مَعِي . »

فَسَأَلَهُ سِيوَارْدُ فِي ارْتِيَابٍ : « إِلَى أَيْنَ ؟ »

فَأَجَابَ فَا ن هِيلْسِينْغُ : « أَوَّلًا إِلَى مُسْتَشْفَى شِمَالِي لَنْدُنِ لِكَيْ تَرَى أَخَذَ الْأَطْفَالِ . »

فَسَأَلَهُ سِيوَارْدُ : « وَتَعَدُّ ذَلِكَ ؟ »

فَكَانَ جَوَابُ فَا ن هِيلْسِينْغِ أَنْ أُخْرِجَ مِنْ جَنْبِهِ مِفْتَاحًا كَبِيرًا وَرَفَعَهُ فِي يَدِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ سِيوَارْدُ يَرَى الْمِفْتَاحَ حَتَّى شَحَبَ لَوْنُهُ ، فَقَدْ كَانَ مِفْتَاحَ الْكَمْفِيرَةِ ، وَقَالَ فِي صَوْتٍ خَافِيٍّ :

« لا تَيسَّرُ إلى هُنَاكَ ؟ لَمْ يَمَضِ عَلَى مَوْتِهَا إِلَّا أُسْبُوعٌ ! كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ أَزُورَ الْمَقْبَرَةَ لَوْ أَنَّ الْكَمِيَّتَ شَخْصَ آخَرَ ، أَمَا هِيَ فَلَا . لَقَدْ كَانَتْ جَمِيلَةً وَهِيَ مَيِّتَةً ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أُحْفَظَ بِذِكْرِهَا وَهِيَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ ، لَا عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ عَلَيْهَا الْآنَ . »

فَقَالَ فَاَن هِيلْسِينْغَ : « يَا صَدِيقِي إِنَّهُ بِسَبَبِ حُبِّكَ لَهَا أَطْلُبُ مِنْكَ الْآنَ أَنْ تَأْتِيَ مَعِيَ . وَإِذَا لَمْ نَكُنْ قَدْ اسْتَطَعْنَا أَنْ نُنْقِذَ حَيَاتَهَا ، فَمِنْ الْوَاجِبِ عَلَيْنَا الْآنَ — عَلَى الْأَقْلَ — أَنْ نَحَاوِلَ إِنْقَاذَ رُوحِهَا . »

وَصَلَ فَاَن هِيلْسِينْغَ وَالْدُكْتُورُ سِيوَارْدُ إِلَى الْمُسْتَشْفَى حَوَالَى السَّاعَةِ السَّادِسَةِ . وَكَانَ الطِّفْلُ فِي تَحْسُنٍ مُسْتَوٍ . وَكَشَفَ الطَّبِيبُ الَّذِي يَتَوَلَّى عِلاجَهُ عَنْ غُضُوهِ ، وَأَرَاهُمَا أَثَارَ الْخُرُوجِ فِيهِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ شَيْءٍ فِي أَنَّهَا كَانَتْ تُشْبِهُ تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ فِي غُضِي لُوسِي . وَلَكِنَّا سَأَلْنَا فَاَن هِيلْسِينْغَ الطَّبِيبَ عَنْ رَأْيِهِ فِي سَبَبِ حَدُوثِ هَذِهِ الْأَثَارِ أَجَابَ :

« لَا يُمَكِّنُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَيَوَانًا مَا ، كَالْفَأْرِ مَثَلًا . كَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ خُفَاشًا ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِالنَّطِيعِ مِنَ الْخَفَافِيشِ الْمَحَلِّيَّةِ ، وَإِنَّمَا مِنْ نَوْعٍ أجنبيٍّ ، فَهُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُعْضِرُونَ إِلَى إِنْجَلَتِرا حَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ مِنَ الْأَنْعَاءِ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْعَالَمِ ، بَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ حَيَوَانًا هَارِبًا مِنْ حَدِيقَةِ الْحَيَوَانِ . نَعَمْ ، فَمُنْذُ أُسْبُوعٍ أَوْ أُسْبُوعَيْنِ فَقَطْ هَرَبَ مِنْهُمْ ذَنْبٌ ، اُعْتَقِدْ أَنَّهُمْ مُهْمَلُونَ غَايَةَ الْإِهْمَالِ . »

كَانَتِ الشَّمْسُ تَعْمَلُ لِلْغُرُوبِ جَيْمًا غَادِرًا الْمُسْتَشْفَى وَتَوَجَّهَتْ نَحْوَ هَامِستِيدَ ، الَّتِي تَقَعُ عَلَى رِبْوَةٍ تَطِيرُ عَلَى لُتْدَنَ مِنَ الشَّمَالِ . سَارَا فِي شَوَارِعَ خَالِيَةٍ مُظْلِمَةٍ حَتَّى بَلَغَتْ رُقَاقَا صَغِيرًا فِي أَحَدِ جَانِبَيْهِ جِدَارٌ . وَتَطَلَّعَا حَوْلَهُمَا فَلَمَّا لَمْ يَجِدَا أَحَدًا فِي الرُّقَاقِ تَسَلَّقا الْجِدَارَ إِلَى حَيْثُ تُوُجِدَ الْكَمَقَارُ .

كَانَ فَاَن هِيلْسِينْغَ يَعْرِفُ وَجْهَهُ تَامًا ، وَمَا هِيَ إِلَّا لِحَظَاتٍ حَتَّى كَانَ الرَّجُلَانِ يَقِفَانِ أَمَامَ مَقْبَرَةٍ وَسِتِيرَا . فَاشْتَعَلَ الْبَرُوفِسُورُ شَمْعَةً وَفَتَحَ الْبَابَ ، ثُمَّ انْحَنَى جَانِبًا وَأَشَارَ بِيَدِهِ لِلدُّكْتُورِ سِيوَارْدَ — مُجَامَلَةً مِنْهُ وَتَأْدُبًا — لِكَيْ يَدْخُلَ أَوَّلًا . وَبَدَأَ عَلَى وَجْهِ سِيوَارْدَ أَنَّهُ

يُرْحَبُ بِهِذِهِ اللَّفْتَةُ مِنَ الْقَادِبِ وَحَسَنِ السُّلُوكِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْعُهُ إِلَّا الْإِمْتِنَالُ فَأَخَذَ الشَّمْعَةَ وَدَخَلَ .

كَانَتْ الْكَمْفَرَةُ — عِنْدَمَا شَاهَدَاهَا فِي الْكَمْرَةِ السَّابِقَةِ حِينَ دُفِنَتْ لُوسِي — مَكَانًا مُقْبِضًا عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ ، وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ عَبَثِ الزُّهُورِ النَّضِيرَةِ آنَذَاكَ ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَحَالٌ وَقَدْ ذَبَلَتْ الزُّهُورُ وَحَالَ لَوْنُهَا ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ بَعْدَ أَنْ فَقَدَتْ الْفَيْضَةَ وَالنَّحَاسُ وَالنَّصَائِرُ الَّتِي تُوشِي تَابُوتَ لُوسِي بَرَقَها ؟ وَسَأَلَ سِيوارْدُ : « مَاذَا تَعْتَرِمْ أَنْ تَفْعَلَ ؟ »

فَأَجَابَ الْبُروفيسورُ : « رَابِعٌ ، وَسَوْفَ تَرَى . »

ثُمَّ فَتَحَ التَّابُوتَ مِنْ أَعْلَاهُ ، وَكَانَ تَحْتَ الْفَتْحَةِ غِطَاءٌ مِنَ الرِّصَاصِ يُحِيطُ بِالْجُثَّةِ كَمَاثًا . وَكَانَ الْبُروفيسورُ قَدْ أَخَذَ أَهْبَتَهُ فَأَخْضَرَ مَعَهُ مَا يَلْزَمُ مِنْ أَدَوَاتٍ لِمُوَاجَهَةِ الْكَمْفَرَةِ ، فَشَرَعَ يَقْطَعُ الرِّصَاصَ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ حِينَ رَأَى الدُّكْتُورُ سِيوارْدَ يَتَسَلَّلُ مِنْ جَوَارِهِ وَيَرْجِعُ مُتَّجِهاً نَحْوَ بَابِ الْكَمْفَرَةِ وَهُوَ يَقُولُ فِي صَوْتٍ مُرْتَجِفٍ : « بُروفيسورُ ، إِنَّهَا مَيِّتَةٌ مُنْذُ أُسْبُوعٍ ، وَلَسْتُ أَرْغَبُ فِي رُؤْيَيْهَا ثَانِيَةً . »

فَقَالَ الْبُروفيسورُ : « ابْقِ هُنَا مَا لَمْ تُكُنْ خَائِفًا مِنْ مُوَاجَهَةِ الْحَقِيقَةِ . » وَانْتَهَى فَنَ هِيلْسِينْجُ مِنَ عَمَلِ الْفَتْحَةِ ، ثُمَّ قَطَعَ الْجُزْءَ الَّذِي يَقَعُ تَحْتَ وَسَطِ الْبُطَائِ الرِّصَاصِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ غَازٍ ، لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ رَائِحَةٍ لِلْمَوْتِ .

قَالَ الْبُروفيسورُ : « وَالْآنَ سَوْفَ أُجْذِبُ أَحَدَ طَرَفَيْ الرِّصَاصِ ، وَتَقِفُ أَنْتَ فِي مُوَاجَهَتِي لِتَجْذِبَ الطَّرْفَ الْآخَرَ وَحِينَئِذٍ سَوْفَ تَرَى مَا تَرَى . »

وَمُكَذَّا جَذَبَا الرِّصَاصَ مِنْ جَانِبَيْ الْقَطْعِ كِلَيْهِمَا ، وَإِذَا بِالتَّابُوتِ خَالِي ، فَقَالَ قَان هِيلْسِينْجُ : « أَلْبَرَهَانُ الْأَوَّلُ ! تَعَالِ ! اِئْتِنِي ! »

وَمَضَى الْبُروفيسورُ ، يَتَّبِعُهُ صَدِيقُهُ الصَّامِتُ الْكَمْدَهُولُ إِلَى خَارِجِ الْكَمْفَرَةِ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُقْلِقَهَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « وَالْآنَ سَوْفَ نَنْتَظِرُ ، وَإِذَا وَقَفْنَا تَحْتَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْكَمْفَرَةِ فَإِنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ تَرَى أَيَّ شَيْءٍ يَخْلُتُ . »

وَأَنْتَظِرَا ، وَطَالَ الْإِلْتِظَارُ ، وَسَمِعَا سَاعَةً تُدَقُّ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ ، ثُمَّ تُدَقُّ الْوَاحِدَةَ ، ثُمَّ الثَّالِيَةَ . وَلاِبَدُ أَنْ السَّاعَةَ كَانَتْ قَدْ قَارَبَتْ الثَّالِيَةَ حِينَمَا أُطْبِقَتْ يَدُ فَاَن هِيلْسِينْغِ عَلَى ذِرَاعِ سِيوَارْدَ ، ثُمَّ أَشَارَ لَهُ إِلَى شَكْلِ أَيْضُ يَتَحَرَّكُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ عَلَى بُعْدِ عِشْرِينَ أَوْ ثَلَاثِينَ مِثْرًا . وَخَرَجَ فَاَن هِيلْسِينْغِ مِنْ تَحْتِ الْأَشْجَارِ وَتَقَدَّمَ مِنْهُ ، وَهَذَا كَأَنَّهُ رَأَاهُ ، فَتَوَقَّفَ ثُمَّ تَقَهَّقَرَ إِلَى الْوَرَاءِ وَاحْتَفَى ، فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتِي تَعَثَّرَ فِيهَا فَاَن هِيلْسِينْغِ وَسَقَطَ فَوْقَ شَيْءٍ مُلْقَى فِي مَعْرٍ مِنَ الْعُشْبِ الطَّوِيلِ . وَحِينَمَا سَمِعَ سِيوَارْدَ صَيْحَةَ اللَّذَعَةِ الَّتِي أَطْلَقَهَا فَاَن هِيلْسِينْغِ خَفَّ إِلَيْهِ مُسْرِعًا ، وَاشْتَلَّ عُوْدُ ثِقَابٍ ، وَإِذَا فَوْقَ الْأَرْضِ طِفْلٌ صَغِيرٌ لَا يَزَالُ فِي سُبَابٍ غَمِيقٍ ، وَصَاحَ الْبُرُوفِسُورُ وَهُوَ يَنْهَضُ مِنْ فَوْقِ الْعُشْبِ : « الْبَرَّهَانُ الثَّانِي ! »



وقال سيوارد بعد أن فحصَ الطفلَ : « ليسَ بالعنقِ أيُّ أثرٍ . »

فقالَ البروفيسورُ : « لمَ يتسبَّحُ لها الكوفتُ ، ولكنْ ، إذا لمَ يَكُنْ الكِرْهانُ الثانيَ كاملاً فسوفَ أهلكَ الكِرْهانَ الثالثَ ، وحيثيذ ، لتلكَ تفتيحُ . »

وكانَ الطفلُ لا يزالُ نائماً ، فمَهَّدَ له سيواردُ مكاناً فوقَ العُشْبِ ، وتبعَ فان هيلسينغ إلى المقبرة . كانتِ الشمسُ قد بدأتْ تطلعُ حينما فتَحَا البابَ ، ولكنَّ الظلمةَ كانتْ حَوْلَ القابوتِ كما كانتْ من قَبْلُ ، فقالَ البروفيسورُ : « أشعلِ عودَ يُقابِ . »

وتوجَّهَ سيواردُ بأنَّ القابوتِ لمَ يَكُنْ خالياً كما كانَ من قَبْلُ ، وإلّا كانتْ لوسي تُرْقِدُ فيه وهي تلبو بيشل ما كانتْ تلبو قَبْلَ الجنازةِ تماماً . كانتْ — لو كانَ هذا ممكناً — أكثرَ جمالاً منها في أيِّ وقتٍ مضى ، فهلَ يَمَكُنُ أنْ يَكُونَ هذا وَجَةً فتاةٍ إلْقَضَى عَلَى مَوْنِهَا سَبْعَةُ أَيَّامٍ ؟ وَجَذَبَ فان هيلسينغَ شَفَتَيْهَا إلى الخَلْفِ كاشِفاً عَنْ أَسْنَانِهَا ، وقالَ : « انْظُرْ إليها أَشْبَهَ بِحَدِّ السَّكِينِ . كَمْ مَرَّةً ، يادكتور سيوارد ، يَتَبَنَّى أَنْ تُغْرِسَ هِذِهِ الْأَسْنَانُ فِي عُنُقِ طِفْلٍ حَتَّى تُؤْمِنَ أَنَّ مَعْنَا الْآنَ مَصَاصَةً دِمَاءٍ مُتَعَطِّشَةً إِلَى الدَّمِ ، وَأَنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَقْضِيَ عَلَيْهَا نِهَالِيًّا ؟ »

كانَ سيواردُ يلبو وكأنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ عَيْنَيْهِ مِنَ التَّطَلُّعِ إِلَى هَذَا الْجَمَالِ الشَّرِيرِ لِهَذَا الْجَسَدِ الْقَاوِي فِي ذَلِكَ الْقَابُوتِ . ثُمَّ سَأَلَ : « بروفيسور ، ماذا يَتَبَنَّى عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَ ؟ »

فأجابَ البروفيسورُ : « نَنزِعُ رَأْسَهَا مِنْ جَسَدِهَا ، وَنَمْلَأُ فَمَهَا بِالْثَرَمِ ، وَنَغْرِسُ قِطْعَةً سَمِيكَةً مِنَ الْخَشَبِ لِتَتَغَلَّلَ فِي قَلْبِهَا . وَلَكِنْ لَيْسَ الْآنَ ، فَلَسْنَا مُسْتَعِدَّيْنِ لِذَلِكَ بَعْدَ . ثُمَّ إِنَّا — بِسَبَبِ الْخِطَاطِيرِ الَّتِي تُوَجِّهُنَا — فِي حَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْكَوْنِ ، وَلَوْ أَنَّ هَذَا ، فَإِنَّ الَّذِي أَطْلَعَكَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ لَأَبْدُ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهِ آرثر هولموود . لِتَرْحَلِ الْآنَ . »

وهكذا اغْلَقَا المقبرةَ ، ثُمَّ حَمَلَا الطِّفْلَ الَّذِي كَانَ لَا يَزَالُ نَائِماً وَوَضَعَاهُ خَارِجَ بَوَابَةِ الْمَقْبَرَةِ ، وَهُمْ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ الشَّرْطَةَ سَوْفَ تَجِدُهُ عَاجِلاً . وَكَانَ جَمِيلاً ، أَنَّ يُجَسَّدَ دِفْءَ الشَّمْسِ حِينَما غَادَرَا الْمَقَرَّةَ ، وَسَارَا عَائِدَيْنِ إِلَى لَنْدُنْ .

الفصل الرابع عشر

لَمْ يَكُنْ مِنَ الْيَسِيرِ إِفْنَاعُ آرْتَرِ بِالْمَجِيءِ إِلَى الْمَقْبَرَةِ ، وَلَكِنَّهُ جَاءَ آخِرًا . وَكَانَ الْفَضْلُ فِي ذَلِكَ لِجَاكْ سِيوَارْد . ذَلِكَ أَنَّ فَاان هِيلْسِينْغْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ كَلَامَ سِيوَارْدَ مَعَ آرْتَرِ سَوْفَ يَكُونُ أَوْفَعُ أَثَرًا مِنْ كَلَامِهِ هُوَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ كَذَلِكَ أَنَّهُ لَا كَلَامَهُ وَلَا كَلَامَ سِيوَارْدَ يُمَكِّنُ أَنْ يُقْنِعَ آرْتَرِ بِأَنَّ لُوسِي مَصَاصَةٌ دِمَاءٍ ، وَإِنَّمَا لُوسِي نَفْسُهَا هِيَ الَّتِي تَسْتَطِيعُ إِفْنَاعَهُ .

كَانَتْ السَّاعَةُ قَدْ تَجَاوَزَتْ مُتَنَصِّفَ اللَّيْلِ جَيْنَمَا وَقَفَ الرَّجَالُ الثَّلَاثَةُ حَوْلَ التَّابُوتِ . وَكَانَ فَاان هِيلْسِينْغْ يَحْمِلُ حَقِيْبَةً طَوِيلَةً .

وَقَالَ فَاان هِيلْسِينْغْ : « دَكْتُور سِيوَارْدَ ، جَيْنَمَا غَاخَرْنَا هَذِهِ الْمَقْبَرَةَ صَبَاحَ الْيَوْمِ كَانَتْ جُثَّةُ لُوسِي فِي تَابُوتٍ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

أَجَابَ سِيوَارْدَ : « بَلَى . لَقَدْ كَانَتْ فِي التَّابُوتِ يَا بَرُوْفِسُور . »

فَقَالَ فَاان هِيلْسِينْغْ بِطَرِيقَةِ الْحَوَاةِ وَالسَّحَرَةِ : « سَأَفْتَحُ التَّابُوتَ الْآنَ . »

ثُمَّ فَتَحَهُ ، وَنَظَرَ الْجَمِيعُ ، فَإِذَا هُوَ خَالٍ . وَغَشِيَ الْجَمِيعَ صَنْتٌ طَوِيلٌ ، ثُمَّ قَالَ آرْتَرِ فِي صَوْتٍ خَافِتٍ : « بَرُوْفِسُور ، أَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تُكُنْ لَتَنْقَلِ جُثَّتُهَا ، فَمَنْ الَّذِي نَقَلَهَا ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا كَهَذَا ؟ »

فَلَمْ يَجِبْ فَاان هِيلْسِينْغْ ، وَإِنَّمَا خَرَجَ مِنَ الْمَقْبَرَةِ وَهُمَا يَتَّبَعَانِهِ . ثُمَّ أَوْصَدَ الْبَابَ ، وَأَخْرَجَ مِنْ حَقِيْبَتِهِ بَعْضَ الْخُبْزِ الْمَلْفُوفِ فِي قِطْعَةٍ قَمَاشٍ بَيْضَاءَ ، وَأَخَذَ يَطْوِيهِ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، ثُمَّ دَسَهُ فِي الْفَرَاغِ الَّذِي بَيْنَ الْبَابِ وَحَجَرِ الْمَقْبَرَةِ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ ، وَكَذَلِكَ فِي ثَقْبِ الْقَفْلِ ، وَقَالَ وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ :

« هَذَا خُبْزٌ مُقَدَّسٌ بورك في الكُنْيَسَةِ ، وَسَأَغْلِقُ الْمَقْبَرَةَ حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ أَيُّ كَائِنٍ شَرِيرٍ أَنْ يَدْخُلَهَا . »

فَسَأَلَهُ آتَرُّ وَهُوَ لَا يَزَالُ تَحْتَ تَأْثِيرِ الصَّدْمَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُ بِسَبَبِ اخْتِفَاءِ جُئُو لُوسِي :
« وَمَاذَا بَعْدَ ذَلِكَ ؟ »

فَأَجَابَ فَاان هِيلْسِينْغ : « وَالْآنَ اسْتَعْمِلُوا ، فَالْآنَ كَمَا فِي حَاجَةٍ إِلَى قُدْرَةِ عَقْلِيَّةٍ عَالِيَةٍ ،
فَهَيَّا بِنَا نَنْتَظِرُ خَلْفَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ حَيْثُ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى الْكَفَرَةَ . »

كَانَ فَاان هِيلْسِينْغ يَتَحَدَّثُ كَمَا لَوْ كَانَ يَعْرِفُ ثَمَامًا مَا الَّذِي سَيَحْدُثُ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي
الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَشْعُرُ بِالشُّكِّ وَالْخَوْفِ . لَقَدْ كَانَ فِي حَالَةِ الْجَذَابِ إِلَى أَعْمَاقِ سَحَابَةٍ مِنْ
الْعَالَمِ اللَّاطِيئِيِّ .. عَالَمِ اللَّامَوَكِيِّ الَّذِي يُطْلَقُ عَلَى مَصَاصِي الدَّمَاءِ . وَحِينَمَا نَظَرَ حَوْلَهُ
كَانَ يُخَالِجُهُ شُعُورٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَرَ قَطُّ فِي اللَّيْلِ مَكَانًا مِثْلَ هَذَا يَنْبِئُ بِشَرٍّ كَثِيرٍ . كَانَتْ أَشْجَارُ
الْقُبُورِ تَلْمَعُ بَيَاضُهَا كَمِثْلِ عِظَامِ الْوَتَى ، وَكَلَّمَا هَبَّتِ الرِّيحُ خَيْلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ حَرَكَةَ
أَجْنِحَةٍ تُزْفِرُ ، وَحَرَكَةَ أَشْيَاءٍ فِي الْغُشْبِ تَرْجَفُ ، وَأَيْفَنَ أَنَّهُ مَا كَانَ لِيَسْتَطِيعَ أَنْ يَنْظُرَ
فِي هَذَا الْمَكَانِ لَوْ أَنَّهُ كَانَ وَحْدَهُ .

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَنْبِسُ بِكَلِمَةٍ ، بَلْ إِنَّ الرِّيحَ تَوَقَّفتْ أَحْيَرًا وَتَحَلَّفتْ وَرَاءَهَا سُكُونًا
كَسُكُونِ الْأَحْلَامِ ، وَالْقَفْصَتِ سَاعَةً أَغْفَتَهَا صَوْتٌ .

كَانَ جَاك سِيوَارْدُ قَدْ شَهَقَ حِينَ لَمَحَ شَيْئًا ، وَأَشَارَ يَدَهُ . كَانَ هُنَاكَ عَلَى مَسَافَةٍ مِنْهُمْ
شَكْلٌ أَيْضًا يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ صَفْهَيْنِ مِنَ الْأَشْجَارِ حَامِلًا شَيْئًا مَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ ، ثُمَّ تَوَقَّفتْ فِي
بُقْعَةٍ انْعَكَسَ عَلَيْهَا ضَوْؤُ الْقَمَرِ ، فَإِذَا الْكَمَشْهُدُ هَذِهِ الْغَمْرَةِ وَاضِحًا كُلُّ الْوُضُوحِ . كَانَتْ
سَيِّدَةُ ذَاتِ شَعْرِ ذَهَبِيٍّ ، تَأْتُرُ بِقَمَاشٍ أَيْضًا كَقَمَاشِ الْأَكْفَانِ ، وَتَقْدُمُ إِلَى الْأَمَامِ
مُسْمِكَةً بِطِفْلِ صَغِيرٍ ، وَتَقْدُمُ السَّيِّدَةَ حَتَّى أَصْبَحَتْ قَرِيبَةً مِنْهُمْ بِحَيْثُ أُمَكْنَهُمْ أَنْ
يَسْمَعُوا .. كَانَتْ لُوسِي .

وَلَكِنْ لُوسِي الَّتِي تَثِيرُ كَثِيرًا كَانَتْ شَفَتَاهَا تَقْطُرَانِ يَدِمَاءِ الطُّفْلِ الطَّارِجَةِ ، وَكَانَ
الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهَا حَتَّى صَبَغَ الْقَمَاشَ الْأَيْضَ الَّذِي تَأْتُرُ بِهِ .



وَقَدَّمَ فَان هِيلْسِينْغَ حُطُوبَاتٍ إِلَى الْأَمَامِ ، وَمَا كَادَتْ تَرَاهُ حَتَّى انْسَحَبَتْ إِلَى الْخَلْفِ مُحْدِنَةً زَمْجَرَةً غَاضِبَةً ، وَالْقَبْطِ الطِّفْلُ الَّذِي كَانَتْ — حَتَّى الْآنَ — تَحْتَقِطُ بِهِ بَيْنَ يَدَيْهَا كَمَا يَحْتَقِطُ الْكَلْبُ بِعَظْمَةٍ ، فَصَرَخَ صَرْخَةً أَلِيمَةً تَأَثَّرَ لَهَا آرْتَرُ ، فَأَطْلَقَ بِدَوْرِهِ صَیْحَةً لَمْ تَكُذْ لُوسِي تَسْمَعُهَا حَتَّى تَغْمِرَتْ ثَانِيَةً . فَقَدْ رَأَتْ آرْتَرَ وَمَدَّتْ إِحْدَى يَدَيْهَا نَحْوَهُ بِطَرِيقَةٍ غَفَوِيَّةٍ ، نَفْسٍ طَرِيقَةٍ لُوسِي أَلْفِيهَا ، ثُمَّ قَالَتْ : « آرْتَرُ ، دَعْ أَصْدِقَاءَكَ وَتَعَالَ مَعِي . »

كَانَتْ هُنَاكَ نِعْمَةٌ حُلُوةٌ فِي صَوْتِهَا ، بَلَغَ مِنْ حَلَاوَتِهَا أَنَّ فَان هِيلْسِينْغَ نَفْسَهُ شَعَرَ بِالْجِدَابِ إِلَيْهَا . أَمَّا آرْتَرُ فَقَدْ وَقَفَ كَأَنَّمَا مَسَّهُ سِحْرٌ . فَتَبَسَّمتْ لَهُ ثَانِيَةً ، فَتَقَدَّمَ نَحْوَهَا ، وَلَكِنْ فَان هِيلْسِينْغَ كَانَ بِالْمِرْصَادِ ، وَقَبَّلَ أَنْ تُطْبِقَ لُوسِي بِأَسْنَانِهَا عَلَى عُنُقِ آرْتَرَ وَتَبَّ إِلَى الْأَمَامِ رَافِعًا أَمَانَهُ صَلِيبُهُ الذَّهَبِيُّ الصَّغِيرَ . وَلَكِنْ تَكُذُّ يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى صَرَخَتْ صَرْخَةً ضَارِبَةً كَمَا لَوْ كَانَ قَدْ لَمَسَهَا حَدِيدٌ عُمَّى أَحْمَرٌ ، وَفَقَرَتْ إِلَى الْوَرَاءِ ، ثُمَّ جَرَتْ نَحْوَ بَابِ الْمَقْبَرَةِ ، وَلَكِنَّهَا تَوَقَّفَتْ هُنَاكَ ثَانِيَةً إِذْ إِنَّ فَان هِيلْسِينْغَ كَانَ قَدْ أَدَّى عَمَلَهُ بِتَجَاجُجٍ . وَأَخِيرًا لَمْ تَجِدْ مَقَرًّا مِنْ أَنْ تَجْرِيَ خِلَالَ ظِلِّ شَجَرَةٍ . وَكَانَ كُلُّ مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يُشَاهِدُوهُ مِنْهَا هُوَ بَيَاضُ أَسْنَانِهَا وَهِيَ تَلْمَعُ فِي الظَّلَامِ .

وَسَادَ السُّكُونُ حَيْثُ صَارَ كُلُّ مِنَ الْحَيِّ وَالْأَلَامِيِّ فِي حَالَةٍ ذُهُولٍ . وَفِي النِّهَايَةِ اسْتَدَارَ فَان هِيلْسِينْغَ نَحْوَ آرْتَرَ — وَالصَّلِيبُ لَا يَزَالُ مَرْفُوعًا فِي يَدِهِ — وَسَأَلَهُ فِي صَوْتٍ مُرْتَجِفٍ : « هَلْ اسْتَمِرُّ فِي عَمَلِي ؟ »

فَجَبَأَ آرْتَرُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَعَظَى وَجْهَهُ يَدَيْهِ قَائِلًا : « افْعَلْ مَا تَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَازِمٌ . كُنْ بِكَوْنِ هُنَاكَ مَا هُوَ أَسْوَأُ مِمَّا رَأَيْتُ . »

وَعَادَ الْبَرُوفِيسُورُ إِلَى بَابِ الْمَقْبَرَةِ ، وَأَخْرَجَ نَعْضًا مِنَ الْخُبْرِ الْمُقَدَّسِ ، وَفَتَحَ الْبَابَ قَلِيلًا . أَمَّا لُوسِي فَكَانَتْ كَأَنَّمَا اجْتَذَبَتْهَا قُوَّةٌ قَاهِرَةٌ لَا تَسْتَطِيعُ الصُّمُودُ أَمَانَهَا ، فَدَلَّتْ مِنْ ظِلَالِ الْأَشْجَارِ عَائِدَةً إِلَى الْمَقْبَرَةِ . وَانْحَنَتْ مِنْ خِلَالِ الْفَرَاغِ فِي فَتْحَةِ الْبَابِ ،

وَحِينَذِ أَعَادَ الْكُورُفِسُورَ الْخُبْرَ إِلَى مَكَانِهِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ ، لَيْسَ أَمَانًا مَا نَسْتَطِيعُ عَمَلَهُ قَبْلَ بُرُوعِ ضَوْءِ النَّهَارِ . إِنَّهَا لَا نَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ الْآنَ فِيهِ مَتَهَوِّكَةٌ ، وَلَعَلَّهَا ضَعِيفَةٌ وَاهِنَةٌ بِسَبَبِ أَنَّهَا لَمْ تَذُقْ مَا يُشْبِعُهَا لِمُدَّةِ اللَّيْلَتَيْنِ ، وَسَرَّعَانَ مَا يُدْرِكُهَا النَّعَاسُ ، وَحِينَذِ سَوْفَ نُودِّي مُهِمَّتَنَا . »

وَبَيْنَمَا كَانَ الرِّجَالُ الثَّلَاثَةُ يَنْتَظِرُونَ بُرُوعَ الشَّمْسِ كَانَتِ الْأَفْكَارُ الضَّارِبَةُ تَجُولُ فِي أَذْهَانِهِمْ . ثُمَّ ظَهَرَتْ حُمْرَةُ السَّمَاءِ وَبَزَعَتِ الشَّمْسُ ، وَانْتَظَرَ كُلٌّ مِنْ سِيَّوَادِ وَآرْتَرِ صُدُورَ كَلِمَةٍ مِنَ الْكُورُفِسُورِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُتَعَجِّلٌ فِي الشَّرُوعِ فِي الْعَمَلِ . وَآخِيرًا أَخْرَجَ سَاعَتَهُ الذَّهَبِيَّةَ الثَّقِيلَةَ وَنَظَرَ فِيهَا ثُمَّ قَالَ : « إِنَّهَا السَّادِسَةُ وَالنِّصْفُ . لَدَيْنَا نِصْفُ سَاعَةٍ . »

كَانَتْ لُوسِي مُسْتَعْرِقَةً فِي نَوْمِهَا ، وَكَانَتْ جَمِيلَةً وَمِثْلَمَا كَانَتْ دَائِمًا . أَمَّا آرْتَرُ فَكَانَ شَاجِبًا حَتَّى يُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّهُ هُوَ الْحَيِّثُ . وَحِينَمَا أَلْحَنَى فَوْقَ التَّابُوتِ أَخَذَ يَنْتَعِجُ عِلَاقِيَّةً . وَلَكِنْ فَإِنْ هِيلْسِينْجَ لَمْ تُكُنْ أَحَاسِيْسُهُ كَأَحَاسِيْسِ آرْتَرِ ، وَإِنَّمَا كَانَ بِصَرِّهِ مُرَكِّزًا عَلَى الدَّمِ الْجَائِفِ الَّذِي يُلَطُّحُ فَمَهَا . فَتَحَ الْحَقِيبَةَ وَأَخْرَجَ بَعْضَ آلَاتِ الطَّيِّبَةِ وَالْكَمْبَاضِيعِ وَقِطْعَةً خَشَبٍ غَلِيظَةً مُدَبَّيَّةَ الطَّرْفِ يُلْبِغُ طَوْلَهَا نَحْوَ مِثْرٍ ، وَمِطْرَقَةً ثَقِيلَةً ، وَقَالَ :

« مَصَاصُوا الدَّمَاءَ لَا يَمُوتُونَ بِالْقَضَاءِ الْعُمَرِ ، وَلَكِنْهُمْ يَسْتَمِرُّونَ فِي الْحَيَاةِ ، يَتَعَدُّونَ بِالدَّمَاءِ ، وَيُحَوِّلُونَ غَيْرَهُمْ إِلَى مَصَاصِي دِمَائِهِمْ . وَهَكَذَا تَتَشَعُّ دَائِرَةُ اللَّامُوتَى عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ ، وَهَؤُلَاءِ الْأَطْفَالُ الَّذِينَ شَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ أَنْ يَتَأَثَّرُوا كَثِيرًا ، أَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ تُشْرَبُ دِمَاؤُهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَإِنَّهُمْ يَسْتَمِرُّونَهَا ، فَيَتَعَلَّمُونَ حُبَّ مَصَاصِ دِمَائِهِمْ وَبِئْسَ ثُمَّ يُصْبِحُونَ مَصَاصِي دِمَائِهِمْ بَعْدَ أَنْ يَمُوتُوا . أَمَّا أَنْتَ يَا صَدِيقِي آرْتَرُ فَلَوْ أَنَّكَ كُنْتَ مَنَحْتَهَا نَفْسَكَ لَكَانَ فِي ذَلِكَ خَطَرٌ أَيْ خَطَرٌ عَلَيْكَ ، وَلَكِنْ هُنَاكَ طَرِيقٌ لِكَيْ تُحَرِّزَ رُوحَ اللَّامُوتِ . تُحَرِّزُهَا مِنْ حَيَاةٍ كُلِّهَا شَرٌّ ، وَمِنْ آخِرَةِ كُلِّهَا عَذَابٌ أَبَدِي . » ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْكِطْرَقَةِ قَائِلًا :

« اُعْتَقِدْ أَنَّ أَمَامَكَ عَمَلًا مُقَدَّسًا تَقُومُ بِهِ .. أَنْ تَضْرِبَ ضَرْبَتَكَ وَتُقَيِّدَ رُوحًا ، إِنَّنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُومَ بِذَلِكَ ، وَلَكِنْ أَلَيْسَ مِنَ الْأَفْضَلِ لِذَلِكَ الَّذِي أَحَبَّهُ كَثِيرًا أَنْ يَقُومَ هُوَ بِهِ لِيُخَلِّصَهَا بِنَفْسِهِ ؟ »

فَقَالَ آرثر : « يَا صَدِيقِي الْكَرِيمُ ، أَخْبِرْنِي بِمَا أَفْعَلُ وَسَوْفَ أَقُومُ بِهِ . »

فَقَالَ فَاان هِيلِينِغ : « رَجُلٌ شَجَاعٌ . تَحْذُ قِطْعَةً الْخَشَبِ هَذِهِ وَضَعْتَ طَرَفَهَا الْمُدْبَبَ عَلَى قَلْبِهَا بِأَحْدَى يَدَيْكَ ، وَحِينَمَا أَنْتَهِيَ مِنْ تِلَاوَةِ الصَّلَاةِ عَلَى الْكَمِيَتِ مِنْ كِتَابِ الصَّلَوَاتِ هَذَا اضْرِبْ بِاسْمِ اللَّهِ . »

وَمَعَ أَنَّ آرثر كَانَ لَا يَزَالُ شَاجِبًا ، فَإِنَّهُ أَخَذَ قِطْعَةَ الْخَشَبِ بِيَدِ قُوَّةٍ ثَابِتَةٍ وَالْجِطْرَةِ بِالْيَدِ الْأُخْرَى . وَبَدَأَ فَاان هِيلِينِغُ فِي تِلَاوَتِهِ يَتِيمَا سَاعِدَ الذِّكُورِ سِيَوَارْدَ فِي وَضْعِ الْخَشَبَةِ فَوْقَ الْقَلْبِ مُبَاشَرَةً .

وَمَا إِنِ أَنْتَهَى الْبُروفسورُ مِنَ الصَّلَاةِ حَتَّى ضَرَبَ آرثرُ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ . فَاهْتَزَّ الْجَسَدُ الَّذِي فِي التَّابُوتِ اهْتِزَازًا عَنيفًا كَمَا لَوْ كَانَ تَعَرَّضَ لِصَلْمَةِ كَهْرَبَةٍ ، وَانْفَتَحَ الْفَمُ لِيُطْلِقَ صَيْحَةً جَهْلَتْ شَعْرُ رُؤُوسِهِمْ يَعْصِفُ كَأَنَّهُ شَعْرُ فِرْعَوْنَ . وَأَخَذَ الْجَسَدُ كُلَّهُ يَنْقَلِبُ بِمَنْةٍ وَبَسْرَةٍ ، وَأَخَذَتِ الْأَسْنَانُ الْحَادَّةُ تَنْفِرُجُ وَتَنْطَلِقُ ، حَتَّى أَحْمَرَّتِ الشَّفَتَانِ بِمَا الْبَشَقُ مِنْهُمَا مِنْ دَمٍ . وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ آرثرَ لَمْ يَتَوَقَّفْ ، وَكَانَتْ يَدُهُ الْيُمْنَى تَرْتَفِعُ بِالْجِطْرَةِ ثُمَّ تُهَوِي مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ كُلَّمَا تَوَغَّلَ طَرَفُ الْخَشَبَةِ أَعْمَقَ ثُمَّ أَعْمَقَ ، حَتَّى سَكَتَتْ حَرَكَةُ الْجَسَدِ الصَّارِيَةِ تَامًا ، وَأَنْتَهَى الْأَمْرُ .

قَالَ فَاان هِيلِينِغُ : « قَبْلَ أَنْ تُغَادِرُوا الْمَقْبَرَةَ القُوا نَظْرَةً أُخِيرَةً عَلَى وَجْهِ لُوسِي ، إِنَّهَا لَيْسَتْ الْآنَ وَاحِدَةً مِنْ عَالِمِ الْأَمْوَاتِ . »

فَنَظَرَ آرثرُ ، وَكَانَ مَا قَالَهُ الْبُروفسورُ صَحِيحًا ، فَبَعْدَ كُلِّ مَا كَانَ مِنْ دِمَاءٍ وَالْمِمْ ، كَانَتْ لُوسِي تَرْقُدُ فِي سَلَامٍ . لَمْ تَعُدْ مَصَاصَةً دِمَاءٍ ، وَإِنَّمَا صَارَتْ لُوسِي الَّتِي أَحَبَّهَا

وَالَّتِي خَلَصَهَا آخِرًا . وَمَالَ عَلَيْهَا فَقَبَّلَهَا لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ ، وَسَارَ مُتَوَلِّيًا إِلَى خَارِجِ الْمَقْبَرَةِ .. إِلَى ضَوْءِ الشَّمْسِ .

أَمَّا الطَّبِيبَانِ فَقَدْ قَطَعَا بَقِيَّةَ قِطْعَةِ الْخَشَبِ وَتَرَكََا الطَّرْفَ الْمُدْبَّبَ فِي قَلْبِهَا ، وَحَشَوْا فَمَهَا بِالْثَوْبِ ، وَفَصَلَا رَأْسَهَا عَنْ جَسَدِهَا ، ثُمَّ أَحْكَمَا إِغْلَاقَ التَّابُوتِ بِالْإِغْطَاءِ . وَبَعْدَ خُرُوجِهِمَا أَوْصَدَ الْبُيُوتِيسُورُ بَابَ الْمَقْبَرَةِ ، وَأَعْطَى آرْتَرُ الْكِفْتَاحَ ، ثُمَّ قَالَ :

« لَقَدْ انْتَهَى أَوَّلُ جُزْءٍ مِنْ عَمَلِنَا ، وَبَيَقَى بَعْدَ ذَلِكَ الْجُزْءُ الْأَعْظَمُ .. أَنْ نَجِدَ سَبَبَ الْبَلَاءِ الَّذِي نَزَلَ بِلُوسِي ثُمَّ نُدْمَرَهُ . كُلُّ مَا أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَهُ هُوَ : هَلْ أَنْتُمَا مُسْتَعِدَّانِ لِتَتْبَعَانِي لِمُوَاجَهَةِ مَخَاطِرِ أُخْرَى ؟ »

فَقَالَ جَاكُ سِيوارْدُ : « أَيْنَمَا تَذْهَبُ فَأَنَا مَعَكَ . إِنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْنَا أَنْ نَقْضِيَ عَلَى هَذَا الشَّرِّ . »

وَنَظَرَ الْإِثْنَانِ إِلَى آرْتَرُ ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا فِي حَاجَةٍ إِلَى سُؤَالِهِ . لَقَدْ كَانَتْ تَبْدُو فِي عَيْنَيْهِ نَظْرَةَ الرَّجُلِ الَّذِي لَا يُرِيدُ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا ، وَالَّذِي لَنْ يَهْذَأَ لَهُ بَالٌ إِلَّا إِذَا وَجَدَهُ .

الفصل الخامس عشر

وهكذا جند فان هيلسينغ جيشه الصغير ، ولكن أين العدو ؟ ففي حالة لوسي كانت خطوط المعركة واضحة ، والأمر هاهنا مختلف . ومع هذا ، فإن فان هيلسينغ لم يكن يستطيع الانتظار حتى يكثيف العدو عن نفسه . لقد كان من الرجال الذين لا يحبون التريص والانتظار . وفوق هذا ، فقد كان هناك أمر يمكن أن يفتق ، أما هذا الأمر فهو الذي فاده في اليوم التالي إلى محطة بادينغتون حيث انتظر وصول جوناثان وبيننا هاركر .

كان جوناثان منذ عودته من ترانسيلفانيا يعيش في هدوء . كان قد عانى من صدمة الجوع ، ولذلك أبقته مينا بعيدا عن لندن . أما الآن وقد تحسنت حالته فقد قررت أن يذهبا إلى لندن ليلتقيا بفان هيلسينغ الذي كان قد طلب لقاعهما مرارا .

وصل القطار ، وعادوا ثلاثتهم إلى الفندق الذي ينزل به فان هيلسينغ . وفي البداية روت قصة إقامتها مع لوسي في هويتبي وما وقع فيها من أحداث . وقد أعجب البروفيسور أي إعجاب بهذه الفتاة التي كانت تعرف كيف تتصرف في المواقف الصعبة . وبعد ذلك روى جوناثان قصته مع الكونت دراكولا ، ولم يستطع فان هيلسينغ بعد أن استمع إليه أن يكتفم مشاعره المستثارة فسأله : « ولكن لماذا لم تثنى أخذا بكل هذا من قبل ؟ »

فقالت مينا : « بروفيسور ، لقد مضت أسابيع قبل أن يسترد عافيتي ويصبح قادرا على رواية قصتي لأحد .. حتى لي أنا . ثم من ظن أنه كان يصدقني إلا أنا ؟ »

وحينئذ أخبرهما فان هيلسينغ بكل ما حدث بعد موت لوسي ، ثم قال لهما : « سوف نصدقان قصتي كما صدقت قصتكما ، ولكن — كما تقولين — من غيري وغيركما يصدق ؟ وهذا هو السبب في أننا نحن الذين يجب أن ننازل هذا الشر . إني أطلب إليكما أن تشاركانا في هذه المعركة ، وسوف تلقي الليلة عند الدكتور سيوارد . إنك يا سيده هاركر تعلمين أكثر من أي منا مدى الخطر الذي أسألك أن تواجهه . »

فَتَطَلَّعَتْ مِنَّا إِلَى رَجُلٍ جُونَانٍ الشَّاحِبِ الَّذِي رَحَّطَتْ إِلَيْهِ التُّجَاعِيدُ ، وَإِلَى شَعْرِهِ
الَّذِي وَخَطَهُ الْبَيَاضُ . تَطَلَّعَتْ إِلَيْهِ وَفِي صَدْرِهَا جِقْدٌ عَلَى قُوَّةِ الشَّرِّ الَّتِي جَعَلَتْ الرَّجُلَ
الَّذِي تُحِبُّهُ يَبْدُو مُسَيِّئًا قَبْلَ الْوَاوَانِ . ثُمَّ قَالَتْ : « سَوْفَ أَسَاعِدُكَ . »

وَقَالَ جُونَانٌ أَخِيرًا : « إِذَا سَاعَدْتُكَ مِنَّا فَإِنِّي سَأَسَاعِدُكَ كَذَلِكَ . »

وَبَدَا مِنَ الطَّرِيقَةِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا عِبَارَتُهُ أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ هَذَا الْقَرَارَ بِسُهُولَةٍ ، فَقَالَ فَإِنْ
هَيْلِسِينْغُ : « سَتَكُونُ بِأَنْتِظَارِكُمَا فِي السَّاعَةِ السَّابِعَةِ . إِنَّ مَا سَمِعْتَهُ مِنْكُمَا يَجْعَلُنِي عَلَى يَقِينٍ
أَنَّهُ لَيْسَ لَدُنَّا وَقْتُ لُصِيْعِهِ ، وَفِي الْوَأَقِيعِ رُبَّمَا سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ . »

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَنْ اجْتَمَعُوا وَتَبَاخَتُوا : « وَهَكَذَا أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ ، فَهَذِهِ هِيَ الْحَقَائِقُ الَّتِي
اكتشفناها عَنْ عَدُوِّنَا . وَطَبَقًا لِمَا تَكْشِفُ لَنَا ، فَهُوَ عَدُوٌّ قَوِيٌّ ، وَلَكِنْ لَهُ مَوَاضِعُ
ضَعِيفٌ . وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَهُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَكَانٍ يَسْتَرِيحُ فِيهِ أَثْنَاءَ سَاعَاتِ النَّهَارِ ،
فَإِذَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نُبَاغِتَهُ وَهُوَ فِي صَنْدُوقِهِ فَإِنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُدْمِرَهُ . »

فَقَالَ سِيوارْدُ : « إِذَا ، وَلَكِنَّا قَبْلَ ذَلِكَ نُرِيدُ أَنْ نَعْرِفَ أَيْنَ هَذِهِ الصَّنَادِيقُ ؟ »

فَرَدَّ فَإِنْ هَيْلِسِينْغُ : « نَحْنُ نَعْرِفُ — وَالْكَفْضَلُ فِي ذَلِكَ لَجُونَانِ — أَنَّهَا عَلَى بُعْدٍ بِضْعِ
مِائَةٍ مِنَ الْأُمْتَارِ مِنَ الْحَجَرَةِ الَّتِي نَجْلِسُ فِيهَا الْآنَ فِي مَنْزِلِ كَارْفَاكْسُ ؟ »

فَصَاحَ جَاكُ سِيوارْدُ وَآرْتَرَ هُولْمُودُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ تَقْرِيْبًا : « فِي مَنْزِلِ
كَارْفَاكْسُ ؟ »

كَانَ فَإِنْ هَيْلِسِينْغُ يُجِبُّ أَنْ يُبَيِّرَ دَهْشَةَ سَامِعِيهِ ، وَقَدْ أَخَذَتْ كُلِّمَاتُهُ الْأَثَرُ الَّذِي
أَرَادَهُ . قَالَ : « إِنَّ كَارْفَاكْسَ هُوَ يَنْتِظُ دِرَاكُولَا ، وَلَئِنْ أَنْ تَكُونُ الصَّنَادِيقُ فِيهِ . »

فَقَالَ سِيوارْدُ : « هَذَا يُبَسِّرُ حَالَةَ رِيْنْفِيلْدُ ، لَئِنْ أَنْ دِرَاكُولَا هُوَ الَّذِي أَثَارَهُ فِي ذَلِكَ
الْيَوْمِ . نَعَمْ ، مِنْذُ أُسْبُوعٍ أَوْ أُسْبُوعَيْنِ هَرَبَ مِنَّا رِيْنْفِيلْدُ ، وَتَبِعْنَاهُ إِلَى أَرْضِي كَارْفَاكْسُ ،
إِلَى أَبْوَابِ الْكَنِيسَةِ الْقَدِيمَةِ . لَئِنْ أَنْ تَكُونُ الصَّنَادِيقُ هُنَاكَ . »

فَصَاحَ آرْتَرُ : « مَاذَا نَحْنُ مُنْتَظَرُونَ ؟ هَيَّا بِنَا . »

وَلَمْ يَكُنْ فَاَن هَيْلَسِينْغُ يُحِبُّ الْإِسْتِمْعَالَ فَقَالَ : « لَيْسَ بِهَذِهِ السَّرْعَةِ . لَا بُدَّ أَنْ نُعِدَّ أَنْفُسَنَا أَوَّلًا . »

ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ جَنْبِهِ صَلِيْبًا صَغِيرًا ذَهَبِيًّا وَعَلَقَهُ حَوْلَ عُنُقِ جُونَاثَانَ الَّذِي كَانَ أَقْرَبَ الْجَمِيعِ إِلَيْهِ ، وَعَلَقَ مَعَهُ كَذَلِكَ عِقْدًا مِنْ زُهُورِ الثُّومِ أَخَذَهُ مِنْ صُنْدُوقِ كَانَ بِحُوزَتِهِ ، وَفَعَلَ الشَّيْءَ نَفْسَهُ مَعَ كُلِّ مِنْ سِيوَارْدَ وَآرْتَرُ . فَلَمَّا جَاءَ دَوْرُ مِينَا قَالَتْ : « يَا سَيِّدَةُ مِينَا ، لَنْ أَسْأَلَكَ أَنْ تُشَارِكِنِي فِي هَذِهِ الْمُهْمَةِ ، فَهِيَ لَيْسَتْ بِالْمُهْمَةِ الَّتِي تَقْوَى عَلَيْهَا النِّسَاءُ . لَقَدْ كَانَتْ رِحْلَتُكَ الْيَوْمَ طَوِيلَةً شَاقَّةً ، وَمِنْ حَقِّكَ أَنْ تُسْتَرِيحِي . »

فَقَالَتْ مِينَا إِنَّهَا لَيْسَتْ مُرَهَقَةً ، وَإِنَّهَا تَرْغُبُ فِي الذَّهَابِ مَعَهُمْ ، وَلَكِنْ فَاَن هَيْلَسِينْغُ لَمْ يَرْضَخْ لِرَغْبَتِهَا ، وَخَرَجَ الرِّجَالُ الْأَرْبَعَةُ وَخَذَهُمْ تَحْتَ سِتَارِ اللَّيْلِ . كَانَ جَاكُ سِيوَارْدَ قَدْ أَحْضَرَ مَعَهُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْمِفْتَاحَاتِ الْقَدِيمَةِ مُعَلَّقَةً فِي خَلْقَةٍ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَفْتَحَ بَابَ الْكَنِيسَةِ بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ مِفْتَاحًا ، وَاجِدًا بَعْدَ الْآخِرِ ، فَلَمْ يَفْلَحْ . أَمَّا الْخَامِسُ عَشَرَ فَقَدْ دَارَ فِي الْقِفْلِ فَانْفَتَحَ الْبَابُ إِلَى الدَّخْلِ دُونَ أَنْ يَدْفَعَهُ أَحَدٌ ، كَمَا لَوْ كَانَ ثَمَّةَ مَنْ يَتَوَقَّعُ قُدُومَهُمْ . وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ دَخَلَ فَاَن هَيْلَسِينْغُ الَّذِي رَسَمَ بِيَدِهِ الْكُتْمَى فِي الْهَوَاءِ عَلَامَةً الصَّلِيبِ . كَانَتْ الْأَرْضُ مُغَطَّاةً بِطَبَقَةٍ سَمِيكَةٍ مِنَ الثُّرَابِ مِمَّا جَعَلَ كَثِيرًا مِنْ آثَارِ الْأَحْذِيَةِ الَّتِي وَطِنَتْهَا وَاضِحَةً عَلَيْهَا ، وَكَانَ أَحَدُهَا أَكْثَرَ وَضُوحًا لِقُرْبِ عَهْدِهِ . أَمَّا الشَّيْءُ الَّذِي لَفَتْ أَنْظَارَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ فَقَدْ كَانَ الرَّايِحَةُ النَّفَّاذَةُ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ جُونَاثَانَ يَشْمُهَا حَتَّى قَالَ : « إِنَّهَا أَنْفَاسُهُ . إِنَّنِي أَذْكُرُ رَائِحَتَهَا جَيِّدًا . »

وَوَقَعَتْ أَنْظَارُهُمْ عَلَى الْقَوْرِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي جَاءُوا مِنْ أَجْلِهِ ، فَقَدْ كَانَتْ صِنَادِيقُ الثُّرَابِ مَرْصُوصَةً بِجَوَارِ الْجِدَارِ وَاجِدًا فَوْقَ الْآخِرِ ، وَلَكِنْ كَمْ كَانَ عَدَدُهَا ؟ لَقَدْ أَظْهَرَ الْحَصْرُ الْعَاجِلُ أَنَّ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ فَقَطْ كَانَتْ هُنَاكَ ، وَذَلِكَ مِنَ الْحُمُسِينَ صُنْدُوقًا .

وَحَرَّكَ فَاَن هَيْلَسِينْغُ لِسَانَهُ بِسِبَابٍ خَافِيَةٍ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ الْعَدُوَّ لَا يَزَالُ مَتَقَدِّمًا عَلَيْنَا . »



ثُمَّ بَدَأُ يُعِيدُ عَدَّ الصَّنَادِيقِ : « إِنِّانِ وَعِشْرُونَ ، ثَلَاثَةَ وَعِشْرُونَ .. »

ثُمَّ تَوَقَّفَ إِذْ كَانَ آرْتَرُ يُجَذِّبُ ذِرَاعَهُ لِيُنْبِئَهُ إِلَى شَيْءٍ مَا ، وَقَالَ آرْتَرُ : « أَلَا تُلَاحِظُ أَنَّ السَّمَكَانَ أَقَلُّ إِظْلَامًا مِمَّا كَانَ ؟ »

فَتَوَقَّفُوا جَمِيعًا عَنِ الْعَدِّ وَتَطَّلَعُوا حَوْلَهُمْ . كَانَ كُلُّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْهَيْئَةِ مُمْتَلِئًا بِمَا يُشْبِهُ نَقْطًا نَارِيَّةً خَمْرَاءَ ، ثُمَّ كَانَتْ هُنَاكَ تَحَرَّكَاتٌ صَغِيرَةٌ صَجِبَتْهَا أَصْوَاتٌ خَفِيفَةٌ . وَوَقَّفَ الْجَمِيعُ يُحَدِّثُونَ فِتْرَةَ قَصِيرَةٍ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ فَهِمُوا كُلُّ شَيْءٍ . كَانَتْ الْكَنِيسَةُ تَمُوجُ بِعِثَابٍ بِلَ بِالْأَلْفِ الْجُرْذَانِ . وَجَرَى الْجَمِيعُ نَحْوَ الْبَابِ ، وَلَكِنَّ الْجُرْذَانَ جَرَتْ نَحْوَهُمْ . كَانَتْ هُنَاكَ جُرْذَانٌ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ ، وَجُرْذَانٌ تَجْرِي فَوْقَ أَقْدَامِهِمْ ، وَجُرْذَانٌ تَسْلُقُ فَوْقَ سُرَاوِيلِهِمْ ، وَجُرْذَانٌ فِي شَعْرِ رُؤُوسِهِمْ . أَمَّا الْجُرْذَانُ السَّمَانُ الطَّوَلُ فَقَدْ تَعَلَّقَتْ بِأَسْنَانِهَا فِي مَلَابِسِهِمْ ، وَكَلَّمَا نَفَضُوهَا عَنْهُمْ حُلَّ مَحَلِّهَا الْكَزِيدُ وَالْكَزِيدُ ، وَكَانَتْ عَیُولُهَا تَلْمَعُ فِي الظَّلَامِ .

وَبَعْدَ لَأَيَّ اسْتِطَاعَا أَنْ يَلْغُوا الْبَابَ ، وَمَعَ أَنَّهُمْ شَعَرُوا بِالْأَمَانِ فِي الْخَارِجِ فَإِنْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَنْطَلِقْ لِإِسَائِهِ بِكَلِمَةٍ إِلَّا بَعْدَ مُضِيِّ فِتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ . وَأَخِيرًا قَالَ فَاان هِيلْسِينْغُ : « عِنْدَمَا نَعُودُ غَدًا فَمِنْ الْخَيْرِ أَنْ يُحْضِرَ آرْتَرُ كِلَابَهُ مَعَهُ . »

فَصَاحَ سِيوَارْدُ : « غَدًا ؟ إِنِّي لَا أُرِيدُ الْقَوْدَةَ إِلَى هُنَا أَبَدًا . »

فَرَدَّ فَاان هِيلْسِينْغُ : « إِنَّا مُضْطَرُونَ إِلَى الْقَوْدَةِ رَضِينَا أَمْ كَرِهْنَا . لَا بُدَّ أَنْ نُدْمِرَ الصَّنَادِيقَ . »

وَفِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَحْكُنْ فَاان هِيلْسِينْغُ يُفَكِّرُ فِي الصَّنَادِيقِ الَّتِي يَعْتَرِمُونَ تَذْمِيرَهَا ، وَإِنَّمَا الَّذِي كَانَ يُقْلَعُ هُوَ الصَّنَادِيقُ الَّتِي لَيْسَتْ هُنَاكَ . إِنَّ وَاجِدًا وَعِشْرِينَ صُنْدُوقًا قَدْ ثَقُلَتْ مِنْ كَارْفَاكْسٍ وَلَا بُدَّ مِنَ الْعَثُورِ عَلَيْهَا .

الفصل السادس عشر

يَتِمُّ الرِّجَالُ الأَرْبَعَةُ جَالِسُونَ حَوْلَ المَائِدَةِ يَتَنَاوَلُونَ طَعَامَ الإفْطَارِ قال فان هيلسينغ :
« واحدٌ وعِشْرُونَ صُنْدُوقًا مَفْقُودَةً ، وَ مِنْ المُحْتَمَلِ أَنْ تُكُونَ فِي أَيِّ مَكَانٍ . »

فَقَالَ آرْتَرُ : « إِنَّ وَاحِدًا وَعِشْرِينَ صُنْدُوقًا تُؤَلَّفُ جَمَلًا كَبِيرًا ، فَإِذَا كَانَتْ قَدْ نُقِلَتْ
لِهَارَا فَمِنْ المُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الَّذِينَ فِي المُسْتَشْفَى قَدْ لَاحَظُوا نُقْلَهَا . وَمَعَ ذَلِكَ
فَإِنَّ كَارْفَاكْسَ قَرِيبَةٌ جِدًّا ، وَلَا بُدَّ أَنْ الصُّنَادِيقُ نُقِلَتْ خِلَالَ الأَسَابِيعِ الثَّلَاثَةِ الأَخِيرَةِ . »

وَفَجْأَةً وَضَعَ الدُّكْتُورُ سِيوَارْدَ فَنَجَّانَ الشَّيْءَ بِعَجَلَةٍ عَلَى المَائِدَةِ وَ سَارَعَ بِالخُرُوجِ مِنَ
الْحُجْرَةِ ، ثُمَّ عَادَ بَعْدَ لَحْظَاتٍ وَ فِي يَدِهِ قُصَاصَةٌ وَرَقٍ ، وَ الدُّهْشَةُ تَعْلُو وَجْهَهُ أَصْدِقَانِهِ ،
وَ صَاحَ : « كَانَ يَتَبَنَّى أَلَّا يَقُوْنِي التَّفَكُّيرُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ... أَغْنَى : فِي تَقْرِيرِ دُكْتُورِ
هَيْنْسِي . » ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ مُهَاجِمَةِ يَنْفِيلْدَ لِحِمَائِلِي عَرَبَةِ الثَّقَلِ ، وَ كَيْفَ أَنَّ دُكْتُورَ
هَيْنْسِي أَخْطَأَ لِلأَمْرِ فَسَجَّلَ اسْمَهُمَا تَحْشِيَةً أَنْ تُحْدِثَ مَتَاعِبٌ مَعَ الشَّرْطَةِ فِيمَا بَعْدَ . ثُمَّ
قَالَ :

« وَهَا هُمَا الإِسْمَانِ ، توماس سِنِيلِنِغ ، وَ جُونِيفِ سُمُولِيْتِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْفِيلْدَ قَدْ
عَرَفَ أَتُهُمَا كَانَا يَتَقَلَّانِ دِرَاكُولَا فِي أَحَدِ هَذِهِ الصُّنَادِيقِ . »

وَقَدْ أَحْسَّ فَاِنْ هِيلْسِينِغِ بِأَرْتِيَاكِ حِينَمَا سَمِعَ الْخَبَرَ الَّذِي جَاءَ بِهِ الدُّكْتُورُ سِيوَارْدَ ،
وَبَدَأَ يَضَعُ الخُطَطَ مِنْ جَدِيدٍ . وَ بِنَاءً عَلَى الخُطَّةِ ذَهَبَ جُونَانَانِ إِلَى لَنْدَنِ لِلْبَحْثِ عَنْ
حِمَائِلِي عَرَبَةِ الثَّقَلِ ، وَ الإِهْتِدَاءِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي نَقَلَ إِلَيْهِ الصُّنَادِيقُ . أَمَّا الثَّلَاثَةُ الْآخَرُونَ
فَقَدَّ عَادُوا إِلَى كَارْفَاكْسَ . وَ لَمْ يَكُنِ الْمَكَانُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ مُرْغِبًا كَمَا كَانَ بِالْأَمْسِ ،
وَلَمْ تُكُنْ هُنَاكَ حَاجَةٌ إِلَى الْكِلَابِ الَّتِي أَخْضَرَهَا آرْتَرُ مَعَهُ لِتُبْعِدَ الْبُحْرَدَانَ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ
هُنَاكَ أَتَى مِنْهَا ، وَ لَا كَانَتْ هُنَاكَ أَتَى جُئَّةً فِي أَيِّ مِنَ الصُّنَادِيقِ . وَلِذَلِكَ كَانَ مِنَ السَّهْلِ
عَلَى الْبُرُوفِيسُورِ أَنْ يَفْتَحَ كُلَّ صُنْدُوقٍ وَ يَضَعَ فِي دَاخِلِهِ قِطْعَةً مِنَ الْخُبْزِ الْمَقْدَسِ . وَ مَعْنَى
هَذَا أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ مَصْصُورٌ دِمَاءً أَنْ يَسْتَقِرَّ فِيهَا بَعْدَ ذَلِكَ .

لَمْ تُكُنْ مِينَا فِي صَبْحَةٍ طَيِّبَةٍ ، وَ كَانَتْ تَبْدُو شَاجِبَةً الْوَجْهِ وَ هِيَ تُجْلِسُ لِتَتَنَاوَلَ

الإفطار في الوقت الذي عاذ فيه الرجال . وفيما بعد ، قامت بجولة في المستشفى مع الدكتور سيوارد ، وكان يروي لها قصة ينفيها التي أثارت اهتمامها ، حتى بلغا حجرة قد خلقتها مع الطبيب . كان ينفيها يبدو هادئا ، بل لقد كان ودودا ألما في هذا اليوم ، وبدا عليه أنه معجب بينما التي استأذنت الطبيب في أن تقضي معه بعض الوقت لتحدث إليه . وبعد ظهر ذلك اليوم كان دكتور سيوارد مشغولا بعمله ، كما كان البروفيسور مشغولا بقراءة كتاب في الحديقة ، أما آرثر فقد أخذ كلابه في جولة للتريض . وفيما بعد ، وصلت برقية من جوناثان يقول فيها إنه لم يته من تحريكه بعد ، وأنه قرر أن يقضي الليل في لندن . وبعد أن قضى الآخرون أمسية طيبة مجتمعين ، انصرفوا إلى مضاجعتهم واجدا بعد الآخر . ولكن يبدو أن هذا اليوم الذي انقضى هادئا لم يعد لهم الإغداة الكافي لمواجهة الليلة التي كانت تنتظرهم . ففي الدقيقة العشرين بعد منتصف الليل استيقظ فان هيلسينغ على صيحة مرعبة . وبينما هو يرتدي بعض ثيابه سمع وقع أقدام شخص يجري في الدلميز نحو حجرة الدكتور سيوارد . وتبين أنه الحارس الليلي جاء ليخبر أن ينفيها قد أصيب . وحينما وصل الطبيب إلى حجرة ينفيها شاهدا ممددا على الأرض ، وأنه وجهت إلى رأسه ضربة شديدة هسنت عظمة الرأس وضغطتها إلى الداخل وكان الرجل لا يزال حيا ، ولكنه يتنفس بصعوبة .

قال فان هيلسينغ : « أخضر حقيقتك . لا بد أن تتخلص من الضغط الذي تحدثه العظمة المكسورة . لا بد أن تقصها فوراً وإلا فإنه سيموت . »

فرد سيوارد : « سوف يموت لا محالة . لقد كانت الضربة في غاية العنف . لا يمكن أن تكون الإصابة نتيجة مجرد سقوط . »

قال فان هيلسينغ وهو يخلع الشعر الملوّث بالدم لينظف المكان الذي سيحدث فيه القصر : « إذا أمكنه أن يجبرنا بما حدث له فربما كان هذا عوناً لنا . »

وقد نجحت محاولات الطبيب وظهرت نتائجها في الحال ، إذ أفتحت عينا ينفيها وبدأت شفتاه تتحركان ، ثم قال : « لقد جاء . »

فقال سيوارد : « استمر . »

فَمَضَى يَقُولُ : « .. مِنْ خِلَالِ الثَّافِذَةِ فِي الضَّبَابِ ، مِثْلَمَا جَاءَ فِي اللَّيْلَةِ الْأَمَاضِيَةِ . وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَسْعَى إِلَى دِمَاءٍ . لَقَدْ كَانَتْ السَّيِّدَةُ هَارِكَرَ طَبِيبَةً مَعِي ، وَكَانَ يَسْعَى إِلَى دِمَهِهَا ، وَحَاوَلْتُ أَنْ أَمْنَعَهُ فَطَرَحَنِي أَرْضًا . »
وَحَفَّتْ صَوْتٌ رِنْفِيلْدَ الْمُسْكِينِ حَتَّى أَصْبَحَ مِنَ الصَّعْبِ سَمَاعُهُ ، ثُمَّ سَكَتَ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَجَسَّ دُكْتُورُ سِيوارْدُ نَبْضَهُ ... لَقَدْ مَاتَ !

لَمْ يَتَبَسَّ أَيُّ مِنَ الطَّبِيبِينَ بِكَلِمَةٍ ، وَإِنَّمَا اتَّذَفَعُوا إِلَى الطَّابِقِ الْمُلَوَّنِ حَيْثُ اتَّقَيَا فِي طَرِيقِهِمَا بَارْتَرُ ، وَاتَّجَهُوا مُبَاشَرَةً إِلَى حُجْرَةِ مِينَا . وَتَوَقَّفُوا عِنْدَ بَابِهَا وَأَنْصَتُوا ، وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ هَادِئًا فِي دَاخِلِ الْحُجْرَةِ ، فَهَلْ كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَتَّقُوا بِمَا فَاءَ بِهِ رَجُلٌ مَجْنُونٌ فِي لَحْظَةٍ أَحْتِضَارِهِ ؟

وَقَالَ فَنان هِيلْسِينْغُ وَهُوَ يُحَاوِلُ فَتْحَ الْبَابِ فِي حَذَرٍ وَرَفَقٍ : « إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ . »

كَانَ الْبَابُ مُوصَّدًا ، فَأَنْدَفَعَ آرْتَرُ عَلَى الْفُورِ وَأَلْقَى بِجَسَدِهِ عَلَيْهِ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ ، فَانْفَتَحَ الْبَابُ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ مِمَّا أَدَّى إِلَى أَنْ يَهْوِيَ الْكُورُفِيسُورُ عَلَى الْأَرْضِ . وَحِينَ تَهَضُّ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى مَنْظَرٍ جَمَدَ الدَّمُ فِي عُرْوِهِ ، وَظَلَّ لَحْظَةً لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ نَفْسَهُ عَنِ الْأَرْضِ .

كَانَ دِرَاكُولَا وَاقِفًا ، وَكَانَ ظَهْرُهُ مُسْتَبِدًّا إِلَى الْجِدَارِ الَّذِي فِي أَقْصَى الْحُجْرَةِ ، وَكَانَ يُمَسِّكُ بِيَمِينِهِ لَصِيقَةً بِهِ ، وَذِرَاعُهُ الْيُمْنَى تَقْبِضُ عَلَى رَأْسِهَا وَتُدْفَعُ بِهِ لِحَا وَصَدْرِهِ . كَانَا يَتَدَوَّانِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ كَأَنَّهُمَا عَاشِقَانِ . وَلَكِنْ فَنان هِيلْسِينْغُ لَمَحَ جُرْحًا مَفْتُوحًا فِي عُنُقِ مَصْصَاصِ الدَّمَاءِ ، وَخَطَأً رَفِيعًا مِنَ الدَّمِ يَسِيلُ عَلَى صَدْرِهِ . كَانَ دِرَاكُولَا يَضْغَطُ عَلَى وَجْهِهِ مِينَا إِلَى أَسْفَلِ فَوْقَ صَدْرِهِ لِتُرْغِمَهَا عَلَى أَنْ تَشْرَبَ مِنْ دِمِهِ كَمَا يُرْغِمُ الْفَرَسُ قِطًّا صَغِيرًا عَلَى شَرْبِ اللَّبَنِ .

وَمِنْ حُسْنِ الْحِطِّ ، أَنَّ دِرَاكُولَا قَدْ أَخَذَتْهُ الْمُفَاجَأَةُ كَمَا أَخَذَتْهُمْ ، فَقَدْ كَانَتْ عَيْنَاهُ
تُبْدُوَانِ كَدَائِرَتَيْنِ مِنْ نَارٍ ، يَتَمَّا كَانَ فَمُهُ مَفْغُورًا ، وَبَادَرَ إِلَى الْفَاقِ مِينَا عَلَى السَّرِيرِ وَقَدْ



آخَرَ وَجْهَهَا وَفَمِصُّ نَوْمِهَا مِمَّا عَلَقَ بِهَا مِنْ دِمَاءٍ . وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كَانَ يَتَأَهَّبُ فِيهَا لِكَيْ يَقْفِزَ كَانَ فَنان هِيلْسِينغ قد تَمَكَّنَ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى قَدَمَيْهِ وَرَفَعَ الصَّلِيبَ فِي يَدِهِ وَوَجْهَهُ نَحْوَ دِرَاكُولَا ، وَاتَّقَدَى بِهِ كُلُّ مِنْ سِيوَارْدَ وَآرْتِرُ بِصَلْبَيْهِمَا . أَمَّا مَصْصُ الدِّمَاءِ فَقَدْ أَطْلَقَ صَرْخَةً ، وَفِي اللَّحْظَةِ تَسَلَّلَتْ ضَبَابَةٌ إِلَى الْحَجَرَةِ وَخِيَمَتْ عَلَيْهَا ، وَلَمْ تَكُذْ تَنْقَشِغْ حَتَّى كَانَ الْكُوْنْتُ قَدْ ذَهَبَ .

وَأَنْقَضَتْ سَاعَةٌ قَبْلَ أَنْ تَسْتَعِيدَ مِينَا قُدْرَتَهَا عَلَى الْكَلَامِ ، إِذْ كَانَتْ الصَّدْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْهَا شَدِيدَةً . قَالَتْ مِينَا : « لَقَدْ كَانَ أَشْبَهَ بِحُلُمٍ .. جُلِمَ رَأْيَتُهُ فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ كُنْتُ عَلَى وَشَلِكْ أَنْ يُدْرِكَنِي الثَّعَاسُ حِينَمَا ظَهَرَ إِلَى جَوَارِي رَجُلٍ لَامِعٍ الْغَيْتَيْنِ ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيَّ ، فَخَارَتْ قَوَايَ كُلُّهَا . ثُمَّ .. » وَبَدَأَ كَأَنَّمَا تُعَانِي مَشَقَّةً فِي الْأَسْتِمْرَارِ فِي كَلَامِهَا ثُمَّ قَالَتْ : « ثُمَّ فَتَحَ فَمِصُّهُ ، وَأَنْشَبَ أَظْفَرُهُ فِي عُنُقِهِ فَأَخَذَتْ جُرْحًا تَزَفَتْ دِمَاؤُهُ ، وَجَعَلَنِي أَشْرَبَ مِنْ دَمِهِ . وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَشْرَبُ ، وَكَانَ ذَلِكَ رَغْمًا عَنِّي ... بَيْنَمَا كُنْتُ أَشْرَبُ .. قَالَ .. » ثُمَّ تَوَقَّفَتْ .

فَقَالَ فَنان هِيلْسِينغ : « حَاوِلِي الْأَسْتِمْرَارَ يَا عَزِيزَتِي . »

فَمَضَتْ تَقُولُ : « قَالَ : الْآنَ أَصْبَحْنَا وَلَنَا دَمٌ وَاحِدٌ ، وَغَقْلٌ وَاحِدٌ . لَقَدْ سَاعَدَتِ أَعْدَائِي ، وَلِكَيْلِكَ سَوْفَ تُسَاعِدُنِي عَاجِلًا . »

لَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ ؛ إِذْ مَاذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولُوا لِإِسَاعِدُوها ؟ وَمَضَتْ مِينَا تَقُولُ وَالْذُمُوعُ تَنْهَبُ مِنْ عَيْنَيْهَا ، وَهِيَ تُمَسِّكُ يَدَيَّ فَنان هِيلْسِينغ : « وَلَكِنْ هَلْ صَحِيحٌ يَا بَرُوفيسور ؟ هَلْ سَأُظَلُّ أَسِيرَةً لِدِرَاكُولَا مُرْتَبِطَةً بِهِ إِلَى الْأَبَدِ ؟ وَحِينَمَا أَمُوتُ ، أَلَا بُدَّ أَنْ أَصْبِحَ وَاحِدَةً مِنْ هَؤُلَاءِ ؟ »

فَرَدَّ فَنان هِيلْسِينغ وَهُوَ يَبْدُو أَكْبَرَ سِنًا وَأَشَدَّ بَيَاضَ شَعْرِ مِمَّا هُوَ : « يَا ابْنَتِي ، إِنَّكَ مَعَ أَصْدِقَاءَ يُضْحَكُونَ بِحَيَاتِهِمْ لِكَيْ تَكُونِي آمِنَةً . لَقَدْ تَهَاوَنَّا فِي الْحِفَاطِ عَلَيْكَ ، وَلَكِنَّا لَنْ نَتَهَاوَنَ بَعْدَ الْآنَ . إِذَا كَانَ دِرَاكُولَا يَظُنُّ أَنَّهُ كَسَبَ شَيْئًا فِي هَذِهِ الْجَوْلَةِ فَهُوَ مُخْطِئٌ . لَقَدْ كَانَ لَدُنَّا مِنْ قَبْلِ سَبَبٍ كَافٍ يَدْفَعُنَا لِتَدْمِيرِهِ ، أَمَّا الْآنَ فَإِنَّ هَذَا السَّبَبَ أَصْبَحَ أَقْوَى مِمَّا كَانَ أَلْفَ مَرَّةً . »

الفصل السابع عشر

عاد جوناثان في الصباح التالي وهو يشعر — على غير العادة — بالرضا عن نفسه ، فقد أهدى إلى ثلاثة أماكن أرسلت إليها الصناديق . فخمسة منها أرسلت إلى مايل إند في شرقي لندن ، وسبعة إلى وولورث في جنوب لندن ، وتسعة إلى رقم ١١٨ في بيكاديلي . وكانت وجوه أصحابه الحزينة التي قابلوه بها في المستشفى تيم عن أمر ما ، مما جعله مستعيدا لتلقي الأخبار السيئة عن مينا . ومع ذلك فقد وقع الخبر عليه وقع الصاعقة . وأولا أن مينا نفسها كانت في غاية الشجاعة لفقد كل ما كان قد استرده من قوة في الجسم والعقل في الأسابيع القليلة الماضية .

كان الاجتماع الذي عقده الأصدقاء في مكتب الطبيب لقاء غير سعيد . لقد حدث تغير في اللعبة . فمن قبل ، ربما كان يكفي أن تدمر الصناديق ، ويضطر دراكولا إلى مغادرة إنجلترا ، أما الآن فقد أصبح من الضروري أن يدمر دراكولا نفسه إذا أهدأ إلقاء مينا . لقد شرب من دم مصاص الدماء ، ولا يعلم أحد منهم متى يبدأ الشر ويقع البلاء .

ولكنهم — على الأقل — كانوا يعلمون الآن إلى أين لقيت الصناديق ، وإذا لم يكن دراكولا قد قام بتوزيعها حول لندن — مرة أخرى — فمن الممكن تدميرها . ولكن دكتور سيوارد أثار أول مشكلة ، إذ قال : « كيف نتمكن من دخول المنازل التي بها الصناديق ؟ »

فرد جوناثان متسائلا : « كيف نتمكن الكونت من دخولها ؟ نحن نعلم أن له أساليبه في الدخول . ولكنّه عادة — نستخدم مفاتيح ، ولا بد أنه يحتفظ بهذه المفاتيح في مكان ما . ونزل بيكاديلي يقع في وسط لندن . ولو كنت مكانه لاحتفظت بالمفاتيح فيه . »

فقال الطبيب : « هذا صحيح . ولكن لا يزال علينا أن ندخل هذا المنزل . وليس

مِنَ السَّهْلِ أَنْ تَتَسَلَّلَ إِلَى مَنْزِلٍ كَبِيرٍ كَهَذَا يَقَعُ فِي حَيِّ مَأْهُولٍ مِنْ أَحْيَاءِ لَنْدَنَ ، وَ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ ، دُونَ أَنْ يُبْلَغَ أَحَدُ الشَّرْطَةِ . »

وَ كَانَ الرَّؤُودُ عِنْدَ آتْرَرِ الَّذِي قَالَ : « أَتْرَكُوا لِي هَذِهِ الْكُمِئَةَ . كُلُّ مَا أَسْتَأْجِ إِلَى هُوَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الثِّيَابِ الثَّمِينَةِ . »

فَنَظَرُوا إِلَيْهِ مَذْهُوشِينَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْفِظْ بِكَلِمَةٍ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَبْدُو وَهُوَ مُتَأَكِّدٌ تَمَامًا أَنَّ الْبُرُوفِيسُورَ قَرَّرَ أَنْ يَتَّقَى فِي حُطَّتِهِ أَيْبَا كَانَتْ هَذِهِ الْحُطَّةُ . وَلَكِنْ بَقِيََتْ هُنَاكَ صُعُوبَةٌ وَاحِدَةٌ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يُمَكِّنُ أَنْ يَتْرَكُوا مِينَا فِي رِعَايَتِهِ .

فَسَأَلَتْ مِينَا : « وَلِمَاذَا لَا أَصْحَبُكُمْ إِلَى لَنْدَنَ ؟ »

فَقَالَ الْبُرُوفِيسُورُ : « لِأَنَّ الْعَمَلَ الَّذِي تَقُومُ بِهِ لَنْ يَكُونَ مِنْ نَوْعِ الْعَمَلِ الَّذِي تَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَهُ النِّسَاءُ . »

فَقَالَتْ مِينَا : « بُرُوفِيسُورَ ، إِنَّ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ قَبْلُ ، وَالَّذِي عَانَيْتُ مِنْ قَبْلُ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ نَوْعِ الْعَمَلِ الَّذِي تَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَهُ النِّسَاءُ ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ وَعَانَيْتُهُ . إِنِّي ذَاهِبَةٌ مَعَكُمْ ، وَسَوْفَ تَرَى أَنِّي لَنْ أَخَافُ . »

وَ فِي هَذِهِ الْأَمْرَةِ لَمْ يَكُنْ لَدَى فَاَن هِيلْسِينْغِ مَا يُجِيبُ بِهِ ، وَذَهَبَتْ مِينَا مَعَهُمْ .

عِنْدَمَا اقْتَرَبُوا مِنْ لَنْدَنَ ارْتَدَى آتْرَرُ الْمَلَابِسَ الثَّمِينَةَ ، وَبَدَأَ كَأَنَّهُ آتِنْ لُورْدَ ، ثُمَّ غَادَرَ الْمَحْطَةَ وَخَذَهُ فِي عَرَبَةٍ ، وَقَالَ لَهُمْ وَهُوَ يَتْرَكُهُمْ : « أَمْهِلُونِي سَاعَةً وَاحِدَةً فَقَطْ . »

وَبَعْدَ مُضِيِّ السَّاعَةِ تَمَامًا كَانَ فَاَن هِيلْسِينْغِ وَ سِيُورْدَ يَسْرَانِ إِلَى بِيكََادِيلِي ، وَ عَلَى بُعْدِ أَرْبَعِينَ مِثْرًا خَلَفَهُمَا سَارَ جُونَاثَانُ وَمِينَا كَأَنَّهُمَا لَا يَعْرِفَانِيهِمَا . وَحِينَمَا مَرَّ الْبُرُوفِيسُورُ وَ سِيُورْدَ بِالْمَنْزِلِ رَقِمَ ١١٨ أَخَذَتْهُمَا الدَّهْشَةُ إِذْ رَأَيَا أَنَّ الْبَابَ نِصْفُ مَفْتُوحٍ وَ شَاهَدَا أَخَذَ الْعَمَالُ يَقُومُ بِعَمَلِهِ مَا فِي الْقَفْلِ . فَتَوَقَّفا وَ تَنَظَّاهَا بِأَنَّهُمَا يَتَأَمَّلَانِ فِي مَعْرُوضَاتِ أَحَدٍ

المتاجر المجاورة ؛ لِكَيْلَا يَلْتَمِا إِلَيْهِمَا الْأَنْظَارُ . وَقِيلَ أَنْ يَصِلَ جَوَانِبَانِ وَمِنَا فُتِحَ بَابُ الْمَنْزِلِ كَامِلًا ، وَظَهَرَ آرْتَرُ مِنَ الدَّاعِلِ فَأَعْطَى الْعَامِلَ بَعْضَ الثَّقُودِ ، ثُمَّ حَمَلَ الْعَامِلُ حَقِيَّتَهُ وَانْصَرَفَ .

وَأَلْتَقَى الْجَمِيعُ دَاخِلَ الْمَنْزِلِ فَأَغْلَقُوا الْأَبَابَ ، وَوَقَفُوا فِي الْبَهْوِ يَتَحَدَّثُونَ . وَهَجَّ الْبُروفيسور سؤاله إلى آرتر : « كَيْفَ تَأْتِي لَكَ أَنْ تَفْعَلَ هَذَا ؟ »

فَابْتَسَمَ آرْتَرُ وَقَالَ : « ذَهَبْتُ إِلَى حَانُوتِ لَيْبِشِ الْأَقْفَالِ ، وَقُلْتُ إِنَّ خَادِمِي الْأَحْمَقَ سَافِرٌ وَمَعَهُ كُلُّ مَفَاتِيحِي وَإِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ دُخُولَ مَنْزِلِي ، وَسَأَلْتُهُمْ مَا إِذَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ فَتَحَ بَابَهُ ، فَأَرْسَلُوا أَحَدَ عُمَّالِهِمْ مَعِي . حَقِيقَةٌ لَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ فِي غَايَةِ الْبَسَاطَةِ . »

فَسَأَلَ سِيوارد : « وَلَكِنْ ... أَلَمْ يَسْأَلُوكَ عَمَّنْ تَكُونُ ؟ »

فَأَجَابَ آرْتَرُ : « إِنَّهُمْ فِي لَنْدَنَ يُصَدِّقُونَ الرَّجُلَ الَّذِي يَبْلَسُ ثِيَابًا أُنِيفَةً مَا دَامَ يَبْدُو وَإِنَّمَا مِنْ نَفْسِهِ . »

وَهَكَذَا شَرَعُوا يَتَحَدَّثُونَ فِي الطَّابِقِ الْأَرْضِيِّ حَتَّى وَجَدُوا الصَّنَادِيقَ فِي حُجْرَةِ خَلِيفَةِ كَرِيمَةِ الرَّائِحَةِ ، وَقَالَ فَاَن هِيلْسِينْغ : « تِسْعَةٌ ! الْحَمْدُ لِلَّهِ ، فَإِذَا كَانَ الْكَوْنُوتُ فِي وَاجِدٍ مِنْ هَذِهِ فَلَنْ نَكُونَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْإِسْتِمْرَارِ فِي الْبَحْثِ . »

وَتَرَكَ الْبُروفيسور الْآخَرِينَ لِيَقُومُوا بِفَتْحِ الصَّنَادِيقِ ، وَصَعِدَ هُوَ إِلَى الطَّابِقِ الْعُلُويِّ وَدَخَلَ الْحُجْرَةَ الْكُبْرَى الَّتِي تُبْلَلُ عَلَى الشَّارِعِ . وَكَانَ فِي وَسْطِ الْحُجْرَةِ مِنْصُدَّةٌ عَلَيْهَا فِرْجُونٌ شَعْرٌ ، وَفِرْجُونٌ مَلَايْسَ ، وَفِنْجَانٌ قَدِيمٌ بِهِ قَلِيلٌ مِنَ الْمَاءِ . وَبَدَأَ كَمَا لَوْ كَانَ الْمَاءُ قَدْ اسْتَحْدَمَ فِي إِزَالَةِ دَمٍ . وَكَانَ هُنَاكَ مِفْتَاحَانِ أَيْضًا . فَأَخَذَهُمَا وَهَبَطَ إِلَى الطَّابِقِ الْأَرْضِيِّ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتِي كَانُوا يَفْتَحُونَ فِيهَا الصَّنَادِيقَ الْآخِرَ . وَتَبَيَّنَ أَنَّ دِرَاكُولَا لَمْ يَكُنْ فِي أَيِّ مِنَ الصَّنَادِيقِ الثَّلَاثَةِ ، وَلَكِنْ فَاَن هِيلْسِينْغَ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَقِيقَةِ يَتَوَقَّعُ أَنَّ يَكُونُ مَحْظُوظًا إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ ، وَكَانَ فِي جَعْبَتِهِ خُطُطٌ أُخْرَى .

قَالَ الْبُروفيسور : « جاك ، سَوْفَ تَذْهَبُ إِلَى مَايلِ إند ، أَمَّا آرثرُ وَجوناثانُ فَيَذْهَبَانِ إِلَى وولوارث ، وَهَآكُمُ الْخَفَاتَيْنِ ، وَلَا تَنْسُوا أَنْ تَتَوَقَّفُوا فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ الْفُنْدُقِ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ لِكُنِّي تَأْخُذُوا الْحَقِيقَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَحْتَوِيَانِ عَلَى كُلِّ مَا نَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي مُهِمَّتِكُمْ . أَمَّا مِنَا وَأَنَا فَسَتَبْقَى هُنَا ، وَحَاولُوا أَنْ تَعُودُوا إِلَى هُنَا قَبْلَ حُلُولِ الظَّلَامِ . »

انْصَرَفَ الرَّجَالُ الثَّلَاثَةُ وَبَقِيَ فَانْ هِيلْسِينْغَ وَمِنَا فِي الْمَنْزِلِ وَحَدَهُمَا ، فَصَعِدَا إِلَى الطَّابَقِ الْعُلَوِيِّ ، وَجَلَسَا إِلَى الثَّانِدَةِ يَنْتَظِعَانِ إِلَى الشَّارِعِ الْمُرْدَجِمِ . وَكَانَا يُحَاولَانِ أَلَّا يُفَكِّرَا فِي الصَّنَادِيقِ الَّتِي فِي الطَّابَقِ الْأَرْضِيِّ ، أَوْ فِي الْكَمَاءِ الْمَصْنُوعِ بِالدِّمِ فَوْقَ الْمِضْطَدَةِ خَلْفَهُمَا ، أَوْ فِي أَنْفَاسِ مَصْصَايِ الدَّمَاءِ الَّتِي كَانَتْ تُسْرِي فِي الْهَوَاءِ .

كَانَا يَعْلَمَانِ أَنَّهُمَا فِي أَمَانٍ فِي الثَّهَارِ ، وَلَكِنْ مَا إِنَّ ظَهَرَتْ بِوَادِرِ الْكَمَاءِ ، وَفَقَدَ الثَّهَارُ إِشْرَاقَهُ حَتَّى بَدَأَ فَانْ هِيلْسِينْغَ يَنْتَابُهُ الْفَلَقُ . هَبَّ أَنْ الْأَصْدِقَاءُ تَأَخَّرُوا وَأَنْ دِرَاكُولَا الْغَضَبِ الثَّالِثَ عَادَ إِلَى الْمَنْزِلِ فِي قُوَّتِهِ وَجَبْرُوتِهِ .

وَفِي حَوَالِي السَّاعَةِ السَّابِعَةِ كَانَتْ هُنَاكَ طَرَفَاتٌ غَنِيَّةٌ عَلَى الْبَابِ الْأَمَامِيِّ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ جَاكُ سِيوَارْدُ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ وَجَدَ الْمَنْزِلَ وَالصَّنَادِيقَ الْخَمْسَةَ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ دِرَاكُولَا فِي أَيِّ مِنْهَا كَهَذَاكَ .

وَمَرَّتْ نِصْفُ سَاعَةٍ ، وَأَخَذَتِ الظُّلْمَةُ تَرْخُفَ رُؤْيَا رُؤْيَا ، وَقِيلَ أَنْ يُعَمَّ الظَّلَامُ الْمَكَانَ إِذَا بِالْبَابِ يُطْرَقُ ثَانِيَةً ، وَدَخَلَ آرثرُ وَجوناثانُ . وَلَكِنْ لَا أَثَرَ لِدِرَاكُولَا . لَقَدْ وَجَدَا سِتَّةَ صُنَادِيقٍ خَالِيَةٍ ، أَمَّا السَّابِعُ فَمَفْقُودٌ . يَالَهَا مِنْ أَخْبَارٍ سَيِّئَةٍ ! إِنَّ عُدُوَّهُمْ لَا يَزَالُ طَلِيقًا ، وَأَمَّا الْمَكَانُ الَّذِي يَحْتَبِي فِيهِ فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ مَجْهُولًا .

قَالَ فَانْ هِيلْسِينْغَ : « وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ فِي مَازِقٍ ، وَسَوْفَ يَزُورُ صُنَادِيقَهُ ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ سَيَأْتِي فِي وَقْتٍ مَا اللَّيْلَةُ إِلَى هُنَا ، وَيَتَبَغَى أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدَّيْنِ لَهُ . إِنَّ فُرْصَتَنَا فِي قَتْلِهِ لَيْسَتْ كَبِيرَةً وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ نَنْتَهِزَهَا إِذْ رُبَّمَا لَا نَتَّاحُ لَنَا فُرْصَةٌ أُخْرَى . »

وَطَالَ أَيْتَارُهُمْ فِي الْحُجْرَةِ الْخَلْفِيَّةِ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ قَبْلَ أَنْ يَطْرُقَ أَسْمَاعُهُمْ صَوْتُ
الْمِفْتَاحِ فِي الْبَابِ الْأَمَامِيِّ ، وَحَانَ الْوَقْتُ لِتَأْخُذُوا أَهْتَهُمْ . كَانَ فَا ن هِيلْسِينْغُ يَقِفُ
مُوجِّهًا الْبَابَ ، وَآزَنَرُ إِلَى يَمِينِهِ ، وَسِيوارْدُ إِلَى يَسَارِهِ ، وَوَقَفْتُ مِينَا فِي أَحَدِ أَرْكَانِ
الْحُجْرَةِ . أَمَّا جُونَاتَانُ فَكَانَ يَقِفُ خَلْفَ الْبَابِ مُنْسِكَا بِالسَّكِّينِ الْهِنْدِيِّ الطَّوِيلِ الَّذِي
كَانَ يَدْبِخُهُ لِهُذِهِ اللَّحْظَةِ .

وَسَبَعُوا وَقَعَ أَقْدَامُ خَبِرَةٍ فِي الْبَهْوِ ، وَمَضَتْ لَحْظَةُ سُكُونٍ ، وَفَجْأَةً تَهَاوَى الْبَابُ
كُلَّهُ وَسَقَطَ ، وَانْتَصَبَ دِرَاكُولَا فِي الْحُجْرَةِ بَيْنَهُمْ . أَهْوَى عَلَيْهِ جُونَاتَانُ بِطَعْنَةٍ ، وَلَكِنْ
دِرَاكُولَا كَانَ أَسْرَعَ فَفَقَزَ إِلَى أَحَدِ الْجَوَانِبِ كَمَا يَقْفِزُ الْقِطُّ ، فَلَمْ يُصِِبِ السَّكِّينُ إِلَّا
سُتْرَتَهُ مُخَدِّنًا فِيهَا ثَقْبًا وَاسِعًا . وَتَسَافَطَتِ الثُّقُودُ الْوَرِيَّةُ وَالذَّهْبِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا ،
وَعِنْدَمَا كَانَ فَا ن هِيلْسِينْغُ يَتَقَدَّمُ مِنْهُ وَالصُّلْبُ فِي يَدِهِ أَخَذَ وَجْهَ الْكَوْنَتِ بِتَحَوُّلٍ إِلَى
أَصْفَرٍ مُخَضَّرٍ .

وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كَانَ جُونَاتَانُ يَتَأَهَّبُ فِيهَا لِلطَّعْنَةِ الثَّانِيَةِ وَتَبَّ الْكَوْنَتِ فَالْقَى بِنَفْسِهِ
تَحْتَ ذِرَاعِهِ الَّتِي تَحْمِلُ السَّكِّينَ مُتَحَاشِيًا الضَّرْبَةَ ، وَالتَّقَطَّ فِي طَرِيقِهِ خُفْنَةٌ مِنَ الثُّقُودِ الَّتِي
عَلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ انْدَفَعَ مُلْقِيًا بِنَفْسِهِ مِنَ النَّافِذَةِ .

وَحِينَ سَمِعَ الْأَصْدِقَاءُ صَوْتَ تَهَشُّمِ الرُّجَاجِ وَرَيْنِ بَعْضِ الذَّهَبِ الَّذِي سَقَطَ ،
سَارَعُوا إِلَى النَّافِذَةِ فِي الْوَقْتُ الْمُنَاسِبِ لِكَيْ يَرَوْا دِرَاكُولَا يَنْهَضُ مُتَنَاقِلًا فِي السَّمَرِ الَّذِي يَقَعُ
خَلْفَ الْمَنَزِلِ ، وَتَطْلُعَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَصِيحُ :

« إِنَّكُمْ تَأْمَلُونَ تَدْمِيرِي . إِنَّكُمْ تَطُنُّونَ أَنَّكُمْ تَرْتَكِمُونِي بِلَا مَأْوَى أُسْتَرِيحُ فِيهِ ، وَلَكِنْ
لَدَيَّ الْمَزِيدُ . إِنْ مِهُمَّتِي لَمْ تَبْدَأْ إِلَّا الْآنَ .. الْآنَ فَقَطْ ، وَإِنَّ الْوَقْتَ فِي صَالِحِي . »

ثُمَّ أَشَارَ بِأَصْبَعٍ غَطَّاهَا الشَّعْرُ إِلَى مِينَا قَائِلًا : « إِنَّهَا أَصْبَحَتْ بِلَكِّي ، وَسَوْفَ
أَدْمُرُكُمْ كُلَّكُمْ . »



ثُمَّ انْطَلَقَ يَعْدُو بَيْنَ ظِلَابِ الظَّلَامِ ، وَبَعْضَ مِنَ الْعَمَلَةِ الذَّهَبِيَّةِ يَتَسَاقَطُ مِنْهُ فَيُحْدِثُ رَنِينًا .

وَقَالَ الْيُورُفِسُورُ : « إِنَّهُ يَنْطَلِقُ بِكَلِمَاتٍ حَمَاسِيَّةٍ شُجَاعِيَّةٍ ، وَلَكِنْ الْوَاقِعُ أَنَّهُ يَخْشَانَا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَفَعِمَ هَذِهِ الْعَجَلَةُ الْمَحْمُومَةُ ؟ وَفِيمَ هَذِهِ الْحَاجَةُ — الَّتِي تُبْدُو مُلْبَحَةً — إِلَى كُلِّ هَذِهِ التَّقَوُّدِ ؟ »

قَالَ دُكْتُورُ سِيوَارْدُ : « وَمَعَ هَذَا يَا يُورُفِسُورُ فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَحْمِلُكَ مَكَانًا لِلِاسْتِرَاحَةِ لَا تَعْلَمُ أَيْنَ هُوَ . إِنَّهُ يَزْدَادُ خَبْرَةً بِمُرُورِ الْوَقْتِ . هَلْ هُوَ حَقِيقَةً فِي حَاجَةٍ إِلَى كُلِّ هَذِهِ الصَّنَادِيقِ الثَّرَائِيَّةِ ؟ حِينَمَا غَادَرَ تَرَالْسِيلْفَالِيَا كَانَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا فَعَلًا ، وَلَا يَزَالُ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ الْآنَ . وَلَكِنْ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ لَدَيْهِ الْقُدْرَةَ عَلَى إِتْجَادِ أَمَاكِينِ جَدِيدَةٍ لِلِاسْتِرَاحَةِ ، فَمَا مَوْفَقُنَا مِنْهُ الْآنَ ؟ قَدْ نَكُونُ مَهْزُومِينَ أَمَانَةً ، وَقَدْ نَلْجَأُ إِلَى الْإِخْتِفَاءِ سَنَوَاتٍ ، وَفِي خِلَالِ هَذِهِ السَّنَوَاتِ مَنْ يَذَرِي ؟ »

وَأَذْرَكَ الْبَاقُونَ ثَمَامًا مَاذَا كَانَ يَعْني بِهِذِهِ الْعِبَارَةُ الْأَخِيرَةُ . مَا الَّذِي سَيُصِيبُ مِنَّا ؟ هَلْ مِنَ الْمُسْتَطَاعِ حَقًّا إِتْقَادُ مِنَّا ؟

الفصل الثامن عشر

كَانَتْ وَجْبَةُ الْإِنْفَاطِرِ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّالِي وَجْبَةُ الصَّمْتِ وَالسُّكُونِ ، إِذْ كَانُوا جَمِيعًا مَشْغُولِينَ بِالتَّفْكِيرِ : مَاذَا تَكُونُ الْخُطْوَةُ الثَّالِيَّةُ ؟

وَنَزَلَتْ مِنَّا إِلَيْهِمْ مُتَأَخِّرَةً ، فَبَادَرَهَا دُكْتُورُ مِيوَارْدَ بِالسُّؤَالِ : « كَيْفَ حَالُكَ الْيَوْمَ يَا مِينَا ؟ »

فَاجَابَتْ : « مُتَعَبَةٌ قَلِيلًا . لَقَدْ رَأَيْتُ أَحْلَامًا كَثِيرَةً فِي اللَّيْلِ الْمَاضِيَةِ . »

فَسَأَلَ الطَّبِيبُ الَّذِي كَانَ دَائِمًا يَرَى أَنَّ لِلْأَحْلَامِ أَهَمِّيَّتَهَا : « أَحْلَامًا شَائِقَةً ؟ »

فَاثْبَسَتْ مِينَا وَقَالَتْ : « لَيْسَتْ شَائِقَةً فِي الْوَاقِعِ ، فَقَطُّ مُخْتَلِفَةٌ . لَقَدْ رَأَيْتُ نَفْسِي كَأَنَّمَا أَنَا فِي زَوْزَقٍ وَأَنْتِي أَسْمَعُ خَرِيرَ مَاءٍ ، لَا شَيْءَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا . وَلَكِنَّ الْحُلْمَ ظَلَّ يُعَادِيَنِي مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى . »

فَسَأَلَهَا : « حِينَمَا هَاجَمَكَ دِرَاكُولَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، أَلَمْ يَقُلْ إِنَّكَ وَإِلَاهُ أَصْبَحْتُمَا مِنْ دَمٍ وَاحِدٍ وَعَقْلٍ وَاحِدٍ ؟ »

قَالَتْ : « شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ . »

فَسَأَلَ الطَّبِيبُ وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَى فَاِنِ هِيلْسِينْغِ : « هَلْ مِنْ الْأَشْمَكِينَ بِالنِّسْبَةِ لِمِينَا فِي حَالَتِهَا الْحَاضِرَةِ ، أَنْ تَدْخُلَ فِي عَقْلِ دِرَاكُولَا بَيْنَمَا هِيَ نَائِمَةٌ ؟ »

أَجَابَ الْبَرْوفيسُورُ : « هَذَا تَفْكِيرٌ لَهُ وَجَاهَتُهُ . »

فَسَأَلَ الطَّبِيبُ : « إِذَا لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ تَفْكِيرٍ لَهُ وَجَاهَتُهُ بَلْ كَانَ حَقِيقَةً وَاقِعَةً فَمَاذَا تُفَسِّرُ الْحُلْمَ الَّذِي رَأَتْهُ مِينَا عَنْ الْأَمَاءِ ؟ »

تَدْخُلُ جوناثان في الْحَدِيثِ قَائِلًا : « لِمَاذَا أحتاجُ دراكولا إلى كُلِّ هَذِهِ الثُّقُودِ ؟ »

أَجَابَ الْبُروفيسور : « إِنَّهُ في حَاجَةٍ مُلِحَّةٍ إِلَيْهَا بِدَلِيلٍ أَنَّهُ تَوَقَّفَ لِيَلْتَقِطَ مِنَ الْأَرْضِ بَعْضًا مِنْهَا وَهُوَ خَارِجٌ . هَلْ مِنَ الْمُمَكِنِ أَنْ يَكُونَ دراكولا مُعْتَرِضًا مُعَادَرَةً إِنْجِلْترا ؟ »

كَانَ الْبُروفيسور يُعَبِّرُ عَمَّا يَجُولُ فِي أَذْهَانِهِمْ جَمِيعًا مِنْ أَفْكَارٍ . وَمَضَى يَقُولُ : « نَرَى هَلْ بَلَّغْنَا مِنَ النُّجَاحِ مَعَهُ أَكْثَرَ مِمَّا نَصَوَّرْنَا ؟ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُ الْآنَ يَتَمَلَّكُهُ الرُّغْبُ ، فَهُوَ يَرَى أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُجَسُّ بِالْأَمَانِ فِي لَنْدَنَ ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَتَّقِ لَدَيْهِ غَيْرَ صُنْدُوقٍ وَاحِدٍ . إِنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّنَا نَتَعَقَّبُهُ ، وَلِلذَلِكَ يُفَكِّرُ فِي الْهَرَبِ عَنْ طَرِيقِ الْكَمَاءِ فِي سَفِينَةٍ عَائِدًا إِلَى وَطَنِهِ . لَا ، نَحْنُ لَمْ نَتَهَزَمْ بَعْدَ . إِنَّ الْمُطَارَدَةَ مُسْتَمِرَّةٌ . »

وَتَسَاءَلْتُ مِينَا فِي حُزْنٍ : « وَلَكِنْ لِمَاذَا ؟ أَكِيدُ أَنَّهُ يَكْفِيكُمُ أَنْ تَدْفَعُوهُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ هَذَا الْبَلَدِ . فَلِمَاذَا تُعْرِضُونَ أَلْفُسَكُمْ لِلزَّيْدِ مِنَ الْأَحْطَاظِ بِتَعَقُّبِهِ فِي الْبَحْرِ ؟ »

فَاتَّخَذَ فَاان هِيلْسِينغُ يَدَيْهَا كِلْتاهِمَا فِي يَدَيْهِ وَتَطَلَّعَ فِي عَيْنَيْهَا قَائِلًا : « يَا سَيِّدَةُ مِينَا ، إِنَّ لَدُنَّا رُوحًا لَرِيدًا أَنْ نُخَلِّصَهَا مِنْ إِسَارِهَا . مُنْذُ أَسْبُوعٍ مَضَى كَانَ مِنَ الْمُمَكِنِ أَنْ نَكْتَفِي بِمَا قُلْتِ ، أَمَّا الْآنَ فَعَلَيْنَا أَنْ نَجِدَهُ حَتَّى وَلَوْ اضْطَرَّرْنَا إِلَى الذَّهَابِ إِلَى الشَّيْطَانِ نَفْسِهِ . »

فَبَكَتْ مِينَا مُتَأَثِّرَةً بِكَلِمَاتِهِ ، بَلِ الرِّجَالُ أَلْفُسُهُمْ أَحْسُوا بِالدَّمُوعِ تَرَقَّرَقُوا فِي أَعْيُنِهِمْ . وَلَكِنْ فَاان هِيلْسِينغُ أَسْرَعَ بِرَدِّهِمْ إِلَى جَوْ الْعَمَلِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُمْ فَقَالَ لَهُمْ : « تَذْكُرُوا ، لَيْسَ لَدَيْنَا دَلِيلٌ حَتَّى الْآنَ عَلَى أَنْ مَا يُرَاوِدُ أَفْكَارَنَا صَحِيحٌ ، فَعَلَيْنَا أَنْ تَبْحَثَ عَمَّا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ سَفِينَةٌ غَادَرَتْ لَنْدَنَ فِي اللَّيْلَةِ الْخَامِضَةِ مُتَّجِهَةً إِلَى الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ ، ثُمَّ عَلَيْنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ نَعْرِفَ مَا كَانَتْ تَحْمِلُهُ هَذِهِ السَّفِينَةُ . »

وَلَمْ يَكُنْ مِنَ التَّسْمِيرِ أَنْ يَهْتَدُوا إِلَى هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ ، فَإِذَا كَانَ دراكولا قَدْ غَادَرَ لَنْدَنَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ رَكِبَ سَفِينَةً وَاحِدَةً هِيَ كَأَثَرَيْنِ الَّتِي أَقْلَعْتُ مُتَّجِهَةً إِلَى فَاانَا فِي السَّاعَةِ السَّادِسَةِ صَبَاحَ ذَلِكَ الْيَوْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ جوناثان فِي نَفْسِ الْيَوْمِ إِلَى الْمَكْتَبِ الْمَسْنُونِ

عَنِ السَّفِينَةِ: وَعَادَ بِقِصَّةٍ مُثْمَرَةٍ . وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّ رَجُلًا طَوِيلًا نَحِيلًا يَرْتَدِي مَلَابِسَ سُودَاءَ زَارَ الْمَكْتَبَ فِي سَاعَةِ مَتَأَخَّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَعَرَضَ مَبْلَغًا كَبِيرًا مِنَ التَّقْوِدِ نَظِيرَ شَحْنِ صُنْدُوقٍ إِلَى فَارِزَا . وَلَمْ يَكُنِ الصُّنْدُوقُ مَعَهُ ، فَأَخْبَرَهُ الرَّبَّانُ أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ فَاتَ لِأَنَّ السَّفِينَةَ سَتَقْلَعُ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ . وَلَكِنْ عِنْدَمَا حَاطَتْ سَاعَةُ الْإِفْلَاحِ ظَهَرَ فِي الْأُفُقِ ضَبَابٌ كَثِيفٌ ، وَأَضْطُرَّتِ السَّفِينَةُ إِلَى الْإِلْتِظَارِ . وَحِينَئِذٍ عَادَ الرَّجُلُ ذُو الْمَلَابِسِ السُّودَاءِ وَهُوَ يَسُوقُ عَرَبَةً تَحْمِلُ الصُّنْدُوقَ ، وَشَحَنَهُ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ . ثُمَّ أَفْرَجَ الضَّبَابُ ، وَأَقْلَعَتِ السَّفِينَةُ .

فَقَالَ فَاان هِيْلْسِينْغ بَعْدَ أَنْ اكْتَهَى جُونَاثَان مِنْ رَوَايَةِ قِصَّتِهِ : « يَا أَصْدِقَائِي ، إِنَّا جَمِيعًا .. نَعْمُ جَمِيعًا » وَكَرَّرَ الْكَلِمَةَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى مِينَا ، وَاسْتَمَرَ يَقُولُ : « سَتَقُومُ بِرِخْلَةٍ . إِنَّ هَذِهِ السَّفِينَةَ — حَتَّى مَعَ الْاسْتِعَانَةِ بِالرَّيْحِ الَّتِي يُسَيِّطِرُ عَلَيْهَا دِرَاكُولَا — سَوْفَ تَسْتَعْرِقُ ثَلَاثَةَ أُسَابِيحٍ لِكَيْ تُصِلَ إِلَى فَارِزَا ، أَمَّا نَحْنُ فَسَوْفَ نَأْخُذُ الْقِطَارَ وَنَسْتَقْبِلُهُ عِنْدَ وُصُولِهِ . إِنْ لِقَاءَنَا الثَّالِي بِالْكَوْلْتِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ اللَّقَاءُ الْأَخِيرَ . »

القسم الخامس تراسلانيا ... مرة ثانية

الفصل التاسع عشر

بدأ جوناثان حزينا وهو يُعَادِرُ القطارَ في فارنا في أواخر شهر أكتوبر (تشرين الأول) .
وكانَ أَصْدِقَاؤُهُ قَدْ بذلوا كُلَّ جَهْدٍ لِكَيْ يَجْعَلُوهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ مينا بخير . وَكَانَ جَمِيلًا أَنْ يَفْعَلُوا
ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ البروفيسور وَ دكتور سيوارد يُراقبانها يَوْمِيًّا لِكَيْ يَعْرِفَا مَا قَدْ بَطَرَأَ
عَلَيْهَا مِنْ تَغْيِيرٍ فِي أَسْنَانِهَا ، وَ فِي عَيْنَيْهَا ، وَ فِي بَشَرَتِهَا . ذَلِكَ أَنَّ دَمَ مَصْصِ الدَّمَاءِ أَشْبَهُ بَعْضُهُ
أَلْكَلْبِ الْمَسْعُورِ ، فَهُوَ يُحْدِثُ تَأْثِيرَهُ يُبطِئُ ، وَلَكِنْ أَثَرُهُ أَكْبَدُ . وَلَيْسَ هُنَاكَ وَسِيلَةٌ لِإِنْقَاذِ
الضَّحِيَّةِ الَّتِي شَرِبَتْ مِنْ دَمِهِ إِلَّا بِمَوْتِ مَصْصِ الدَّمَاءِ نَفْسِهِ .

وَكَانَتْ هُنَاكَ تَغْيِيرَاتٌ طَافِيَةٌ قَدْ بَدَأَتْ تَظْهَرُ فِي نَظَرَاتِهَا . وَ فِي بَعْضِ أَوْقَاتٍ كَانَتْ تُظَلُّ
صَابِئَةً صَمْتًا غَيْرَ طَبِيعِيٍّ ، وَكَانَ جوناثان يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا الصَّمْتُ الْمُتَكَرِّرَ يُبِيرُ الْقَلْقَ فِي
الطَّبِيبِينَ . كَانَتْ الْخُطَةُ الَّتِي أَعَدُّوْهَا بَسِيطَةً ، فَقَدْ دَبَّرُوا الْأَمْرَ قَبْلَ مُغَادَرَتِهِمْ لَنَدَنٍ لِكَيْ تُرْسَلَ
إِلَيْهِمْ بَرَقِيَّاتٌ تُطْلِعُهُمْ أَوَّلًا بِأَوَّلٍ عَلَى تَحَرُّكَاتِ السَّفِينَةِ كَاثِرِينَ . كَمَا أَنَّهُمْ أَلْمَعُوا مَكْتَبَ
السَّفِينَةِ فِي فَارْنَا أَنَّ عَلَيْهَا صُنْدُوقًا يَحْتَوِي عَلَى بَضَائِعَ مَسْرُوقَةٍ ، وَ أَتَّفَقَ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَمَا تُصِلُ
السَّفِينَةُ سَيَصْنَعُدُ مَعَهُمْ إِلَى ظَهْرِهَا مَنْدُوبٌ مِنَ الْمَكْتَبِ يَنْفَتَحُ الصُّنْدُوقَ . فَإِذَا قَسَرَ لَهُمْ
الصُّعُودُ إِلَى السَّفِينَةِ فَسَوْفَ يَقْتُلُونَ دِرَاكُولًا ، وَلَنْ يَدْعُوا أَحَدًا بِحَوْلِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ذَلِكَ .

وَقَالَ البروفيسور : « إِنَّ الشَّرْطَةَ لَنْ تُسَبِّبَ لَنَا أَيَّةَ مُنَاعَبٍ ، إِذْ لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ جُنَّةٌ . فَمَا
إِنْ يَدْخُلُ الطَّرَفُ الْمَذْبُوبُ قَلْبَ مَصْصِ الدَّمَاءِ حَتَّى يَتَحَلَّلَ جَسَدُهُ كُلُّهُ وَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ
يُثَبِّتَ أَنَّنَا قَتَلْنَا أَحَدًا . »

فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ أُوْتُوبَرِ كَانَ الْأَصْدِقَاءُ يَجْلِسُونَ فِي الْفُلْدُقِ حَيْثُ

تَلَقُّوا بَرْقِيَّةً تَقُولُ : « تُفِيدُ التُّقَايِرُ أَنَّ السَّفِينَةَ كَاثِرِينَ فِي الدَّرْدَنِيلِ الْيَوْمَ . »

كَانَ الْحَبِيرُ مُثِيرًا ، فَقَدْ كَانَ يَعْنِي أَنَّ هُنَاكَ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَاعَةً تَسْتَعْرِقُهَا السَّفِينَةُ مِنَ الدَّرْدَنِيلِ حَتَّى فَارُزَا . وَ كَاتَبَ الْبَرْقِيَّةَ مُورِّحَةً فِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ ، وَ هَذَا يَعْنِي أَنَّهَا سَتَصِلُ هَذَا الصَّبَاحَ ، وَ رُبَّمَا بَعْدَ الظُّهْرِ ، وَأَيًّا كَاتَبَ أَحَالَ فَاِئْهَا سَتَصِلُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ .

وَلَكِنْ حَلَّتِ السَّاعَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ وَلَمْ تَصِلِ السَّفِينَةُ كَاثِرِينَ . وَ انْقَضَتْ فِتْرَةٌ مَا بَعْدَ الظُّهْرِ وَلَمْ تُكُنْ ثَمَّةُ أَخْبَارٍ عَنْهَا ، وَقِيلَ إِنَّ هُنَاكَ ضَبَابًا فِي بَعْضِ الْأَمَاكِينِ ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَأْخِيرِ وُصُولِهَا . وَلِذَلِكَ أُوتُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَهُمْ مُبْتَسِئُونَ ، عَلَى أَنَّ يَتَنَاوَبَ الرِّجَالُ السَّهَرِ وَاجِدًا بَعْدَ الْآخَرِ طَوَالَ اللَّيْلِ فِي تَرْقُبٍ .

وَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ رَأَتْ مِينَا فِي مَنَامِهَا الْمَاءَ كَذَلِكَ ، وَفُسِّرَ الْأَحْنَامُ بِأَنَّ دِرَاكُولًا — عَلَى الْأَقْلَى — لَا يَزَالُ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ .

وَمَرُّ الْيَوْمِ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ كَمَا مَرَّ سَابِقُهُ ، وَلَكِنْ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ وَصَلَتْ بَرْقِيَّةٌ أُخْرَى تَقُولُ : « تُفِيدُ التُّقَايِرُ أَنَّ السَّفِينَةَ كَاثِرِينَ تَدْخُلُ غَالَاتِرَ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ . »

غَالَاتِرَ ؟ إِنَّ غَالَاتِرَ تَفْعُ عَلَى بُعْدِ ثَلَاثِيَّةٍ كِيلُو مِثْرَ تَجَاةِ الشَّمَالِ عَلَى الدَّانُوبِ ! إِنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى جِصْنِ دِرَاكُولَا مِنْهَا إِلَى فَارُزَا بِمِقْدَارِ ثَلَاثِيَّةٍ كِيلُو مِثْرَ . يَأْثُرِي مَا الَّذِي حَدَّثَ ؟

كَانَ آرْتَرُ أَوَّلَ الْمُتَحَدِّثِينَ فَقَالَ : « هُنَاكَ قِطَارٌ يُغَادِرُ إِلَى غَالَاتِرَ فِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ مَسَاءَ اللَّيْلَةِ ، إِذَا أَخَذْنَا هَذَا الْقِطَارَ فَأَيُّنَا تَسْتَطِيعُ أَنْ نَصِلَ فِي أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً . »

كَانَ آرْتَرُ أَخَذَ أَوَّلِيكَ الَّذِينَ يَحْتَفِظُونَ بِجَدَاوِلِ الْمُوَاسَلَاتِ فِي رُؤُوسِهِمْ . وَ هَكَذَا وَصَلُوا إِلَى غَالَاتِرَ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّالِي ، وَ كَانَ رُبَّانُ السَّفِينَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ الَّذِي قَابَلُوهُ مُتَعَارِفًا مَعَهُمْ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ فَرَوَى لَهُمْ قِصَّةَ غَرِيبَةٍ . حَلَلْنَاهُمْ عَمَّا صَادَقَهُمْ فِي الْبَحْرِ مِنْ حَظٍّ طَيِّبٍ

على غير العادة إذ كاتب الرِّيح مواتية حتى البحر الأسود . ثم حَدَّثَهُمْ عَنِ الضَّبَابِ الْكَثِيفِ الَّذِي حَجَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَاسْتَمَرَّ أَيَّامًا ، وَعِنْدَمَا انْقَضَعَ الضَّبَابُ إِذَا بِهِمْ فِي الدَّانُوبِ عَلَى مَقَرِّبَةٍ مِنْ غَالَاتِرْ ، وَبِمَا أَنَّ الْأُورَاقَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالصُّنْدُوقِ تَقُولُ « غَالَاتِرْ ، عَنْ طَرِيقِ قَارَظَا » فَقَدْ كَانَ مِنَ الْبَدِيِّ حِينَما يَتَقَدَّمُ شَخْصٌ لِتَسْلِمِ الصُّنْدُوقِ أَنْ يُسَلِّمَهُ لَهُ .

فَسَأَلَهُ ثَان هِيلْسِينْغ : « مَا اسْمُ هَذَا الشَّخْصِ ؟ »

أَخَذَ الرِّبَّانُ يَتَحَتَّ فِي أَوْرَاقِهِ ثُمَّ قَالَ : « هَا هُوَذَا هِيلْدشَايم ، إِنَّهُ تَاجِرٌ . »

فَشَكَرُوا لِلرِّبَّانِ مُعَاوَنَتَهُ الصَّادِقَةَ ، ثُمَّ غَادَرُوا السَّفِينَةَ وَذَهَبُوا إِلَى الْمَدِينَةِ يَتَحَوَّنَ عَنْ هِيلْدشَايم الَّذِي أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا عَنِ الصُّنْدُوقِ . كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ تَلَقَّى تَعْلِيمَاتٍ مِنْ لَنْدَنَ لِكَيْ يُسَلِّمَهُ إِلَى وَكِيلٍ يُدْعَى بِيْتِرْ سَكِينْسْكِي يَتَعَامَلُ مَعَ السُّلُوفَاكْ ، وَهُمْ يَدُورِهِمْ يَتَقَلَّبُونَ الْبَضَائِعَ مِنْ مَنَاجِ الْأَنْهَارِ وَمَصَابِهَا إِلَى غَالَاتِرْ .

وَقَصَدُوا إِلَى سَكِينْسْكِي فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي مَكْتَبِهِ أَوْ فِي بَيْتِهِ . وَقَالَ جِيرَانُهُ إِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْهُ مُنْذُ الْبَارِحَةِ . وَبَيْنَمَا كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ إِلَى الْجِيرَانِ جَاءَ صَبِيٌّ بَحْرِيٌّ لَاهِئًا وَهُوَ شَدِيدُ الْإِضْطِرَابِ ، وَقَالَ إِنَّ سَكِينْسْكِي رُجِدَ مُلْقًى قُرْبَ سَاحَةِ الْكَنِيسَةِ وَقَدْ مَرَّقَ عُنُقَهُ سَرٌّ مُزْمَرٌ ، كَمَا لَوْ كَانَ قَدْ نَهَشَهُ حَيَوَانٌ ضَارٍ . وَمَا كَاذُ يَتِّمُ كَلَامَهُ حَتَّى هُرِغَ الْجِيرَانُ نَحْوَ الْكَنِيسَةِ ، وَبَقِيَ الْبُرُوفِيسُورُ وَأَصْحَابُهُ وَخَدَمُهُمْ .

وَقَالَ ثَان هِيلْسِينْغ : « أَتَقَعُّدُ أَنَّ السَّيِّدَ سَكِينْسْكِي لَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى مُسَاعَدَتِنَا الْآنَ ، وَلَكِنَّمَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُكْشِفَ الدُّوْرَ الَّذِي قَامَ بِهِ فِي تَنْفِيزِ خُطْطِ دِرَاكُولَا . إِنَّ الصُّعُوبَةَ الْكَمَالَةَ أَمَامَ دِرَاكُولَا الْآنَ هِيَ كَيْفَ يَعُودُ إِلَى حِصْنِهِ . فَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَافِرَ بِطَرِيقِ بَرِّيٍّ فِي عَرَبَةٍ أَوْ فِي الْقِطَارِ ، أَوْ بِطَرِيقِ نَهْرِيٍّ . »

« أَمَّا الطَّرِيقُ الْبَرِّيُّ فَهُوَ بَطِيءٌ وَفِيهِ مَخَاطِرٌ ، وَأَمَّا الْقِطَارُ فَهُوَ سَرِيعٌ وَلَكِنْ يَفْتَقِرُ إِلَى مَنْ يَتَوَلَّى رِعَايَةَ الصُّنْدُوقِ . ثُمَّ إِنَّ التَّوَقُّفَاتِ فِي الْمَحَطَّاتِ قَدْ تُكَوِّنُ فِيهَا مَخَاطِرٌ ، وَالَّذِي

يبدو لي هُوَ أَنْ نَعَامِلَهُ مَعَ سكينسكي يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ سَافَرَ بِطَرِيقِ النَّهْرِ . هَا هِيَ ذِي خَرِيطَةٍ ، وَأَنْتَ ذُو خَيْرَةٍ بِالْإِقْلِيمِ يَا جُونَانَانَ ، فَأَيُّنَ تَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ ؟

وَتَظَرَّ جُونَانَانَ إِلَى الْخَرِيطَةِ وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ هَذَا الْجُزْءَ مِنَ الْإِقْلِيمِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ قَدْ تَعَلَّمَ الْكَثِيرَ مِنْ كُتُبِ الْبُكُولَتِ .

كَانَ هُنَاكَ نَهْرَانِ يَصْبَانِ فِي الدَّانُوبِ مِنَ الشَّمَالِ ، نَهْرُ بَرُوثَ وَنَهْرُ سِيرِثَ . وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْجِمَاحَةَ فِي نَهْرِ بَرُوثَ أَفْضَلُ بِالنِّسْبَةِ لِلزُّوَارِقِ ، أَمَّا نَهْرُ سِيرِثَ فَهُوَ يَلْتَقِي بِنَهْرِ بِيَسْتَرِيَتَزْ عِنْدَ فُونْدُو ، وَهُوَ يَسِيرُ مُحَاضِيًا لِبَطْرِيقِ بِيَسْتَرِيَتَزْ الْجَبَلِيَّةِ وَلِذَلِكَ قَالَ جُونَانَانَ : « فَلْتَتَّبِعْ نَهْرَ سِيرِثَ . »

فَقَالَ ثَان هِيلْسِينْغَ : « وَهُوَ كَذَلِكَ . وَاعْتَمِدْ أَنَّ الْخُطَّةَ الَّتِي يَتَّبِعِي أَنْ نَتَقَدَّهَا هِيَ أَنْ نَأْخُذَ آرْتِرَ وَجُونَانَانَ زَوْرَقًا بُخَارِيًّا إِلَى مَتْبَعِ النَّهْرِ ، أَمَّا أَنْتَ يَا جَاكَ فَيَأْتِي أُرِيدُكَ أَنْ نَأْخُذَ بَعْضَ الْجِبَادِ وَنَتَّبِعَ جِسْرَ النَّهْرِ ، أَمَّا أَنَا وَمِينَا فَسَوْفَ نَأْخُذُ الْقِطَارَ إِلَى فَرِسْتِي ، وَمِنْ هُنَاكَ نَمْضِي فِي طَرِيقِنَا نَحْوَ الْحِصْنِ فَإِذَا لَقِيتُمُ دِرَاكُولَا فِي الطَّرِيقِ فَتَصَرَّفُوا مَعَهُ ، أَمَّا إِذَا لَمْ تَلْقَوْهُ فَسَوْفَ نَكُونُ فِي أَنْتِظَارِكُمْ فِي الْجِبَالِ . إِنَّهَا فُرْصَتُنَا الْأَخِيرَةُ . »

الفصل العشرون

حينما جاء جونان إلى ترانسيلفانيا لأول مرة كان الجو مشمساً ، ومن ثم كان السفر ممتعاً . أما الآن فالدنيا خريف ، والصباح الباكر مغمم فوق النهار ، والضباب مخيم في أغلب الأوقات . ولذلك كان جونان يستعد بالدفع حينما يفتح صندوق الاحتراق في الزورق البخاري الصغير ويضع فيه مزيداً من قطع الخشب .

وطوال يومين — كان الزورق يسير فيهما ليلاً ونهاراً — كانا يمران بقليل من الزوارق الصغيرة التي لم تكن حجبها يتسع لحمل صندوق الكونت . ولكن في اليوم الثالث — وحينما كان الزورق يمر بحلال نهر بيستريز — غلبا من بعض السلوك العابر أن هناك زورقاً كبيراً كان يمحّر غباب النهار بسرعة غير عادية ، قد مر بهم في اليوم السابق . وقد أحيا هذا الخبر الأمل في نفسيهما . وحينما زادا من سرعة الزورق كان مجرى النهار قد أصبح ضيقاً صخياً ، ولم يحتل الزورق الصخور فاصابه عطل في النهاية ، واستغرق إصلاحه عدة ساعات ، كما أن الطقس بدأ يسوء .

كانا — في ذلك الوقت — على بُعد حوالي تسعين كيلو متراً فقط من بيستريز . وكان أثر يجشي أن يكون الصندوق قد سبق نقله إلى البر . ولذلك غادروا الزورق عند أول مدينة صغيرة ليستخدما الجياد ، وقرروا أن يسيرا بها عبر الطريق الريفية الصغيرة متجهين إلى الحكان المحدد للقاء مينا وألبرويسور . ولم يكونا قد شاهدا جاك سيوارد منذ أول يوم غادرا فيه غالاتز ، ولذلك اعتقدا أنه سبقهما على الطريق .

أما ألبرويسور ومينا فكانا قد وصلا إلى فرستي في منتصف نهار اليوم الحادي والثلاثين . وكانت هذه المحطة هي نهاية مسار القطار ، ولذلك غادرا ليركبا عربة تأخذهما لمسافة بضع كيلومترات من فرستي إلى طريق بيستريز الجبلية .

وأشترى ألبرويسور بعض الطعام والملابس الثقيلة ، وقال لمينا : « ربما لا نرى مدينة أخرى لمدة أسبوع . »

كَاتِبِ الطَّرْقِ سَيِّئَةً ، وَلَكِنَّ فَاَن هِيْلَسِيْنِغْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الْكَلَّلَ ، وَ مَضِيَا قُدَمَا ، وَلَمْ يَكُونَا يَتَوَقَّفَانِ إِلَّا لِفَتْرَاتٍ قَصِيْرَةٍ مِنْ أَجْلِ التَّوْمِ ، أَوْ لِتَغْيِيْرِ الْجِيَادِ كُلَّمَا كَانَ ذَلِكَ مُمَكِّنًا . حَتَّى بَلَّغَا طَرِيْقَ يِيْسْتِرِيْتَزْ فِي الْيَوْمِ الثَّالِي .

كَانَتْ مِيْنَا تَنَامُ كَثِيْرًا ، وَلَكِنَّ الْأَحْلَامَ الَّتِي كَانَتْ تَرَاهَا عَنِ الْمَاءِ تَوَقَّفَتْ ، مِمَّا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ دِرَاكُولَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ غَادَرَ النَّهْرَ . وَالْآنَ وَقَدْ أَخَذَا يَزْدَادَانِ صُعُودًا فِي الْجِبَالِ ، بَدَأَتْ مِيْنَا تَتَخَلَّصُ مِنْ رَغْبَتِهَا فِي النَّعَاسِ ، وَبَدَا عَلَيْهَا الْإِهْتِمَامُ الشَّدِيْدُ بِالطَّرِيْقِ ، وَأَخِيْرًا هَتَفَتْ وَهِيَ تُشِيرُ إِلَى طَرِيْقٍ جَانِبِيَّةٍ : « هِذِهِ هِيَ الطَّرِيْقُ . »

فَقَالَ فَاَن هِيْلَسِيْنِغْ : « أَلَيْتِ مُتَأَكَّدَةٌ ؟ »

فَاجَابَتْ : « بِالطَّبَعِ ، أَلَمْ يُسَافِرْ جُونَاثَانُ فِي هِذِهِ الطَّرِيْقِ وَيُخْبِرُنِي عَنْهَا ؟ »

وَمَعَ أَنَّ الْأَمْرَ بَدَا لِفَاَن هِيْلَسِيْنِغْ غَرِيْبًا فَإِنَّهُ أَطَاعَهَا ، وَبَعْدَ سَاعَتَيْنِ ثَبِيْنٍ أَنَّهَا كَانَتْ عَلَى صَوَابٍ ، فَقَدْ شَاهَدَا — لِأَوَّلِ مَرَّةٍ — مِنْ خِلَالِ فُرْجَةٍ بَيْنَ الْأَشْجَارِ جُدْرَانًا تُكَلِّلُهَا السُّحُبُ .. جُدْرَانِ قَلْعَةٍ دِرَاكُولَا . فَانْتَسَحَبَا بَعِيْدًا عَنِ الطَّرِيْقِ بَيْنَ الْأَشْجَارِ ، وَأَذْرَكَ فَاَن هِيْلَسِيْنِغْ أَنَّ الثَّلَجَ سَيَسْقُطُ ، فَأَوْقَدَ نَارًا . ثُمَّ أَخَذَ عُوْدًا وَحَطَّ بِهِ دَائِرَةً حَوْلَ النَّارِ وَمِيْنَا ، وَالْقَى فِيهَا بَعْضَ لُطْعٍ صَغِيْرَةٍ مِنَ الْخُبْزِ الْمُقَدَّسِ . ثُمَّ مَشَى إِلَى خَارِجِ الدَّائِرَةِ ، وَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَى مِيْنَا وَهِيَ جَالِسَةٌ بِجَوَارِ النَّارِ صَامِتَةً كَالْأَمْوَاتِ ، ثُمَّ نَادَى : « مِيْنَا ، ثَعَالِي إِلَى هُنَا . »

فَتَهَضَّتْ وَبَدَأَتْ تُمَشِي نَحْوَهُ ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ ، وَبَدَا أَنَّهَا عَاجِزَةٌ عَنِ التَّقَدُّمِ حُطُوءَ أُخْرَى . فَمَدَّ فَاَن هِيْلَسِيْنِغْ يَدَهُ نَحْوَهَا وَقَالَ : « ثَعَالِي . »

فَهَزَّتْ رَأْسَهَا ثُمَّ أَنْهَارَتْ فَوْقَ الْأَرْضِ . لَقَدْ حَدَّثَتْ مَا تَوَقَّعَهُ . كَانَتْ فِعْلًا قَدْ أَصْبَحَتْ يَنْصَفُ مَصَاصَةً دِمَآءٍ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكَ خَارِجَ الدَّائِرَةِ . وَلَكِنْ إِذَا لَمْ تَكُنْ هِيَ قَادِرَةً عَلَى آجِتِيَاِزِ الدَّائِرَةِ لِتَخْرُجَ مِنْهَا ، فَإِنَّ الْأَخْرِيْنَ لَنْ يَكُونُوا قَادِرِيْنَ عَلَى اقْتِحَامِ

الدَّائِرَةُ لِيُدْخِلُوهَا . أَمَّا هُوَ فَسَيَكُونُ آمِنًا مَا بَقِيَ فِي دَاخِلِ الدَّائِرَةِ ، وَ مَا دَامَ يَخْرِصُ عَلَى الْآ
بُصْبَةِ أَدَى مِنْ مِينَا نَفْسِهَا . وَأَخَذَ يَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا ، أَمَّا هِيَ فَقَدْ عَادَتْ إِلَى النَّارِ وَ جَلَسَتْ
بِجَوَارِهَا مُسْتَعْرِفَةً فِي أَفْكَارٍ عَمِيقَةٍ حَقِيقَةٍ .

حَيَّمِ الظَّلَامُ عَلَى الْمَكَانِ ، وَكَانَتْ الْجِيَادُ تُصْنَعُ صَهِيلًا مَذْعُورًا ، وَتُحَاوِلُ الشَّخْصَ
مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي رُبِطَتْ إِلَيْهَا . فَالْتَجَهَ قَانِ هِيلْسِينْغَ إِلَيْهَا ، وَرَبَّتْ عَلَيْهَا يَدَيْهِ لِتَهْدِئَتِهَا .
وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ مَنُوهَا مَكْدُودًا فَإِنَّهُ لَمْ يَجْزُ أَنْ يَنَامَ قَبْلَ أَنْ تَنَامَ مِينَا الَّتِي كَانَتْ أَرْقَى .

وَفِي حَوَالِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ صَبَاحًا بَدَأَتْ النَّارُ تَحْمَدُ ، وَكَانَ يُوشِكُ أَنْ يَنْهَضَ لِخُضْرٍ
بَعْضَ الْخَشَبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَاتَرَ سُقُوطُ الصَّبْعِ حِينَمَا تَكَلَّمَتْ مِينَا . قَالَتْ : « لَا تَخْرُجْ
مِنَ الدَّائِرَةِ الْآنَ . ابْقِ كَمَا أَنتَ آمِنًا . »

فَقَوَّفَ قَائِلًا : « رُبَّمَا أَكُونُ آمِنًا ، أَمَّا أَنْتِ ... »

فَاطْلَقَتْ ضِحْكَةً خَافِيَةً غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ وَقَالَتْ : « لَا تَخَفْ عَلَيَّ . لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَشَدُّ
أَمَانًا مِنِّي . فَأَنَا فِي أَمَانٍ مِنْهُمْ . »

وَكَانَ يُوشِكُ أَنْ يَسْأَلَهَا عَمَّنْ كَانَتْ تُعْنِي بِقَوْلِهَا « مِنْهُمْ » حِينَمَا صَهَلَتْ الْجِيَادُ
ثَانِيَةً ، فَظَنَرَ فَإِذَا ثَلَاثُ نِسَاءٍ يَتَحَرَّكْنَ حَوْلَ حَافَةِ الدَّائِرَةِ كَمَا تَفْعَلُ الرَّاكِصَاتُ ، فَتَمْلِكُهُ
الْخَوْفُ إِذْ أَدْرَكَ أَنَّهُنَّ لَا يَدَّ أَنْ تُكَنَّ سَيِّدَاتِ الْقَلْعَةِ اللَّائِي شَرِبْنَ مِنْ دَمِ جُونَاتَانِ . وَمَدَّتْ
النِّسَاءُ أَذْرُعَهُنَّ نَحْوَ مِينَا كَمَا لَوْ كُنَّ يُدْعَوْنَ لِتَشَارِكَهُنَّ . وَأَحْسَرُ قَانِ هِيلْسِينْغَ بِمَا بَدَأَ
يَتَنَابَّ مِينَا مِنْ إِثَارَةِ أَخَذَتْ تَتْرَائِدُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا . وَفَكَّرَ ، ثَرَى هَلْ سَتُظَلُّ الْقُوَّةُ الَّتِي فِي
الدَّائِرَةِ صَامِدَةً ؟

وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرَكَ الْأُمُورَ لِلْمُصَادَفَةِ ، فَالْتَفَطَ قِطْعَةً مِنَ الْخَشَبِ الْكَمْتَوْهَجِ وَأَلْقَاهَا
عَلَيْهِنَّ وَصَاحَ : « بِاسْمِ الرَّبِّ اذْهَبْنَ بَعِيدًا . » فَإِذَا بِهِنَّ يَتَعِدْنَ صَارِيحَاتٍ لِاعْتَابٍ .

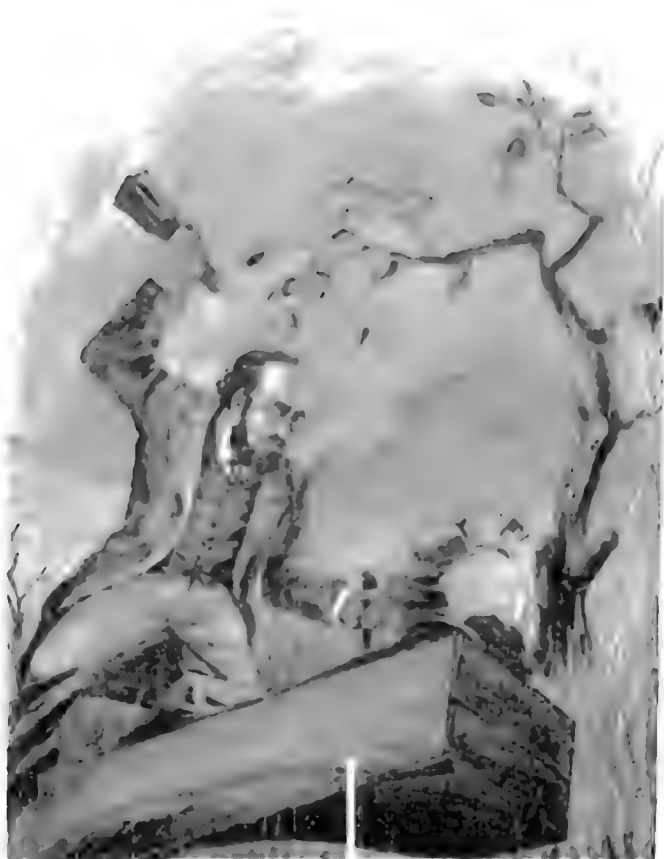
وَعَادَ السُّكُونُ يُحْيِيهِمْ عَلَى الْمَكَانِ ، وَأَحْسَ بِإِزْهَاقِ لَمْ يُجَسَّ بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنْ مِمَّا
كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرَاتٍ غَرِيبَةً . وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُوَاجِهَ الْحَقِيقَةَ الْمُسْتَرْعَةَ ، إِذْ لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ
أَمَانٌ فِي أَنْ يَنَامَ وَهُوَ بِصَحَّتِهَا . إِنَّهَا تُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ عَالَمَ الْأَلَامَاتِ .
وَأَقْبَلَ التَّهَارُ بِطُيٍّ ، وَتَوَقَّفَ سَقُوطُ الصَّقِيعِ ، وَلَكِنْ السَّمَاءُ كَانَتْ لَا تَزَالُ مُلْهَدَةً
بِالْعُيُودِ .

كَانَ جُونَاثَانُ وَآزَّرَ قَدْ أَلْتَقِيَ بِجَاك سِيوَارْدَ عَلَى الطَّرِيقِ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ . وَبَيْنَمَا كَانَ
الْأُفْرَسَانُ الثَّلَاثَةُ فِي طَرِيقِهِمْ لَاحِظُوا آثَارًا حَدِيثَةً لِمَجَلَّاتٍ فَوْقَ الْأَرْضِ الَّتِي يَكْسُوهَا
الصَّقِيعُ الْخَفِيفُ . فَاسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَبْعُدُونَ عَنْ عَدُوِّهِمْ إِلَّا مَسَافَةً قَصِيرَةً . وَبَعْدَ
الظَّهْرِ بِقَلِيلٍ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَلْمَحُوا فِي طَرِيقِ الْجَبَلِ فَوْقَهُمُ الْعَجَرَ الَّذِي كَانَ السُّلُوفَاكُ قَدْ
سَلَّمُوا إِلَيْهِمُ الصُّنْدُوقَ . وَحِينَمَا أَخَذَتِ الشَّمْسُ تَمِيلَ بِطُيٍّ لِلْمَغِيبِ كَانَ وَاضِحًا لِلْجَمِيعِ
أَنَّهُمْ فِي سِيَاقٍ مَعَ الزَّمَنِ .

وَفَجَاةً سَمِعُوا طَلْقَةً تُدَوِّي فِي الْفَضَاءِ ، وَكَانَ مَصْدَرُهَا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنْهُمْ .
فَسَحَبَ جُونَاثَانُ السَّكِينِ الْهِنْدِيَّ الَّذِي مَعَهُ ، وَحَثَّ جَوَادَهُ الْمَكْدُونِ لِيَنْطَلِقَ ،
وَأُوشِكَتْ الْمَعْرَكَةُ الْفَاصِلَةُ أَنْ تَبْدَأَ .

تَوَقَّفَ الْعَجَرُ ، وَتَجَمَّعُوا حَوْلَ عَرَبَتِهِمْ وَفِي أَيْدِيهِمُ السَّكَاكِينُ ، وَفِي مُوَاجَهَتِهِمْ فِي
وَسْطِ الطَّرِيقِ كَانَ فَاَن هِيلْسِينْغُ يَقِفُ شَاهِرًا مُسَدَّدًا . وَبَدَا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ مُتَرَدِّدُونَ لَا يَعْرِفُونَ
مَاذَا يَقْعَلُونَ . كَانَ فَاَن هِيلْسِينْغُ وَاحِدًا ، وَكَانُوا كَثِيرِينَ . صَحِيحٌ أَنَّهُ يَحْمِلُ مُسَدَّدًا ،
وَلَكِنْ مَاذَا إِذَا هَاجَمُوهُ كُلُّهُمْ دُفْعَةً وَاحِدَةً ؟

وَلَكِنْ الْوَقْتُ لَمْ يُسَعِفْهُمْ لِكَيْ يَتَّخِذُوا قَرَارًا ، فَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ حَتَّى كَانَ الْأُفْرَسَانُ
الثَّلَاثَةُ يَتَدَفَعُونَ بِجِيَادِهِمْ لِعُيُودِهِمْ مُبَاشَرَةً ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ جُونَاثَانُ يُلَوِّحُ بِسِكِّينِهِ وَيَصْيحُ
صَوِّحَاتٍ ضَائِقَةً .



كَانَ الْغَمْرُ مَكْدُودِينَ مِنْ وَغْيَاءِ السَّفَرِ ، وَأَخَذَهُمْ هَوْلُ الْمَفْاجِئَةِ ، فَتَطَاهَرُوا بِرُءْمِهِ
بِمُظْهِرِ الْمُقَاتِلِينَ ، وَلَكِنْ سَرَعَانَ مَا تَكْصُوا عَلَى أَغْصَابِهِمْ وَقَرُّوا هَارِينَ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ .

كَانَتْ الشَّمْسُ وَقَبِيذٌ قَدْ أَخَذَتْ تَنَذُلِي نَحْوَ أَسْفَلِ الْجَبَلِ حَتَّى بَلَغَتْ مُنْتَصَفَ
الْمَسَافَةِ ، وَأَذْرَكُوا أَنَّهُ بَعْدَ دَقَائِقٍ تَعُودُ إِلَى دِرَاكُولَا قُوَّتُهُ وَيَقِيْقُ . فَكَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُسَارِعُوا
قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ . وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ فَاتَهُمْ أَنْ يُحْضِرُوا آلَةَ يَفْتَحُونَ بِهَا الصُّنْدُوقَ ، فَالْتَقَطُوا
بَعْضَ الْأَخْجَارِ وَتَسَلَّقُوا الْعَرَبَةَ وَأَخَذُوا يَطْرُقُونَ أَعْلَى الصُّنْدُوقِ بِشِدَّةٍ كَأَنَّهُمْ مَجَانِينُ .
وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ بَلَغَتْ فِي تَذَلُّهَا ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْمَسَافَةِ نَحْوَ أَسْفَلِ الْجَبَلِ . وَكَانُوا يَكَادُونَ
يُجِسُّونَ جَسَدَ دِرَاكُولَا بِتَحَرُّكِ دَاخِلِ الصُّنْدُوقِ ، وَأَخِيرًا وَمَعَ الضَّرَبَاتِ الْمُتَتَالِيَةِ
بِالْأَخْجَارِ ، تَحَطَّمَ حَشَبُ الصُّنْدُوقِ ، وَبَدَأَ يَظْهَرُ وَجْهُ دِرَاكُولَا ، ثُمَّ انْفَتَحَ فَمُهُ ، وَخَرَجَ
مِنْهُ صَوْتٌ خَفِيفٌ . إِنَّ قُوَّةَ الشَّرِّ قَدْ اسْتَيْقَظَتْ . بُرَى هَلْ فَاتَ الْأَوَانُ ؟

كَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ اخْتَجَبَتْ أَسْفَلَ الْجَبَلِ حِينَمَا وَضَعَ الْبُروفيسورُ قِطْعَةَ الْخَشَبِ —
الَّتِي كَانَ قَدْ قَطَعَهَا مِنْ شَجَرَةٍ — فَوْقَ قَلْبِ مَصْصِ الدَّمَاءِ . ثُمَّ رَفَعَ كُتْلَةً مِنَ الْخَشَبِ
وَطَرَفَهَا بِهَا بِشِدَّةٍ .

كَانَتْ لَحْظَةً رَهِيبةً . وَهَيْهَاتَ أَنْ يَنْسَوْا ، مَهْمَا آمَنَتْ بِهِمُ الْعُمُرُ — آخِرَ صَبِيحَةٍ أَطْلَقَهَا
دِرَاكُولَا عِنْدَمَا انْفَتَحَتْ عَيْنَاهُ وَالْعَرَزُ الطَّرْفُ الْمُدْبِبُ فِي قَلْبِهِ . وَكَانَتْ الصَّبِيحَةُ هِيَ الَّتِي
جَعَلَتْ مِينَا تُهْرَوِلُ نَحْوَهُمْ مِنْ مِثْلَةِ الْأَشْجَارِ حَيْثُ كَانَتْ مُحْتَفِيَةً ، وَكَانَتْ الْخَمْسَةُ
جَمِيعًا حَوْلَ جُذْءٍ عَدُوَّهُمْ .

وَأَخِيرًا هَمَدَتِ الْجُذْءُ ، وَتَوَقَّفَتْ حَرَكَاتُ الذَّرَاعَتَيْنِ وَالرُّجْلَيْنِ الضَّارِيَةِ ، وَنَظَرُوا فَإِذَا
وَجْهُهُ الَّذِي لَا يَزَالُ مَمْلُوءًا بِالْجَفْدِ يَتَحَوَّلُ مِنْ أَيْضَ إِلَى أَصْفَرٍ ثُمَّ إِلَى زَمَادِي . وَبَدَأَ
الْجَسَدُ كُلَّهُ يَجِفُّ وَيَضْمُرُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَمَا هِيَ إِلَّا خَمْسُ دَقَائِقٍ حَتَّى بَدَأَ أَشْبَهَ بِالْخَضِرِ
الذَّابِلَةِ ، ثُمَّ ضَمَرَ وَذَوَى نِهَائِيًا .

كانوا يُراقِبُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُحَوِّلُوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا يَحْدُثُ . وَلَمْ تُكُنْ قَدْ مَضَتْ
نَحْوَ عَشْرِ دَقَائِقٍ مُنْذُ انْعَزَزَ الطَّرْفُ الْمُدْبِبُ فِي قَلْبِ دِرَاكُولَا — حَتَّى كَانَ الْجَسَدُ كُلُّهُ قَدْ
تَحَلَّلَ . وَذَهَبَتْ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ قُوَى الشَّرِّ الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُ فِيهِ .

وَالْتَقَتِ الرَّجَالُ إِلَى مِينَا ، وَمَعَ أَنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ كَانَ قَدْ ذَهَبَ ، فَقَدْ اسْتَطَاعُوا أَنْ
يَلْحَظُوا التَّغْيِيرَ الَّذِي طَرَأَ عَلَيْهَا . فَالْأَسْنَانُ الطَّوِيلَةُ ، وَاللُّوْنُ غَيْرُ الْعَادِي لِلْبَشَرَةِ ، وَالنَّظَرَةُ
الْغَرِيبَةُ فِي عَيْنَيْهَا .. كُلُّ ذَلِكَ قَدْ احْتَفَى .

لَقَدْ عَادَتْ ثَانِيَةً لِتَكُونَ مِينَا ... مِينَا الَّتِي كَانَتْ يَمِينُ قَبْلُ .. مِينَا الَّتِي أَحَبَّهَا جُونَاثَانُ .
لَقَدْ نَجَتْ .

الروايات المشهورة

- | | |
|----------------|---------------------------|
| ١ - جين إير | ٤ - دراك - ولا |
| ٢ - فرانكشتاين | ٥ - اورنادون |
| ٣ - مونفلين | ٦ - دكتور سيكل ومستر هايد |



مَكْتَبَةُ لَبْنَانَ
سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَح - بَيْرُوت

رقم مرجع كميونر 01 G 198 104